منشورات جامعة تشرين

نحو فهم جديد منصف لأدب الدول المتتابعة وتاريخه

الجزء الثاني



طبع في
... الكتب والمطبوعات بجامعة حلب
... اذن خاص من جامعة تشرين

مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م



الجمهورية العربية السورية
وزارة التعليم العالي
جامعة تشرين باللاذقية

نحو فهم جديد منصف لأدب الدول المتتابعة وتاريخه

نعيم الحمصي

الجزء الثاني

مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية

١٤٠١ – ١٤٠٢ هـ
١٩٨١ – ١٩٨٢ م



النثـــر

مكانتـــه وموضوعاتـــه :

يخيل الى كثيرين أن النثر في هذه الحقبة ، بما حمل من أوزار الصناعتين البيانية والبديعية المتكلفتين تكلفاً شديداً ، قد عجز عن التعبير عن وصف الحالة السياسية ، وتطلعات الأمة ونزعاتها وأوضاعها وآلامها وأمراضها ، ولا سيما النثر الديواني منه • والواقع أنه قام بمهمته قياماً جيداً وتعدى القدرة على وصف الواقع الى القدرة على توجيه السياسة العليا وتقوية المعنويات والحث على الجهاد والاعداد للحرب في سبيل طرد المغتصبين • وذلك يتجلى في فنونه المختلفة ، من خطابة سياسية وحربية ودينية ، ومن رسائل سلطانية واخوانية ووجدانية ، ومن أدب وصفي مختلف الانواع ، وبما ألف في الجهاد وفضائل المدن والسياسة والاخلاق والقصص والمقامات والتاريخ والسير والمناقب ووصف أحوال الأعداء •

وتناول الادب موضوعات من صميم الحياة ، لم يكن يتناولها الادب القديم ، كوصف الحمامات العـامة وذم بعض العادات الشاذة في المجتمع ، والسخرية بالاوضاع المشينة ونقد موظفي الدولة كالعاملين في الدواوين والمكوس •

وألفت كتب في الادب منها ما دار حول موضوع واحد ومنها ما شمل عدة موضوعات ومنها ما شرح كتباً سابقة •

ونشأ أدب شعبي من صميم الشعب يتذوقه العامة والخاصة ، منه مقامات ومنه قصص ، ومنه ما يشبه التمثيليات ، وكان يعد بذرة صالحة لها لو ساعدت ظروف الحياة من سياسية واجتماعية وفنية ، كتمثيليات خيال الظل المسـماة بالبابات •

الخطـــابة

ازدهرت الخطابة في عهد النبي والخلفاء الراشدين والعهد الأموي وبداية العهد العباسي ، ويمكن أن نميز فيها النـوع الديني والنوع الحربي والنوع السياسي • ولكل من هذه الانواع ميدانه ويمكن أن نلحق بهذه الانواع المناظرة

والمواعظ في المساجد والقصص الديني ، وإن كان لهذه الثلاث سمات تميزها عن الخطـابة •

كانت الدولة الفاطمية تعنى بالخطابة• وكان الخليفة نفسه يخطب أحياناً في مساجد القاهرة والفسطاط من انشائه أو مما يهيئه له ديوان الانشاء ، وكان يختار للخطابة في المساجد الكبيرة أشهر العلماء والقضاة ويمدح الرجل فيقال هو من بيت رياسة وخطابة ، واستمرت العناية بالخطابة في العهدين الايوبي والمملوكي •

وكان يشترط في الخطيب أن يكون فصيحاً حافظاً للقرآن وكان الفاطميون يشترطون أحياناً أن يكون من الأشراف •

ومن النصوص الدالة على ما كان يراعى في الخطيب من صفات حين تعيينه ، التقليد الذي تعين فيه قاضي القضاة كمال الدين بن العديم (ت ٦٦٠ هـ) خطيباً لأحد الجوامع الكبرى وأرجح أنه جامع دمشق ، وقد جاء فيـه :

« ••• لأنه الإمام الذي لو تقدّم عصره لكان أحد أئمة الاجتهاد والعارف الذي بلغ بولايته مريد الفضل غاية المراد ، والعالم الذي وجدت أخبار علومه نسبة يطابقها في الخارج صالح العمل ، واتبع سنن الكتاب والسنة ، فلم يتخلل طريقته المثلى خلل ، والمحقق الذي وجد الى الحقيقة أكمل مجاز ، والمفوه الذي بلغ من البلاغة في كلام البشر حـدّ الاعجاز ، إن خطب شنّف بدرر مواعظه الأسماع ، وشرف بغرر فرائده الأسجاع ، واهتزت أعواد المنابر طرباً لكلمه الطيب وروى أوام القلوب سحّ فضله الصيّب ••• ولو نظر الملكان هاروت وماروت ما ملكه من كتابته الساحرة لأقرّا أنّه السحر الحلال ••• فليباشر هذه الخطابة مباشرة ترشف منها كؤوس كلمه الأسماع • وليكشف لها عـن وجوه فضائله القناع ، ولينثر عليهم من درر بلاغته ما تلتقطه أفواه المسـامع ••• وليطرب بمواصيل أسجاعه القاطعة بفضائله المكملة ••• ولينفق على الجمع يوم الجمعة بما آتاه الله تعالى من كنوز الفضائل ، وليبلغهم من بلاغته التي أخملت ذكـر (قس) و (سحبان وائل) » •

« صبح الأعشى ٢ ص ١٤٤ و ٤٤٠ »

وقد يتوالى الخطباء من أسرة واحدة كما توالوا في أسرة ابن دقيق العيد[1] (الطالع السعيد ص ٢٩٦) • وكان المسجد مكان الخطبة في أيام الجمع وقد يجمع الناس فيه حين يحدث أمر عظيم يستدعي الخطابة كما حدث حين سقطت دمياط في أيدي الفرنجة وتحرك الافرنج منها بعد موت الملك الصالح أيوب يريدون الاستيلاء على مصر فالقيت خطبة ألهبت حماسة الناس ودفعتهم الى الجهاد • وهي مضمون كتاب أرسل اليهم بدىء بالآية الكريمة : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون » •

« المقريزي ، جـ ١ : ٣٥٦ »

وقد يخطب بعض العلماء الجريئين منتقداً أعمال الحاكم مصرحاً بمخالفتها للدين كما فعل عز الدين بن عبد السلام[2] خطيب مسجد دمشق حين انتقد الملك الصالح لتسليمه صفد والشقيف للفرنج ولم يبال بالعزل والسجن •

« فوات الوفيات ١ : ٢٨٨ »

وكان يدعى لأولى الأمر في الخطبة الثانية من خطب الجمعة وفي خطب العيدين وغيرها من الخطب •

وفي العهد الفاطمي كان يدعي في خطبة الجمعة لوزير الحافظ الفاطمي أحمد ابن الافضل أمير الجيوش فيوصف بهذه الصفات : ناصر أمام الحق ، هادي العصاة الى اتباع الحق ، مولى الأمم ومالك فضيلتي السيف والقلم

وكان يدعي لنور الدين محمود فيوصف بهذه الصفات :

« اللهم ••• اصلح عبدك الفقير الى رحمتك الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك أبا القاسم محمود بن زنكي ابن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين » •

وكان يدعى لصلاح الدين فيوصف بهذه الصفات :

---

(١) اشتهرت في العهد المملوكي التركي وراسها موسى بن علي (ت ٦٨٥ هـ) .

(٢) مخضرم بين العهدين الا وبي والمملوكي . وقد تحدثنا عنه بين نوابغ العلماء .

« اللهم وأكرم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف بموهبتك سيفك القاطع وشهابك اللامع والمحامي عن دينك المدافع والذاب عن حرمك الممانع السيد الأجل الملك الناصر جامع كلمة الايمان ، وقامع عبدة الصلبان »[٢] .

ويتبين لنا من موازنة هذه الأدعية بعضها ببعض كيف اختلف الدعاء باختلاف حال المدعو له من الأمة ومن الأعداء . فقد دعي لوزير الخليفة الفاطمي على أنه ناصر مولى الأمم وناصر امام الحق وذلك يناسب الدعوة الفاطمية السياسية ، ودعي لنور الدين دعاء يناسب جهاده لطرد الاعداء وتفانيه في نصرة الدين في وقت لم ينل فيه المسلمون نصراً حاسماً على الصليبيين ، ودعي لصلاح الدين دعاء يناسب انتصاره الحاسم عليهم فهو سيف الاسلام القاطع وشهابه اللامع .

وقد ألّف كثير من الخطباء في هذه الحقبة دواوين للخطب . منهم في العهد الفاطمي ــ الزنكي يحيى بن سلامة الحصكفي (ت ٥٥١ هـ) ، وفي العهد الأيوبي شميم الحلّي (٦٠١ هـ) صاحب كتاب « نتائج الإخلاص » ، ويحيى بن معطي الزواوي (٦٢٨ هـ) ومحمد بن هبة الله البرمكي (٦٢٨ هـ) ؟[٢] ، وأبو محمد القاسم بن القاسم الواسطي (٦٢٦ هـ) ومنهم في العهد المملوكي التركي أحمد بن المبارك بن نوفل (٦٦٤ هـ) وابن المنيّر السكندري (٦٨٣ هـ) ، وابن دقيق العيد (٦٨٥ هـ) ، وقد ألّف هؤلاء كلّهم دواوين خطب وقد سبقهم الى ذلك ابن نباتة معاصر المتنبي .

« عن الحياة الادبية ، د. بدوي ص ٣٨٠ »

وكان لخطب ابن نباتة المعاصر للمتنبي وسيف الدولة ، قيمة عظيمة حينئذ فقد كان الخطباء يسيرون على غرارها حتى قال ابن الاثير « بأنها عكاز أهل هذا

---

(١) راجع بحث الخطابة في « الحركة الادبية زمن الحروب الصليبية للدكتور عبد اللطيف حمزه » .

(٢) لعلّه محمد بن هبة الله بن ابي جرادة الحلبي من بني العديم ، (ت ٦٢٨ هـ) ولكن من أين جاء لهذا لقب البرمكي ؟ ولعلّه غيره .

الزمان » وكانت تميل الى السجع ، بل اننا نراه يلتزم حرف الباء في فواصل خطبة طويلة .

« الحياة الادبية ٣٣٥ وما بعدها »

ومن الخطب التي كانت تكتب خطبة الزواج . ومن ذلك خطبة الصداق التي كتبها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر للملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس على بنت الامير قلاوون الألفي في العهد المملوكي التركي ومنها :

« الحمدُ لله موفّق الآمال لأسعد حَرَكة ، ومصدّقِ الفأل لمن جعل عنده أعظمَ بركة ، ومحقّقِ الإقبال لمن نسيبُه سلطانه ، وصهرُه ملكُه ، الذي جعل للأولياء من لدنه سلطاناً نصيراً ، وميّز اقدارَهم باحتفاء تأهّله حتى حازوا نعيماً ومُلْكاً كبيراً ، وأفرد فخارَهم بتقريبه حتى أفاد شمسَ آمالهم ضياءً ، وزاد قمرَها نوراً ... » .

« القلقشندي ، صبح الأعشى ١٤ : ٣٠٠ »

وظهرت في هذا العصر الخطب التدريسية وهي الخطب التي كان يلقيها العلماء ، والفقهاء منهم بخاصة ، في مفتتح مواسم الدراسة في المدارس أو المساجد التي يكلفون بالتدريس فيها .

وكان الخطباء فريقين : فريقاً يؤثر السجع على طريقه ابن نباتة ، وفريقاً يتجنبه ويؤثر الاسلوب الحر كعز الدين بن عبد السلام . ولم يصل الينا شيء من خطبه . وانما اتّبع الاسلوب الحر لأن خطب السلف كانت خالية من السجع الا ما جاء عفو الخاطر وكان أسلوبه حراً كنفسه في عصر لم يستطع فيـــه أكثر الخطباء أن يتحرر تحرره . ومواقفه معروفة مشهودة .

اشتهر من خطباء هذه العهود ابراهيم بن منصور العراقي (ت ٥٩٦ هـ) امام الجامع العتيق وخطيبه ، وابنه محمد الذي ألّف ديوان خطب اشتهر ، من العهد الفاطمي ــ الزنكي ، وابن زكي الدين صاحب الخطبة امام صلاح الدين حين فتح القدس وشمس الدين بن أبي المغضاء الذي جعله صلاح الدين رسوله الى الخليفة ، من العهد الايوبي ، وبنو العدَيم الذين تعاقبوا على القضاء والخطابة .

ومنهم الكمال بن العديم وقد خطب في جامع دمشق ، وابن دقيق العيد العالم الاديب الصوفي ، وابن المنير الاسكندري عالم الاسكندرية وخطيبها • وعز الدين ابن عبد السلام ، الذي كان جريئاً في الحق لا يخشى فيه لومة لائم ، والذي استن في خطابته سنناً غير ترك السجع ، منها انه اجتنب الثناء على الملوك واستبدل به الدعاء لهم ، ومنها أنه أبطل دق السيف على المنبر[1] • وهؤلاء الأخيرون من العهد المملوكي التركي • ولم نعرف بعد خطباء مشهورين في العهد المملوكي الجركسي •

مثال من الخطب الدينية ذات الطابع النضالي :

كان خطباء المساجد في هذه الحقبة يحضّون الناس على الجهاد ويبينون لهم ضرورته وواجباتهم في دفع الاعداء من حيث بذل النفس والولد والمال والتضحية بكل شيء في سبيل النصر وطرد الاعداء •

وكان صلاح الدين يتوخى أن تحدث معاركه في وقت الصلاة من أيام الجمع تبركاً بدعاء الخطباء وتفاؤلا بالنصر (النوادر السلطانية ابن شداد ص ٦١) • ولعلّه كان يستفيد حين يبدأ الهجوم في هذا الوقت من تذكير الجند بواجبهم المقدس في الجهاد ، وانهم في يوم جمعة ولولا العدو الغاصب لكانوا يؤدون الصلاة في الجوامع بين أهليهم •

وللخطبة الدينية نظام مأثور فالخطيب يبدؤها بحمد الله ثم يلقي خطبته الاولى في الموضوع الذي يريده ويجلس جلسة قصيرة ثم يقوم فيخطب الخطبة الثانية فيدعو فيها للخليفة ثم للملك والسلطان ثم لسائر المسلمين •

ومن أشهر الخطباء زمن صلاح الدين محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق وهو الذي اختاره صلاح الدين من بين خطباء عدّة رغبوا في أن يلقوا خطبة الجمعة بالمسجد الاقصى في ذلك اليوم الخالد • وهو أبو المعالي محيي الدين محمد بن علي القرشي (٥٥٠ ــ ٥٩٨ هـ) •

---

(١) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ١١٩ في المتن والحاشية . د. احمد احمد بدوي .

صعد المنبر وهو متشح بالزيّ العبّاسي الاسود شعار بني العباس ، وبدأ خطبته بآيات بيّنات في حمد الله حمداً مطولاً ثم ألقى خطبته الأولى التي دارت حول الفتح ، وشكر الله عليه ، وواجبات الجند ...

وفي الخطبة الثانية دعا للخليفة الناصر لدين الله ثم دعا للسلطان الناصر صلاح الدين . وقد أعجب القدماء بها اعجاباً شديداً .

ونكتفي من هذه الخطبة بما يلي :

« أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه ، ونص عليه في خطابه ، فقال تعالى : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا »[1] .

أليس هو البيت الذي عظّمته الملل ، وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من إلهكم عز وجل ؟ .

أليس هو البيت أمسك الله عزّ وجل ، فيه الشمس على يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد من خطواتها ليتيسّر فتحها ويقرب ؟

أليس هو البيت الذي أمر الله تعالى موسى أن يأمر قومه باستنقاذه ، فلم يجبه إلا رجلان ، وغضب عليهم من أجله ، وألقاهم في التيه عقوبة العصيان ؟ .

فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو اسرائيل ، وقد فضّلهم على العالمين ، ووفّقكم لما خذل فيه من قبلكم من الأمم الماضين . وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى . فليهنكم أنّ الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم ، بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم ، جنده ، وشكركم الملائكة المنزلون على ما أهديتم الى هذا البيت من طيب التوحيد ، ونشر التقديس والتحميد ، وما أمطتم فيه عن طرقه من أذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاسد الخبيث ، فهو الآن يستغفر لكم أملاك السموات ويصلّي عليكم الصلوات المباركات .

---

(1) الاسراء ١٧ ، ١ .

فاحفظوا ، رحمكم الله ، هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسّك بها سلم ، ومن اعتصم بعرْوتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، ومواقف الردى ، ورجوع القهقرى ، والنكول عن العدا .
وخذوا في انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقي من الغصة ، وجاهدوا في الله حقّ جهاده ، وبيعوا أنفسكم عبادَ الله ، في رضاه ، إذْ جعلكم من خير عباده وايّاكم أن يستذلّكمُ الشيطانُ ، وأن يتداخلكم الطغيانُ ، فيتخيّل اليكم أن هذا النصرَ بسيوفكم الحِداد ، وبخيولكم الجِياد ، وبجِلادكم في مواضع الجلادَ ، لا ، والله ، « ما النصرُ إلاّ من عند الله ، إنّ الله عزيز حكيم »[1] واحذروا ، عبادَ الله ، بعد ان شرّفكم بهذا الفتح الجليل ، والمنح الجزيل ، وخصّكم بهذا النصر المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ، أن تقترفوا كبيراً مِن مَناهيه ، وأن تأتوا عظيماً مِن مَعاصيه ، فتكونوا « كالتي نقضت غزلها من بعد قوةٍ أنكاثا »[2] و « الذي آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها فأتبعه الشيطانُ فكان من الغاوين »[3] .

والجهادَ الجهادَ ، فهو أفضلُ عباداتكم ، وأشرفُ عاداتكم ، انصروا الله ينصرْكم ، اذكروا الله كثيراً يذكرْكم ، اشكروا الله يزِدْكم ، ويشكرْكم ، جِدّوا في حسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء ، وتطهير بقيّة الأرض التي أغضبتِ اللهَ ورسولَه واقْطعوا فروعَ الكفر ، واجتثّوا أصولَه ، فقد نادت الأيامُ بالثاراتِ الإسلامية والمِلّة المُحمدية . الله أكبر . فتَح اللهُ ونصَر ، وغلَب وقهَر ، وأذلّ اللهُ مَن كفر ، واعلموا ، رحمكم الله ، أنّ هذه فرصةٌ فانتهزوها ، وفريسةٌ فناجزوها ومُهِمّة فأخرجوا إليها هممكم وأبرزوها ، وسيِّروا اليها سرايا عزَماتكم وجهّزوها فالأمور بأواخرها ، والمكاسبُ بذخائرها ، فقد أظفركمُ اللهُ بهذا العدوّ المخذول وهم مثلكم أو يزيدون ، فكيف وقد أضحى في قبالة الواحدِ منهم منكم عشرون ، وقد قال تعالى : « إنْ يكنْ منكم عشرون صابرون يغلِبوا مائتين » .

---

(١) الأنفال ٨ ، ١٠

(٢) النحل ١٦ ، ٩٢

(٣) الأعراف ٧ ، ١٧٥

أعاننا الله وإيّاكم على اتّباع أوامره ، والازدجار بزواجره ، وأيّدنا ، معشرَ المسلمين ، بنصرٍ مِن عنده « إنْ ينْصركُم اللهُ فلا غالبَ لكم . وإنْ يخذلْكم فمن ذا الذي ينصرُكم مِن بعدِه » .

« ابن واصل ، مفرّج الكروب ٢ : ٢١٨ — ٢٢٨ ، وأبو شامة ، الروضتين ، جـ ٢ : ١١٠ ، ووفيات الاعيان ٣ : ٣٦٥ — ٣٧١ »

هذا وقد حطب الخطيب يومئذ على المنبر الذي أنشأه نور الدين زنكي لبيت المقدس قبل فتحه بعشرين سنة ، وعُدَّ ذلك كرامةً لنور الدين الذي كان قد صمّم على فتح القدس وسائر المدن المحتلة ، ولكن الموت لم يمهلْه وكان قد رأى بِفراسته أنَّ النصرَ قريبٌ وأنَّ القدسَ ستُفتحُ وقد دعا الناس يومئذ له بالرحمة ولصلاح الدين بالنصر .

كلمة في هذه الخطبة كاملة لتعطي صورة عما حذفناه منها :

هذه الخطبة دينية قومية ، ونعني بقومية هنا أنها تمثل نضال الامة ضد أعدائها الغاصبين . وهي تنقسم شكلا الى قسمين كجميع الخطب الدينية : الخطبة الاولى والخطبة الثانية وبينهما قعدة استراحة قصيرة .

والخطبة الأولى تنقسم الى مقدمة ، وعرض ، وخاتمة .

آ — المقدمـــة :

١ — بدأ المقدمة بعدة آيات من القرآن الكريم في حمد الله على نعمه وهدايته وبينها آية تنذر من يقولون بأن الله قد اتّخذ ولدا ، وانما جعل الآيات في بداية المقدمة ، موافقةً لأصول الخطابة الدينية منْ إيراد الآيات فيها ، ولِخلق جوٍّ من الخشوع والقداسة بين المستمعين ، ولشقّ الطريق الى ما يريد قوله بعد .

٢ — ثم يحمد الله بجمل من صياغته على ما وهب من نصر على الاعداء وقهر لهم واعزاز لدينه وأنصاره وتطهير بيت المقدس من أوضاره . وهو يمهد بذلك لما سيفصل فيه الكلام بعد .

٣ ــ ثم يأتي بالشهادة على وحدانية الله ورسالة النبي ذاكراً عروجه الى السماء من بيت القدس ، مشيراً بذلك الى كرامة هذا البلد في الدين الاسلامي ولدى المسلمين وهو يمهد بذلك لما سيفيض فيه بعدُ حول هذا المعنى •

٤ ــ ثم يصلي على النبي والخلفاء الراشدين مشيراً بذلك الى قيمة الانتصار على الشرك والى أنّ عمر هو أول من أزال من البيت المقدس شعار الصلبان والى أن صلاح الدين فعل مثله فهو يقاس اليه •

وكانت غاية الخطيب من هذه المقدمة اعداد أذهان المستمعين لما سيأتي في عرض الخطبة •

ب ــ عرض الخطبـــة :

١ ــ ينتقل الخطيب بعد المقدمة الى تهنئة الناس بهذا النصر الذي رجع فيه البيت المنشود الى أهله من أيدي الصليبيين الضالين بعد مئة سنة من الاحتلال ، وتطهر من رجسهم •

٢ ــ ثم يشيد الخطيب بمكارم بيت المقدس ومكانته لدى الأديان كلها مبيناً أن المسيح نبي وليس إلهاً وأنه عبد لله وليس ولده •

٣ ــ ثم يشيد بالفاتحين ذاكراً بأن الله كرّمهم بهذا الفتح واختصهم به تشريفاً لهم • ويقارن الفتح بأعظم الفتوحات الاسلامية السابقة ، تاركاً للفكر أن يستوحي أن صلاح الدين ندّ لهؤلاء الفاتحين الاوائل •

٤ ــ ثم يعتدّ الفتح نعمة على الفاتحين وليس فضلا لهم • لإيثار الله إياهم بمكرمته • وهذه لفتة بارعة من الخطيب فيها فطنة يمهّد بها لما سينصحهم به بعد من عدم الغرور •

ومن خلال كلامه نراه يخلع القداسة على الفتح ويجعل الفرحة به تعم السماء والارض والملائكة والنبيين •

٥ ــ ثم يعود الى الاشادة بفضائل بيت المقدس معتمداً الى حوادث من تاريخ الاديان السماوية الثلاثة ، مشيراً بذلك الى قيمة هذه المدينة عندها •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦ ــ ثم يوازن بين اقدام صلاح الدين وجنده ونكوص غيرهم مختصاً بني اسرائيل الذين عصوا ربهم ونبيهم ونكصوا عن الجهاد فعوقبوا بالتيه •

٧ ــ ثم يهنيء الجند بأنهم أصبحوا جند الله بتحريرهم بيت المقدس وتطهيره بعد ان كانوا جنداً لأهوائهم •

٨ ــ ثم ينصحهم بألا يغتروا بهذا النصر فيتقاعسوا عن تحرير بقية البلاد وفي ذلك توجيه جيد الى متابعة النضال وإتمام تنفيذ الخطة الجهادية وينصحهم كذلك بألا يفسدهم النصر فيظنوا أنهم انتصروا بسيوفهم وخيولهم وجهادهم فما النصر الا من عند الله • وهو لا يريد بذلك أن ينكر عليهم جهدهم الطيب وجهادهم المقدس ، وانما يريد أن يجنبهم الغرور •

٩ ــ ثم يحذرهم من الادلال بنصرهم وأستثماره في المعاصي واغضاب الله فانهم حينئذ يهدمون ما قد بنوا من مجد •

١٠ ــ ثم يعود فيحثهم على الجهاد واستئصال شأفة الاعداء والأخذ بالثأر ، فهذه فكرة تشغله لذلك يلح عليها ، ثم يكبر الله بحماسة على هذا النصر ويستحثّ هممهم الى انتصارات قادمة ، فقد انتصروا والعدوّ أكثرُ منهم أو مثلهم عدداً فالآن قد أصبحوا عشرين ضعفاً منه فما عليهم الا أن ينتصروا وقد وعد الله الصابرين بأن تغلب المئة منهم مئتين من عدوهم •

والاقسام من الخامس حتى العاشر تكوّن الجزء الذي أوردناه من الخطبة •

جـ ــ خاتمة الخطبــة :

ثم يأتي بخاتمة الخطبة الأولى فيدعو للجميع بالتوفيق الى طاعة الله والنصر فان الناصر والخاذل هو الله وحده •

د ــ الخطبة الثانية بعـد الاستراحة :

نستطيع أن نعد الخطبة الثانية تلخيصاً للأولى بطريق الدعاء الى الله • فهو بعد أن يدعو بالصلاة على النبي والصحابة والتابعين وللخليفة العباسي في بغداد ــ وهذا القسم غير مذكور فيما بين أيدينا من الخطبة ــ يدعو لصلاح الدين

البقاء مشيداً بجهاده وأعماله الباهرة ، بأن يبسط الله دولته ويقوي حوزته وينشر حوزته ثم يدعو له بأن يفتح أداني الارض وأقاصيها لتخلصها من الشرك وفي هذا الدعاء حث وتوجيه الى اتمام الخطة الجهادية الحربية ، ثم يدعو على الكفار الذل ، ثم يدعو لصلاح الدين بحفظ الملك في ذريته وأهله ثم بأن يكون ثوابه الجنة فهي الملك الابدي الذي لا ينفد .

هذه الخطبة موفورة المشاعر صادقتها يعبر عنها الخطيب في أكثر من مكان من خطبته فهو فرح بالنصر واسترداد بيت المقدس معتز بصلاح الدين والجند وعز الدين والأمة . شامت بما أصاب الاعداء ، خائف على المنتصرين من الغرور والاهمال ، متطلع الى فتوحات جديدة ، لأنه لا يزال شاعراً بالخطر .

وهو غني بالافكار فقد استوفى ما يجب ان يقال بهذه المناسبة ، ولم ينس التوجيه والاعداد للمستقبل . وقد رتب خطبته جيداً في قسميها وجعل لها مقدمة وعرضاً وخاتمة وأعاد عنصرين من الافكار الرئيسية مرتين وهما الاشادة ببيت المقدس ، والدعوة الى متابعة الجهاد لتحرير بقية البلاد ، وكانت الاعادة :

١ ـ لأن الفكرتين تلحان عليه فهما أهم ما في الخطبة ولا سيما الفكرة الثانيـة .

٢ ـ ثم لأن طبيعة تتابع الكلام قد استدعت منه الإعاده . ونلاحظ أنه جدد صياغة الفكرتين حين أعادهما . وقد لخصنا الافكار جميعها وعلقنا عليها . ولم يلجأ الخطيب الى الخيال البياني فلم يكثر من التشابيه والاستعارات والكنايات والمجازات ، واعتمد على الحقيقة لأنها في ذاتها رائعة مثيرة وقد عوض الشـاعر عن الخيال بالاكثار من الاشارات التاريخية الدينية المستمدة من الاديان السماوية الثلاثة ولا سيما الاسلام .

ونلاحظ ان الخطيب قد أكثر من اقتباس الآيات القرآنية وذلك طبيعي لأن المناسبة دينية . ثم نرى أن السجع يأتي في كلامه كثيراً ولكننا لا نشعر فيه بأي تكلف ، وذلك راجع الى تمكن الخطيب من مادته ولغته ولكثرة اعتياده هذه

المواقف . وما جاء عنده من بقية الفنون البديعية كان عفو الخاطر لا استكراه فيه .
ولم يستشهد الخطب بالحديث النبوي فقد أغنت عنه الآيات .

الخطب الحربية :

كانت الاحداث تتطلب أن يخطب القائد في جنده فيحمسهم للقتال أو للدفاع والثبات وكانت هذه الخطب طبيعية الاسلوب خالية من التكلف مرتجلة .

١ ــ روى ابن شداد أن السلطان صلاح الدين أمر جنده بالانتقال الى الخرّوبة ، وكان ابن شداد بينهم ، فخطب فيهم فقال :

« باسم الله ، والحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، اعلموا أن هذا عدوُّ الله وعدوُّنا ، وقد نزل بلدنا ، ووطىء أرض الاسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليهم ، إن شاء الله تعالى ، وقد بقي العدو في هذا الجمع اليسير ، ولا بدَّ من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك ، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرَنا ، ليس وراءَها نجدهٌ تنتظرُها سوى الملِك العادل ، وهو راحل . وهذا العدوّ ، وإنْ بقي وطال أمره الى أنْ ينفتح البحر ، جاءه مَدَد عظيم ، والرأي كلُّ الرأي عندي مناجزته ، فلْيخبرْنا كلٌّ منكم ما عنده في ذلك » .

« ابن واصل ، مفرّج الكروب ٢ : ٣٠٤ ، وأبو شامة ، الروضتين ٢ : ١٤٦ »

وهذه الخطبة موجزة تناسب المقتضى ، اهتمّ صلاح الدين فيها بالمعنى ولم يتكلف في المبنى وخلا أسلوبه من الصناعة تماماً . فهو يبين للجند أنّ العدو هو عدو الله وعدوهم ، وأن من واجبهم حربه ويستحثّ هممهم مبيناً لهم أن النصر قريب وأن العدو قد تضعضع فيجب استئصاله قبل أن يستريح ويأتيه المدد فيعاود الكرة ويحذّرهم من عاقبة ذلك .

ويتبين من الخطبة إيمان الخطيب بما يقوله وحماسته لحرب الاعداء وقدرته على الإقناع مع الإيجاز ، وعدم مبالغته في اظهار العاطفة .

والمهم عنده ما يمكن أن يقدمه كل من قواده وجنوده في سبيل النصر ، وهو الغاية التي تتوجه اليها الخطبة .

٢ ـ خطب الملك المظفر قطز في أمرائه ، وهو في الصالحية (من مصر) حين خرج لحرب التتار خطبة قصيرة قال فيها :

« يا أمراءَ المسلمين ، لكم زمانٌ تأكلون أموالَ بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجّه ، فمن اختار الجهاد يصحبْني ، ومن لم يختر ذلك يرجعْ الى بيته ، فإنّ اللهَ مطّلع عليه ، وخطيئةُ حَريم المسلمين في رقاب المتأخرين » •

« السلوك ، جـ ١ ، ٤٢٩ »

وفي غزة جمع قطز الأمراء مرة أخرى ، وحرّضهم على القتال وذكّرهم بما أحدث التتار من القتل والسبي والحريق وحثّهم على استخلاص الشام منهم وحذّرهم عقوبة الله •

وكان لخطبته فعلها في نفوسهم ، فقد ضجّوا بالبكاء وتعاهدوا على الثبات وصدّ الاعداء •

نستشف من الخطبة في الصالحية ، ثم من تكرار الخطيب الخطابة في غزة[1] ، أنّ القواد والجند كانوا يستشعرون الرهبة من لقاء المغول بعد أن بطش هؤلاء ببغداد والشام ونالوا انتصارات عظيمة في قسم كبير من آسيا ، فهو لذلك يذكّرهم بأنّ بيت المال لم يكن ليحِلّ لهم لولا هذا اليومُ الذي يجب أن يدافعوا فيه عن الدين والبلاد •

وهو يضع القواد والجند أمام الموقف الحاسم الذي لا تردّدَ فيه ، فأيٌّ منهم لا يستطيع أن ينسحب من مجابهة المعركة حينئذٍ وإلا أقرّ على نفسه بالجبن والخسة وسرقة أموال المسلمين وضعف الإيمان •

وقد استطاع الخطيب بكلماته القليلة البسيطة الخالية من الكلفة أن يتلمس موضع التأثير من قلوبهم • ولذلك نراهم يضجّون بالبكاء ويتفانَوْن في القتال حتى يقلبوا صفحة المعركة لصالح المسلمين •

ولم نجد بعدُ خطباً دينيّة نضالية أو خطباً حربية في العهد الجركسي •

---

(١) السلوك للمقريزي ١ : ٤٣٠

الكتـابة السـلطانية

الكتابة السلطانية تتناول شؤون الدولة الداخلية والخارجية . وهي تشمل :

أ ـ بيعات الخلفاء ، وتقاليد الملوك وولاة العهود ، ومراسيم إسناد الوزارة والنيابة والقيادة والقضاء والتعليم والخطابة .

ب ـ التوقيعات وبلاغات القصر والمنشورات السياسية والاقتصادية ..

جـ ـ نسخ الأمان والمعاهدات والهدن والأيمان ، وشؤون السفارات ، بين ملوك المسلمين ، وبينهم وبين الملوك الأعاجم .

د ـ الرسائل الديوانيه وكتابة التقارير .

وكان الذي يتولى هذه الامور كلّها كتابة وجواباً واصداراً واستلاماً ديوان الانشاء ، فلا بدّ من إيضاح مهماته .

ديوان الانشـــاء :

اهتمت الدولة الفاطمية بديوان الإنشاء فعنه كانت تصدر رسائلها والدعوة لها وما فيه إجلالها وتقديسها وسمّوا رئيسه بالشيخ الأجلّ وبكاتب الدست الشريف . وهو أقرب الناس الى الخليفة وقد يلازمه ، ويسر اليه هذا بما يكتمه عن وزرائه وأهله وولده ، وكان يحمل دواته أحد خدم الخليفة المقربين ، ويعطى الكسوة والرسوم والملاطفات[1] ويعدّ أول أرباب الاقطاعات .

وكان يلقب أحياناً بكاتب الدّرْج ، واستمر شأنه كذلك الى أوائل أيام المماليك . وفي زمن الظاهر بيبرس كان يلي الديوان ثلاثة لا واحد ولكن كان أعلاهم درجةً القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر . وفي زمن المنصور قلاوون تولى الديوان القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر ولقّب بكاتب السر ونقل لقب كاتب الدست الى الطبقة التي تليه من كتاب الديوان .

وكانت أعمال رئيس ديوان الانشاء خطيرة كثيرة متشعبة فهو الذي يتولى

(١) الملاطفات : الهدايـا .

عن السلطان المراسلات الداخلية والخارجية وأمور المظالم وهو الذي ينظر في الكتب الواردة الى السلطان ويعرضها عليه ويدقق في الكتب الصادرة لتكون كاملة لغة ومعنى وأسلوباً وخطاً واعراباً وألقاباً ، إذ لا يجوز أن يزاد أو ينقص أو يغير في الالقاب • وهو يدير أمر البريد ورجاله وأمر أبراج الحمام وملحقاته وأمر المخابرات (العيون والجواسيس) وسائر ما يتعلق بالمملكة •

ولم يكن بقوم بهذه الأمور كلها وحده فكان يساعده في كل ناحية منها كاتب مختص ماهر في ما يكلف به •

ومن هؤلاء الكتّاب كتّاب عملهم الترجمة من اللغات الاجنبية واليها وأكثر ما كان يحتاج اليه من اللغات : الفارسية والرومية والفرنجة ، أما التركية فكان يعرفها كثيرون •

وقد أدرك القلقشندي ما للديوان من شأن فقال : « لو جمعت بعض دفاتره لاجتمع منها تاريخ كامل » •

وكان الديوان بمثابة معهد علمي يتخرج به من سيعمل فيه في المستقبل بعد أن يتثقف بما يحتاج اليه ، وهو كثير ، وبعد أن يمتلك ناصية الكتابة •

وقد وليه طائفة من أشهر الكتّاب في مصر والشام منذ أواخر الدولة الفاطمية حتى نهاية دولة المماليك •

منهم في الدولة الفاطمية ابن الصيرفي علي بن منجب (ت ٥٥٠ هـ) وابن قادوس ويوسف بن محمد الخلال (ت ٥٦٦) • ومنهم في الدولة الايوبية القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني وابن الاثير وعبد المحسن الحلبي وبهاء الدين زهير والصاحب بن لقمان • ومنهم في دولة المماليك محيي الدين بن عبد الظاهر والشرف الانصاري والشهاب محمود واحمد بن الاثير •

ومن الذين اشتهروا في مصر والشام غير هؤلاء ابن الشحناء الحسن بن محمد (ت ٤٨٢ هـ) • وعبد العزيز بن الحسين الاغلبي الصقلي المشهور بالقاضي الجليس (٥٦١ هـ) وأبو الحسن يحيى بن أبي علي المشهور بابن الجراح (٦١٦ هـ) • وجمال الدين عبد الرحيم بن شيث (ت ٦٢٥ هـ) •

وممن اشتهر من كتّاب الدولة السلجوقية في المشرق جلال الدين أبو الحسن (٥٥٤ هـ) وابن حمدون (٥٦٢ هـ) ، ورشيد الدين الوطواط المؤلف المترسل بالعربية والفارسية (ت ٥٧٣ هـ) ، وقوام الدين بن زبارة (ت ٥٩٤ هـ) ، ومنهم ابن الاصباغي وزير السلطان محمد خوارزم شاه (ت ٦٠٠ هـ) وكان بليغاً أديباً ، والمدائني نصر بن نصير بن لبث (٦٠٥ هـ) .

ويغلب على كتابات المشرق الطابع العقلي لاهتمامهم بالفلسفة والمنطق والعلوم العقليـــه .

وقد ألفت كتب فيما يجب أن يتوافر في هذا الديوان من نظم وما يجب أن يتصف به كتّابه .

ومن هذه الكتب في العهد الفاطمي « قانون ديوان الرسائل » لأبي القاسم ابن الصيرفي . وفي العهد الايوبي « المفتاح المنشا في حديقة الإنشا » لابن الاثير . و « قوانين الدواوين » لابن مَمّاتي (ت ٦٠٦ هـ) . وقد تحدث فيه عن مكانة الكتابه وصفات الكاتب ولكنه أولى عنايته العظمى لديواني الخراج والمال لأنهما اختصاصه .

ومن أشهر الكتب التي ألفت في العهد المملوكي « التوسل في صناعة الترسل » للشهاب محمود ، وفي العهد المملوكي الثاني كتاب « صبحي الاعشى في صناعة الإنشا » للقلقشندي . وسندرسه بشيء من التفصيل : « راجع الحياة الادبية ، بدوي ٣٣٢ — ٣٣٤ و ٣٣٩ ، وكتاب العقد الفريد للملك السعيد لمحمد بن طلحة المتوفى سنة ٦٥٢ هـ ، ص ١٤٨ » .

ثقافــة الكتـــاب :

كان الكاتب في ديوان الانشاء يحتاج الى ثقافة واسعه ولا سيما اذا كان يطمح لأن يصبح رئيساً لهذا الديوان الذي كان يسمى رئيسه كاتب الدست أو كاتب الدرج ثم أصبح اسمه أمين السر .

فهو بطبيعة عمله يحتاج الى أن يردّ على كل قضيه من قضايا الدولة أو قضايا الأمة عامة أو خاصة ، داخلية أو خارجيه ، فهو لسان الدولة ومدبّر أمورها ورأسها

المفكر وعلى صوابه وخطئه يبنى أحياناً فوز الدولة أو انكسارها أو انهيارها •
لذلك كان عليه أن يكون ضليعاً بالعلوم الشرعية السياسية والعلوم اللغوية وما يتصل بها من أدب شعراً ونثراً ومن بلاغة ونحو وصرف ، كما كان يجب عليه أن يلم بالعلوم العقلية والكونية التي ترجمت عن الأمم الاخرى أو خاض بها العرب وابتكروها كالمنطق والفلسفة والحساب والفلك والهندسة والطب والصيدلة وعلمي الحيوان والنبات والكيمياء لا إلمامَ المختص ولكنْ إلمام المثقف الذي يفهم مبادئها وما لا يجوز للمثقف الواسع الثقافة أن يجهله منها •

وأصبح عليه في عهد المماليك بخاصة أن يحسن اللغة التي كانت لغة الحكام الذين لم تكن أصولهم عربية وهي التركية أو الكردية وأن يحسن معها الفارسية •
وقد وُصف ابن الأثير بأنه كان يحسن التركية والفارسية الى جانب العربية •

وعلى كاتب الديوان أن يكون عنده الاستعداد الفطري من البلاغة والفصاحة والقدرة على التعبير وان ينمّيه بالمران على فهم النصوص البليغة كالقرآن والحديث والشعر الجيد والحكم المختارة ، وبقراءة ما يكتب في الديوان من نصوص بليغة في جميع الموضوعات وان يحفظ القرآن وكثيراً من الاحاديث والقصائد والأمثال وكتابات البلغاء وروائع الحكم المترجمة •

قيل إنّ القاضي الفاضل أرسله أبوه الى ابن الخلال الذي كان رئيس ديوان الانشاء في الدولة الفاطمية ليعمل لديه فلما سأله عن مؤهلاته أجابه بأنه يحفظ القرآن وديوان الحماسة لأبي تمام فأجابه بأن ذلك كاف له • ونلاحظ أنه يعني كفاية ذلك في ابتداء العمل •

ثم كلّفه أن ينثر ديوان الحماسة فنثره ، ثم كلّفه أن ينثره مرة أخرى ليِتُلمّ بمعانيه ولتحسن صياغته •

« الوشي المرقوم لابن الاثير (ضياء الدين) ص ٩ ،
وثمرات الاوراق لابن حجة ص ٥٣ »

كان نثر الشعر وسيلة المران على الصياغة القوية الجميلة وعلى فهم المعاني وتشقيقها • وكانت الثقافة الادبية القوية عمدة الكاتب ولكنّها لم تكن كلّ عدّته كما ذكرنا •

وكان الكتّاب المشهورون في هذه الحقبة قلّة بالنسبة الى العدد الهائل من الشعراء وذلك لأنّ مناصب الديوان كانت قليلة في عاصمتي مصر والشام ولم يكن يتاح للكاتب ما يتاح للشاعر من اذاعة أدبه على الناس خاصتهم وعامتهم اذا لم يكن موظفاً رسمياً في الديوان • فأمام الشاعر مناسبات كثيرة خاصة وعامة يلقي فيها شعره •

ويلاحظ ان جميع كتّاب الدواوين كانوا تلاميذ ابن العميد الذي كان يعنى بالسجع وبالجناس وسائر أنواع الصناعة البديعية والبيانية وكانوا يرون مثلهم الاعلى طريقة الحريري • وقد أكّد القاضي الفاضل هذه الطريقة وبالغ فيها وأكثر حتى سميت بالطريقة الفاضلية • وبديهي أن يتفاوت كتّاب هذا العصر فيما بينهم سواء في قوة الاسلوب أم في غزارة الانتاج ، ولقد كان انتاج بعضهم كالقاضي الفاضل والعماد الاصفهاني كبيراً جداً • ولكن انتاج الادباء لم يصل الينا كما وصل انتاج الشعراء • فلم يصل الينا الا عدد قليل من رسائل القاضي الفاضل والحصكفي وابن عبد الظاهر وابن سناء الملك •

وكان العماد الكاتب أوفر حظاً من القاضي الفاضل في بقاء كثير من رسائله الى اليوم بفضل مؤلفاته التاريخية والادبية •

وكان ديوان القاهرة يأتي في المرتبة الاولى ، لأنها العاصمة ، وديوان دمشق يأتي في المرتبة الثانية ، لأنها مركز نيابة السلطان وحصن الدفاع الاول ضد المغيرين •

النثر الديواني :

كانت الحروب الصليبية والتتارية وسائر الاحداث الكبرى التي ألمت بالأمة من كوارث وزلازل ومجاعات وانتصارات وأفراح مدعاة لازدهار هذا النوع من الكتابة • وربما بلغ الكاتب منزلة الوزير وربما ارتفع عنها الى منزلة نائب السلطان •

ويشمل هذا النثر أنواعاً كثيرة منها :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أ ــ العهود والتقاليــد والتوافيع والمناشير :

وقد ذكر القلقشندي أن التقليد زمن الأيوبيين كان على ثلاث مراتب :

المرتبة الاولى ــ ان يفنتح كتّاب التعيين (الولاية) بخطبة تبدأ بحمد الله تعالى ىم تأني البعدية ثم ما سنح من حال الولاية والمولّى ويوصى المولّى بما يليق بولايته نم يقال وسبيل كل واقف من النواب العمل به •

والثانية ــ تختلف عن الاولى فقط بأنها تبدأ بقوله : آما بعد حمد الله وباقي الاقسام تجري كالاولى •

الثالثة ــ تفتتح فيها الولاية بلفظ رسم ثم تأتي سائر الاقسام كما في الاولى والثانية ما عدا النصائح فانها لا نرد •••

أما زمن المماليك فقد كان التقليد بولايه أو سلطنة أو وزاره أو قضاء ، له طرّة ومتن ، كما يذكر القلقشندي •

ويقصد بالطرّة تلخيص الموضوع المكتوب فيه في مطلع التقليد ، وهذا ما قاله القلقشندي في صورة الطرة :

« أن يكتب : تقليد شريف بأن يفوض الى المقرّ الكريم أو الجناب العالي الكريم أو الى الجناب العالي الأميري الكبيري ، الكفيلي الفلاني أعز الله تعالى أنصاره أو نصرته أو ضاعف الله نعمته ، نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس ، أو بحلب المحروسة أو بطرابلس المحروسة أو نحوها على أجمل العوائد في ذلك وأكمل القواعد على ما شرح فيه » •

ويدلّ ذلك على أن الصورة العامة لكتابة التقليد واحدة وان اختلفت من حيث العبارات والالفاظ • وكل تقليد يفتتح بالحمد لله ثم بأما بعد ثم يذكر حال الولاية وحال المولّى ، وانه بعد التفكير كان أحقّ من يتولى هذا الأمر • ثم يقال رسم الأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الفلاني (ويدعى له) ان يقلد كذا ، أو أن يفوض اليه كذا ثم يوصي بما يناسب تلك الولاية للمولّى نم يقال وسبيل كل واقف عليه العمل به بعد الخط الشريف أعلاه •

ولكبار الكتاب أساليب وتفنّن كثير في ذلك ، والنهاية في التقاليد ليست واحدة وهي تتعدد تبعاً لاختلاف الكتاب ولتعدّد من يوجّه اليه الخطاب .

ويتباين الكتاب ويتفاوتون في صلب الموضوع تبعاً لتباين القدرة على تخيّر اللفظ وتبايُن مدى العناية بتكلف المحسنات والزخارف . وكان من أثر الحروب الصليبية أن العهود أصبحت تتضمن التوصية بالجهاد . وقد جاء في العهد الذي كتبه الخليفة الفاطمي الفائز لوزيره طلائع بن رزّيك :

فيما يتعلق بالجند « أشياع الدين وأعضاد دولة أمير المؤمنين ... والقائمون بمدافعة الاعداء عن حوزة الدولة العلوية والمدّخَرون لكفاح المباين للمملكة الفاطمية ... والمُعَدّون للذبّ عن بيضة المسلمين ، المصطلون نيرانَ الحرب والكفاح في المواقف التي تهتزّ فيها السيوف وتضطرب كُعوبُ الرماح » .

« حسن المحاضرة ٢ : ١٢٢ »

وجاء في التقليد الذي أرسل به الخليفة العباسي المستضيء الى صلاح الدين بتوليته مصر والشام :

« وقد علمتَ ان العدوّ وهو جارُك الأدنى والذي يبلُغك وتبلُغه عينا وأُذنا ، ولا تكون للإسلام نِعْم الجارُ ، حتى تكون له بئس الجارُ ولا عذر لك في ترْك جهاده بنفسك ومالك ، اذا قامت لغيرك الاعذار . وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصافحاً أو تطرق أرضه مُماسياً ، بل يريد أن تقصد البلاد التي في يده ، قصد المستغبر[1] لا قصد المغير[2] وأن تحكم فيه بحكم الله الذي قضاه على لسان سعد في بني قريظة والنضير . وعلى الخصوص البيت المقدس فإنّه بلد الاسلام القديم ، وأخو البيت الحرام في شرف التعظيم ، والذي توجهت اليه الوجوه مِن قَبلُ بالسجود والتسليم ، وقد أصبح وهو يشكو طول المدة في أسر رقبته ... ومع هذا لا بد له مــن أسطول يُكثّر عددَه ويُقوّي مَدده .... » (حسن المحاضرة ٢ ، ٢٣) .

---

(١) من الغبرة .
(٢) من الغارة . .

وجاء في العهد الذي كتبه بيبرس لابنه بولاية العهد ، وهو بقلم ابن لقمان سنة ٦٦٧ هـ :

« ومن شيمته الاقتداءُ في بسط الإحسان والعدل ، وإحياء سُنتنا ممّا يُضفيه على الاولياء من ملابس الفضل ، واقتفاءُ آثارنا في غزو بلاد الكفار ، والمَجاهد التي تطول بها أيدي الكماة بالسيوف القصار ... » .

« حسن المحاضرة ، ٢ ، ٣١ . والسلوك ١ : ٩٧١ »

فهذه العهود تهتم بالجهاد اهتماماً كبيراً وتبيّن أنّ همّ عظماء تلك العهود الاول كان طرد الغاصبين وأنهم كانوا مدركين حقيقة الخطر الذي تتعرّض له بلادهم . وكانت هذه الأنواع من الكتب تنتشر بين أيدي الناس لما فيها من صلة بين الحاكم والمحكوم وقد بيّن الشهاب محمود في كتابه « حسن التوسل ص ١١٠ » ما يجب أن يكون عليه انشاؤها : « الاحسن فيها بسط الكلام ، وتعتبر كثرته وقلّته بحسب الرتب » ويجب أن يتوافر فيها براعة الاستهلال ومراعاة المناسبة وما تقتضيه الحال واختيار الكلام والمعاني ، فانه مما يشيع ويذيع ، ولا يعذر المقصر في ذلك بعجلة ولا ضيق وقت .

يفهم مما تقدم أن المقصود بالتقليد هو ما نعنيه نحن اليوم بالمرسوم أو القرار الذي يكلّف فيه موظف بعمل كالوزارة أو القضاء أو الولاية على اقليم أو قيادة جيش ...

وكان التقليد يقسم الى أربعة أقسام متقاربة الطول يخصّص الربع الاول لخطبة التقليد وفيها يحمد الله على إنعامه ، ويخصص الربع الثاني لمكانة الرتبة المقلدة وذكر نوعها وتفخيم أمرها ، ويخصص الربع الثالث لاوصاف المقلَّد وذكر ما يمتاز به من صفات تناسب الرتبة التي يتقلدها ونوعها ، كالعدل والمهابة للقاضي ، والشجاعة وحسن تدبير الجيوش للقائد ، والعدل وحسن الرأي والتدبير والمعرفة بعمارة البلاد واصلاح الفساد للوزير ، وهكذا . ويخصّص الربع الباقي للوصايا التي يوصى بها المقلَّد . (حسن التوسل للشهاب محمود ص ١٠١) .

وكانت كتب التقاليد تعمّم بالصيغة نفسها على البلاد كلّها في نسخ كثيرة •

وهذه الكتب تصور نواحي الحياة العامة في عصرها وهي لون من الادب وثيق الصلة بالحياة السياسية قليل الحظ من العاطفة لطابعه الرسمي العام ، ولكنّ فيه الصور المثالية التي يجب أن يكون عليها الموظفون الكبار في ذلك العهد بما يقدم فيها اليهم من نصائح ، وبما يخلع عليهم فيها من صفات ، بغضّ النظر عن السلوك الذي يسلكونه بعد أن يتولوا مَهامّ أمورهم • وإليك جزءاً من التقليد الذي كتبه الخليفة العباسي في القاهرة للملك الظاهر بيبرس وعظّم فيه من شأنه لأنّه هو الذي جعله يتولى الخلافة : « ••• وبعدُ فان أولى الاولياء بتقديم ذكره ، وأحقّهم أن يُصبح القلمُ ساجداً وراكعاً في تسطير مَناقبه وبِرّه ، من سعى فأضحى بسعيه الجميل متقدّماً ، ودعا الى طاعته فأجاب من كان مُنجِداً ومُتهِماً ، وما بدت يد من المكرمات الا كان لها زَنْداً ومعصماً ، ولا استباح بسيفه حِمى وغيّ إلاّ أضرمه ناراً ، وأجراه دماً •••• وقد أقام الدولة العباسية بعد أنْ أقعدتها زَمانةُ الزمان ، وأذهبت ما كان لها مِن مَحاسن وإحسان » •

« صبح الاعشى ٩ ، ١١١ »

ومن مرسوم بتولية أحد القواد ثغر عسقلان :

« •••وكانت مدينة عسقلان ـــ حماها الله تعالى ، ثغرَ الإسلام الذي لا ثغر له في الشام سواه ، والرباطَ الذي من كان به فقد نال الثواب الجزيل وأحرزه وحواه • وهو في عيون الكفار ـــ خذلهم الله ـــ نكتة • وأسباب طمعهم فيه منقطعة بمحاماته منبتّة ، ونحن نوفّر اهتمامنا عليه رعايةً لمكانه المَكين ، ونتتضي الكُفاة لِتولّيه توصلا الى النكاية في المشركين ، وهو معقل للمسلمين المجاهدين ورِدّ ، ومجاوروه قوم لُدّ ، وأمرُهم أمرٌ إدّ ، فيجب ان يُرتاد لضبطه النَّدْبُ الذي لا تهتبل غِرّته ، ويُسام لحفظه العَضْبُ الذي لا تتقى ضربته ، ويختارُ لصونه الشهم الذي تقف على المصالح هِمّته ، وتنفذُ فيها عزمته ، فتقلّد هذه الخِدمة عارفاً قدْرَ ما خوّلتَ منها وعاملا بتقوى الله وخيفته في جميع ما تأمرُ به وتَنْهى •

وهذا الثغر لمحلّه وسموّ مقداره ، وقرب العدو منه ودنوّ داره لا يُقنع له بمركزيته ؛ ولا يكتفى في حقّه بمرابطيّته وقراريّته ، فنحن نُسيّر اليه العساكرَ المظفّرة دفعتين في كل سنة على حُكم البدَل ، فيرِدُه عسكر جديد مُزاحُ العِلّة ، كثيفُ العَدَدة وافرُ العُدّة ، يؤثِر أنْ يظهَر أثرُه ويُحافظْ على ما يطيب به ذِكرُه وخبرُه ، فبُثَّ السرايا وشُنَّ الغارات وضيّقْ على العدوّ فسيحَ النواحي والجهات وجهّزْ اليه مَن يخيفه في مآمِنِه ، وابعثْ عليه مَن يطرقُه في أحرزِ أماكنِه ، واندُبْ مَن يطالعُك بخفيِّ أخباره ويظهرُ لك باطن أموره ومستور أسرارِه ، لتنتهزَ فيه الفرصةَ اذا لاحت مَخايِلُها ، وتُبادر الغفلةَ منه اذا ظهرت دلائلُها ، واجعلْ للمتطوّعين من الكنانيّين نصيباً من ثواب الجهاد ، واحمِلْهم على استفراغ الوُسْع بغاية الحِرص والاجتهاد ، وافعل في هذا الباب ما تتضاعف به موادُّ الأجْر ، وتُنتسَخُ به الأوزارُ كما يُنتسَخُ الظلامُ بضياء الفجر » .

« صبح الأعشى جـ ١١ : ٦٣ — ٦٥ »

ويتبين من هذا المرسوم عظمُ الاهتمام بالدفاع عن الثغور والمحافظةِ على الحدود والعناية باختيار الاكفاء لذلك ، كما يتبيّن منه مشاركة القبائل العربية في المعارك حول عسقلان .

ومن تقليد حربي كتبه الشهاب محمود على لسان الظاهر بيبرس الى ابنه محمود سلامش بمملكة الروم ردّاً على كتابه الذي أرسله قبل حضوره :

« وليعلم أن جيوشنا في المسير اليه ، متى قصد عدواً ، سابقت خيولُنا خيالَها ، وجارت جيادُنا ظلالَها ، وأبت سنابكُها أن تجعل غيرَ سنابك الاعداء نعالَها ، وها هي قد تقدّمت وأقدمت ، ونهضت لإنجاده فلو سامها أن تخوض البحار في سبيل الله لخاضت أو تصدمَ الجبال لصدمت » .

« حسن التوسّل ص ١١٤ »

يتضح من هذا التقليد اهتمام الظاهر بيبرس بسرعة نجدة قواده واعتمادُه على حسن نظامها وطاعتها .

والتوقيع هو ما يعلق به الخليفة أو السلطان أو أحد الموظفين الكبار على ما يرفع اليه من كتب وطلبات •

ولم تحفل كتب الادب بايراد توقيعات العهد الفاطمي ، وما وصل الينا منها قليل ، منه توقيع للخليفة الفاطمي لدين الله (خطط المقريزي ٢ ، ٢٣٨) على كتب برواتب المستخدمين •

« أميرُ المؤمنين لا يستكثر في ذات الله كثيرَ الإعطاء ، ولا يكدّره بالتأخير له والتسويف والإبطاء ، ولمّا انتهى اليه ما أربابُ الرواتب عليه تملّكهم برحمته ورأفته ، وأمّنهم مما كانوا وجلين من مخافته ، وجعل التوقيعَ بذلك بخطّه يده . تأكيداً للإنعام والمَنّ ، وتهنئةً بصدَقة لا تُتبَع بالأذى والمَنّ ، فليعتمدْ في ديوان الجيوش المنصورة إجراءُ ما تضمّنت هذه الأوراق ذكرَهم : على ما ألفوه وعهدوه من رواتبهم ، وايجاباً على سياقها لكافتهم ، من غير تأوّلٍ ، ولا تعنّتٍ ، ولا استدراكٍ ولا تعقّبٍ ، وليجروا في نسبياتهم على عادتهم ، لا ينقض من أمرهم ما كان مُبرَماً ولا ينسخ من رسمهم ما كان مُحكَماً ، كرَماً من أمير المؤمنين وفعلاً مبروراً وعملاً بما أخبر به عزّ وجل في قوله تعالى :

« إنّما نطعمكُم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا » ولينسخ في جميع الدواوين بالحضرة إنْ شاء الله تعالى » •

يتبين من هذا التوقيع حرص الخليفة الفاطمي على وصول الرواتب الى موظفيه ومحافظته على مقاديرها ، فهو يعدهم وعداً ضمنياً بأنها ستبقى كما كانت من قبل •

ومن توقيعات العهد الزنكي :

كتب أحدهم في حلب الى نور الدين بأن تاجراً موسراً قد توفي عن ولد عمره عشر سنين وعن عشرين ألف دينار ، وهو يشير عليه بأن يصادر المال لخزانة الدولة ريثما يكبر الصغير فينفق معه على شيء ، ويحتفظ بالباقي للدولة ، فوقّع نور الدين :

« أما الميت فرحمه الله ، وأما الولد فأنشأه الله ، وأما المال فثمّره الله ، وأمّا الساعي فلعنه الله » . « الروضتين ١ : ١٣ »

ومن توقيعات العهد الأيوبي :

كتب أمير من أمراء الجيوش الى صلاح الدين ، وكانت الرسل تتواتر بينه وبين الأعداء بالصلح ، أن يأذن له بالعودة مع جنده الى بلاده ، فوقّع صلاح الدين :

« من ضيّع مِثلي من يده ، فليت شعري ما استفاد ؟ » .

« النوادر السلطانية : ١٣١ »

وكتب القاضي الفاضل الى صلاح الدين يستأذنه في الحج ، فوقّع صلاح الدين :

« على خيرة الله تعالى ، يا ليتني كنت معكم فأفوز فوزاً كبيراً » .

« الروضتين ٢ : ٧ »

يتبين من هذه التوقيعات أن موقعيها قد حافظوا على صفتي التوقيعات الرئيسيتين في العهود السابقة وهما : الإيجاز الشديد والوضوح .

وأطولها ، كما رأينا ، التوقيع الفاطمي .

ب ـ الرسائل :

كتب القاضي الفاضل الى صلاح الدين يهنّئه بالنصر في حطين ، وكان غائباً بدمشق حين المعركة :

« ليَهْنِ المولى أنّ الله قد أقام به الدينَ القيّمَ ، وانه كما قيل : أصبحتَ مولاي ومولى كل مسلم ، وانه قد أسبغ عليه النعمتين : الباطنةَ والظاهرةَ ، وأورثه المُلْكين : مُلْكَ الدنيا ومُلْكَ الآخرة ، كتب المملوكُ هذه الخِدْمة ، والرؤوس الى الآن لم تَرفَعْ مِن سجودها ، والدموعُ لم تُمْسَح من خدودها ، وكلّما فكّر الخادم أنّ البِيَعَ تعود وهي مَساجد ، والمكانَ

الذي كان يُقال فيه : إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثة ، يقال اليومَ فيه : إنّه الواحد ، جدّد لله شكرا تارة يفيض من لسانه ، وتارةً يفيض من جفنه ... تلك المكارمُ لا قعبانُ من لبن ، وذلك الفتح لا عُمانُ واليَمَن ، وذلك السيفُ لا سيفُ بنُ ذي يَزَن ... » .

« الروضتين ج ٢ ، ص ٨٢ »

يعبّر القاضي الفاضل في هذه الرسالة عن فرحه بالنصر ، وعن عاطفته الدينية وسروره بأن شعائر الدين الاسلامي قد عادت الى المسجد الاقصى وسائر مرابع القدس وأزالت شعائر المغتصبين ، ويبيّن فضل صلاح الدين بهذا النصر في خدمة الإسلام والمسلمين وإنعامَ الله عليه وعليهم .

وهو يستعمل السجع والجناس والطباق ولكنها لا تطغى على المعنى والعاطفة ووضوح الاسلوب وقوّته ، ويضمّن كتابه شطراً من الشعر : تلك المكارمُ لا قعبانُ من لبن ، ويشير الى بعض معتقدات الصليبيين .

ولم تكن رسائل القاضي الفاضل كلّها في درجة الرسالة السابقة من تكلف فنون البلاغة فمنها رسائل أقلّ حظاً من التكلف وأقرب الى الاسلوب الطبيعي ، ومنها الرسائل التي أرسلها الى صلاح الدين في أوقات المحنة وضيقه النفسي بالمعضلات ، وكان القاضي يسرع في ارسالها اليه ليُسرّي عنه ما به من الهمّ تمليها عليه الضرورة لا التأنق والمتعة . أرسل اليه رسالة حين حاصر العدو عكا وطلب المقاتلون المسلمون منه دستوراً أي اجازة موقتة من القتال ليستريحوا ولم يكن عنده مال ، على حين كانت الأمداد تتوالى للصليبيين فأثّر فيه الحزن وكاد يذهب بصبره وحلمه وقواه . « الروضتين ٢ : ١٠٢ »

وأرسل اليه رسالة أخرى حين نزلت به هزيمة كبيرة وهو يحاول فك الحصار عن عكا ، واشتدّ المرض والوباء والجوع بالمسلمين المحاصَرين وأجهزت سيوف الاعداء على بقية المقاتلة منهم ، فضجّ السلطان من الحزن والألم وصاح من فوره وهو في مخيّمه :

اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي

فعجل القاضي الفاضل برسائله اليه تفعل فعل السحر فردّه الى الطمأنينة والصبر . وقد رأينا أن نختار تتفاً من احدى هذه الرسائل لنتبين منها مدى ما يفعله القاضي في نصرة السيف وثباته ونفهم منها ما رمى اليه صلاح الدين حين قال ما معناه إنّه نُصر بقلم القاضي الفاضل أكثر مما نُصر بسيوف المقاتلين :

« يا مولانا ، أليس اللهُ تعالى اطّلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهّل ، ولم يستصلح ، ولم يسهّل ، ولم يستعمل ، ولم يستخدم في إقامة دينه واعلاء كلمته ، وتمهيد سلطانه ، وحماية شعاره ، وحفظ قبلة موحّديه إلاّ أنت ؟ » •

« هذا وفي الأرض مَن هو للنبوّة قرابة ، ومن له المملكة وراثة ، ومن له المال كثرة ، ومن له العَدَد ثروة : فأقعدهم وأقامك ، وكسّلهم ونشّطك ، وقبضهم وبسطك وحبّب الدينار إليهم وبغّضه إليك ••• نعم وأخرى أهمّ من الاولى : أنّه لمّا اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الارض وأطراف الدنيا ومغرب الشمس ••• كنت يا مولانا كما قيل أبقاك الله :

وَلستَ بمَلكٍ هازمٍ لنظيرِهِ ولكنّكَ الإسلامُ للشرك هازمُ

هذا وليس لك من المسلمين مُساعد إلاّ بدعوة ، ولا مُجاهد معك إلاّ بلسانه ، ولا خارج معك إلاّ بهمّ ، ولا خارج بين يديك إلاّ بالأجرة •••

والمشورات تتنوّع بمجلسك : فقائلٌ لِمَ لا تتباعدُ عن المُنازَله ؟ وآخرُ لِمَ لا تَميل الى المصالحة ••• فألهمك الله قتالَ الكافر وخلافَ المُخذّل ، والتجلّدَ وتحت قدمِكَ الجمرُ ، وأفرشك الطمأنينةَ وتحت جنبِكَ الوعرُ :

ولكــنّ مولانـــا صحيفـــةُ وجهِـــهِ

كضـــوءِ شِـــهابِ القابِـــسِ المُتنوّرِ

قليـــلُ التشــــكّي للشهـــمّ يُصيبُه

كثيرُ الهوى شتّى النـــوى والمسالكِ

« فالشدةُ تذهب ويبقى ذِكرُها ، والأزمة تنفرجُ ويبقى أجرُها ، وكما

لم يحدث استمرار النعم لمولانا ، عز نصره ، بطراً ، فلا تحدث له ساعات الامتحان ضجراً ، والمسلوك سيحسن بتي حاتم ، ومولانا ، أبقاه الله وخلد سلطانه وملكه ، يحفظهما :

شربنا بكأس الفقر يوماً وبالغنى

وما منهما الا سقانا به الدهر

فما زادنا بغياً على ذي قرابه

غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر »

« الروضتين ٢ حوالي ص ١٠٢ »

إننا نتساءل حقاً ماذا كانت حال صلاح الدين في هذه الفترة العصيبة لولا القاضي الفاضل الذي قوى ايمانه بالنصر ، ويقينه بأن العاقبة للمتقين ، ورد اليه نفسه التي كادت تهيم في بيداء الخيبة واليأس ، وكان الى جانبه بالروح ، وان كان بعيدا عنه في المكان ، فلم يكن يقطع عنه رسائله ، ولم يكن ينقطع عن أخباره .

ولقد نسي القاضي في غمره العاطفة والحماسة كل صناعته البلاغية وانصرف الى أداء المعاني والمشاعر .

ومن رسالة أرسلها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر الى الصاحب بهاء الدين بن حنا يصف فتح الملك الظاهر لقيسارية من بلاد الروم وأخذها من التتار :

« ولا يقتدح من غير سنابك الخيل نار ، ولا نمر على مدينة إلا مرور الرياح على الخمائل في الأصائل والأبكار ، ولا نقيم إلا بمقدار ما يتزيد الزائر من الأهبة أو يتزود الطائر من النغبة ، نسبق وفد الريح من حيث تنتحي ، ونكاد مواطيء خيلنا بما تسحبه أذيال الصوافن تمتحي ، تحمل همنا الخيل العتاق ، ويكبو البرق خلفنا اذا حاول بنا اللحاق ، وكل يقول لسلطاننا نصره الله :

أيـن أزمعـتَ أيّهـذا الهمـامُ

نحـن نبتُ الرُّبـا وأنتَ الغمـامُ

ومَنْ يفعلِ السيفُ أفعالَه ، ولا يسيرُ في مهمّةٍ الا عمّه ، ولا جبلٍ الا طالَه ، تسايرُه السواري والغوادي ، ولا ينفكُّ الغيثُ من انسكاب في كل نادٍ وواد ... » .

« صبح الاعشى ١٤ : ١٤٠ »

لا يترك الكاتب السجع في هذه الرسالة ولا تفارقه صناعته البيانية والبديعية ولكنّه يضيف الى ذلك القدرة على الوصفين المادي والمعنوي فهو يصف الخيل وسرعة الرحيل ، وهطول المطر كما يصف التلهف الى لقاء الاعداء ومتابعتهم .

رسالتان متبادلتان بين تيمور وبرقوق تمثلان الكتابة الديوانية في العهد المملوكي الثاني

كتب تيمور لنك الى الملك الظاهر برقوق يتهدّده وكان هذا يُعِدّ العُدّة للقائه ، بعد أن اصطدم جيش حلب المملوكي مع طلائع تيمور وهزمها وقتل منها خلقاً كثيراً :

« قلِ اللهمَّ مالكَ الملك ، فاطرَ السموات والارض ، عالمَ الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اعلموا أنّا جندُ الله مخلوقون من سَخَطه ، ومسلَّطون على من حلّ عليه غضبُه ، لا نرقّ لشاكٍ ولا نرحم عَبرة باكٍ ، قد نزع اللهُ الرحمةَ من قلوبنا ، فالويلُ ثم الويلُ لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا ! قد خرّبْنا البلاد وأيتمنا الأولاد ، وأظهرنا في الأرض الفساد ، وذلّت لنا أعزّتُها ، وملَكْنا بالشوكة أزمّتَها ، فإنْ خُيّل ذلك على السامع وأشكل ، وقال : إنّ فيه عليه مُشكلاً ، فقلْ : (إنّ الملوكَ اذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزةَ أهلها أذلّةً) ، وذلك لكثرة عددنا ، وشدة بأسنا ، فخيولُنا سوابقُ ورماحُنا خوارق ، وأسنّتُها بوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبُنا كالجبال ، وجيوشُنا كعَدد الرمال ، ونحن أبطال وأقيال ، وملْكُنا

لا يرام ، وجارُنا لا يُضام ، وعزّنا أبداً لسؤدد منقام ، فمن سالمَنا سلِم ، ومن حاربنا ندِم ، ومن تكلّم فينا بما لا يَعْلَم جهِل • وأنتم إن أطعتم أمرّنا وقبلتم شرطنا فلكم ما لَنا ، وعليكم ما علينا ، وإنْ خالفتم وعلى بغيِكم تماديتم ، فلا تلوموا إلا أنفسَكم ، فالحصونُ منّا مع تشييدها لا تَمنع ، والمدائنُ بشدّتِها لقتالنا لا تردُّ ولا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يُستجاب فينا فلا يُسمَع ، فكيف يسمع اللهُ دعاءكم وقد أكلتمُ الحَرام ، وظلمتم جميعَ الأنام ، وأخذتم أموالَ الأيتام ، وقبلتم الرشوةَ من الحكام ، وأعددْتم لكم النارَ وبئس المصير : (إنّ الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا) فبِما فعلتم ذلك أوردتم أنفسَكم مَواردَ المَهالك ، وقد قتلتم العلماء ، وعصيتم ربّ الأرض والسماء ، وأرقتم دم الاشراف ، وهذا والله هو البغيُ والإسراف ، فأنتم بذلك في النار خالدون ، وفي غد يُنادَى عليكم : (فاليوم تُجزَوْن عذابَ الهُون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحقّ وبما كنتم تفسُقون) فأبشروا بالمذلّة والهَوان ، يا أهلَ البغي والعدْوان ، وقد غلب عندكم أنّنا كَفَرة ، وثبت عندنا والله أنّكم الكفرةُ الفجَرة ، وقد سلّطنا عليكم الإله ، له أمورٌ مقدّرة ، وأحكامٌ محرّرة ، فعزيزُكم عندنا ذليل ، وكثيرُكم لديْنا قليل ، لأنّنا ملكنا الارضَ شرقاً وغربا ، وأخذنا منكم كلّ سفينة غصبا ، وقد أوضحنا لكم الخطاب ، فأسرعوا بردّ الجواب ، قبل أن ينكشف الغِطاء ، وتَضرِمَ الحربُ نارَها ، وتضعَ أوزارَها ، وتصيرَ كلُّ عينٍ عليكم باكية ، وينادي مُنادي الفراق : هل ترى لهم مِن باقية ، ويُسمِعَكم صارخُ الفَناء بعد أنْ يهزّكم هزّا ، (هل تُحِسُّ منهم مِن أحدٍ أو تسمعُ لهم رِكْزا) وقد أنصفناكم إذْ راسلناكم ، فلا تقتلوا المرسَلين ، كما فعلتم بالأوّلين ، فتُخالِفوا كعادتكم سُنَن الماضين ، وتَعْصُوا ربّ العالمين ، (فما على الرسول إلاّ البلاغُ المبين) ؛ وقد أوضحنا لكم الكلام ، فأرسلوا برد الجواب والسلام » •

« عن النجوم الزاهرة ج ١٢ ، ص ٤٩ »

ا ــ يتلخص مضمون هذه الرسالة بما يلي :

١ ــ البدء بيداية دينية وباستخدام بعض الآيات الكريمة : « عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » .

٢ ــ استخدام نظرية الحكم الإلهي في الغلبة والتسلط : « هم جند الله ، مخلوقون من سخطه ومسلطون على من حلّ غضبه عليه » .

٣ ــ التهديد بالغلظة وعدم الرحمة وذكر ما فعلوه قبل من تخريب وتيتيم وفساد واذلال ، وقوة وكثرة عدد (والاستشهاد بآية : إن الملوك اذا ...) والإفاضة بوصف قوة الجيش وكثرته وحسن عدته وبتعوده النصر المؤكد .

٤ ــ الدعوة الى الطاعة فلا يمنع منهم حصن ولا سور .

٥ ــ ان دعاء المخاطبين لا يسمع لبغيهم وظلمهم وقتلهم الأشراف والعلماء ، واستحقاقهم العذاب بالنار وإيراد آية (فاليوم تُجْزَوْنَ عذاب ...) .

٦ ــ اتهامهم فريقَ المرسِل بالكفر وهو يتّهمهم بأنّهم هم الكفرة ولذلك يستجيز قتلهم .

٧ ــ طلب الإسراع في الردّ قبل أن يحِلّ بهم الويل فيصبحوا كأن لم يكونوا (هل تُحِسُّ منهم من أحَد ... الآية) .

٨ ــ ينذرهم بألاّ يقتلوا المرسَلين حاملي إنذاره (فما على الرسول إلا البلاغ المبين) .

٩ ــ يختتم الكتاب بتكرار طلب ردّ الجواب .

بعث نبسور لنك بهذه الرسالة الى السلطان برقوق في غمار انتصاراته في الشرق العربي وبعد أن رُدَّت طلائعه في حلب ، إرهاباً لاعدائه وتحطيماً لاعصابهم ومعنوياتهم لنوب مناب جيش من الرعب في حربهم .

وقد رتبت معانيها ترتيباً منطقياً لتؤدي الغاية التي كتبت من أجلها بحيث تقطع نياط قلوب الضعفاء لما فيها من تهديد صارم لم يستعمل معه اللين مطلقاً وهي تخاطب الاعداء مخاطبة الأعلى للأدنى .

ب ـ ويشعر القارئ، أن كاتبها شديد السخط على من يخاطبهم كثير البغض لهم والحقد عليهم فاقد صفة الرحمة في حربهم وأنه يستثمر الشعور الديني المعادي ضدّهم فهو يتهمهم بأنهم قتلوا العلماء والأشراف مريداً بهم آل بيت النبي ومثيراً مشاعر الشيعه ضد السنه في تحقيق مآربه التوسعية .

وليس المخاطبون هم الذين قتلوا من يعنيهم من العلماء والاشراف ولكنه يُحمّل الأبناء تبعة ما فعله الآباء والأجداد ليُحكّم سيفه في رقابهم .

جـ ـ لم يعتمد الكاتب على الصور البيانية في أداء أفكاره ولكنه استخدم التصوير الواقعي لإرهاب الاعداء وذلك بعرض ما فعله فريقه فيمن سبقهم من المحاربين ضدّه .

د ـ استخدم الكاتب السجع وأكثر من اقتباس الآيات الكريمه وإيرادها شواهد ليتخذها حجة على أعدائه ولكنه لم يُفرِط في استخدام الفنون البديعية الأخرى .

هـ ـ الاسلوب واضح متين متماسك خال من الاخطاء .

كتب الملك الظاهر برقوق في الجواب على تيمورلنك بعد البسملة الشريفة :

(قل اللهم مالك الملك تؤتي المُلْكَ مَن تشاء ، وتنزِع المُلْكَ ممّن تشاء ، وتُعِزُّ من تشاء ، وتُذِلُّ من تشاء) ؛ وحصل الوقوف على ألفاظكم الكفريه . ونزعاتكم الشيطانية وكتابُكم يخبرنا عن الحضرة الخانية ، وسيرة الكَفَرَه الملائكية ، وأنكم مخلوقون من سُخْطِ الله ومُسلّطون على من حلَّ عليه غضبُ الله ، وانكم لا تَرِقّون لِشاكٍ ، ولا ترحمون عَبرة باكٍ . وقد نزع اللهُ الرحمةَ مِن قلوبِكم ، فذاك أكبرُ عيوبكم ، وهذه من صفات الشياطين ، لا مِن شِيَم السلاطين ، ونكفيكم هذه الشهادةُ الكافية ، وبما وصفتم به أنفسَكُم ناهية (قل يا أيّها الكافرون ، لا أعبُدُ ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبدُ ، ولا أنا عابدٌ ما عبَدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبُد ، لكم دينُكم ولي دينِ .) ففي كل كتاب لُعنتم وعلى لسان كلِّ مرسَل نُعِتم . وبكلّ قبيح وُصفتم ، وعندنا خبَرُكم مِن حين خرجتم ، أنكم كفَرَه ، ألا لعنةُ الله

على الكافرين ، مَن تمسّكَ بالأصول ، فلا يبالي بالفروع ، نحن المؤمنون حقّاً ، لا يدخلُ علينا عيبٌ ، ولا يضرّنا ريبٌ ، القرآنُ علينا نزَل ، وهو سبحانه رحيمٌ لم يزل ، فتحقّقْنا نزولَه ، وعلمنا ببركة تأويلِه ، فالنارُ لكم خُلِقتْ ، ولِجلودِكم أُضرمت ، (اذا السماءُ انفطرَتْ) ، ومِنْ أعجب العَجَب تهديدُ الرُّتوتِ بالتوتِ والسباعِ بالضباعِ والكُماةِ بالكُراعِ ، نحن خيولُنا برْقية ، وسِهامُنا عربيّة ، وسيوفُنا يَمانية ، ولَبوسنا مِصرية ، وأكفُّنا شديدة المَضارب ، وصِفتُنا مذكورة في المشارق والمَغارب ، إنْ قتلناكم فنِعْمَ البضاعة ، وإن قُتل منّا أحد فبينه وبين الجنّة ساعة ، ولا تحسَبَنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياءٌ عند ربّهم يُرزَقون ، فرِحين بما آتاهمُ اللهُ مِن فضله ويستبشرون بالذين لم يَلْحَقوا بهم مِنْ خَلْفِهم أنْ لا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزَنون يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضلٍ وأنّ اللهَ لا يُضيع أجْرَ المُؤْمنين) .

وأما قولُكمْ قلوبُنا كالجِبال وعددُنا كالرمال ، فالقصّابُ لا يُبالي بكثرة الغَنَم ، وكثيرُ الحَطب يُفنيه الضَّرَم (كم مِن فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذنِ الله والله معَ الصابرين) . الفارُّ الفارُّ مِن الزوايا ، وطولِ البلايا ، واعلَموا أنّ هجوم المنيّة عندنا غايةُ الأمْنية ، إنْ عشنا عشنا سعداءَ ، وإنْ قُتلنا قُتلنا شهداءَ ، ألا إنّ حزبَ اللهِ همُ الغالبون ، أبَعدَ أميرِ المؤمنين،وخليفةِ ربِّ العالمين ، تطلبون منّا طاعةً ، لا سمعَ لكم ولا طاعةً ، وطلبتم أنْ نُوضح لكم أمْرَنا قبل أنْ ينكشفَ الغِطاء ، ففي نَظْمه ترْكيك ، وفي سِلْكه تلْبيك ، لو كُشِف الغِطاء لبانَ القصدُ بعدَ بَيانٍ ، أكفرتُمْ بعدَ إيمان ، أمِ اتّخَذْتم إلهاً ثانٍ ، وطلبتم مِن معلوم رأيِكم ، أن نتّبع دينَكم (لقد جئتُم شيئاً إدّاً تكاد السمواتُ يتفطّرن منه وتنشقّ الأرضُ وتخرّ الجبال هدّاً) ، قُلْ لكاتبِك الذي وضع رسالتَه ، ووصف مقالتَه ، وصلَ كتابُك كضَرْب رَباب ، أوْ كطنين ذُباب ، (كلاّ سنكتبُ ما يقولُ ونمُدّ له من العَذاب مَدّاً ، ونرِثُه ما يقول) إنْ شاء اللهُ تعالى . لقد لَبَكْتُمْ ، في الذي أرسلتُمْ ، والسلامُ » انتهى .

« عن النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٥١ »

أ ــ يتلخص جواب الظاهر برقوق بالأفكار التالية :

١ ــ البدء بآية تجعل نصر كل جيش أو هزيمته بيد الله (قل اللهم مالك الملك ...) وهذه البداية الدينية تقابل بداية خصمه وتوافق أسلوب ذلك العصر .

٢ ــ يعُدّ ما يفخر به خصمه من القسوة والغلظة عيباً من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين ، ويتّخذ منه شاهداً على كفر الخصم ، ويؤيد ذلك بسورة قصيرة قرآنية يبيّن فيها أنّ نهجَه غيرُ نهْج الخصم ، (قل يا أيّها الكافرون ...) .

٣ ــ يبيّن تنبّهه لتحرّكهم واعتقادَه بكُفْرهم ويُصرّح بأنّ فريقَه هو المؤمن حقّاً وأنّ النار خُلِقت لخصمه .

٤ ــ يفخر بما لديه من عُدّة ومن تجربة وكفاءة في الحرب ومن انتظار الشهادة أو النصر مستشهداً بالآية الكريمة (ولا تحسبن الذين ...) .

٥ ــ يسخر باعتدادهم بعددهم وعددهم ويرى أن النصر حليف المؤمنين الصابرين ويستشهد بالآية (كم من فئة قليلة ...) ويفخر بأنه يطلب مع جنده فرحة النصر أو سعادة الشهادة ويُلَمّح الى أن حزبه حزب الله .

٦ ــ يصرح بألا طاعةَ لهم بعد أن قتلوا الخليفة العباسي أمير المؤمنين وبدا بذلك أنّهم وإن ادّعوا الاسلام فهم أحفاد أولئك المغول المشركين الذين قتلوا الخليفة وكأنه بذلك يُحمّل الابناء تبِعة أعمال الآباء كما فعل خصمه ، ويفيد من ذلك أنّ حربهم واجبة لأنهم في نظره مجرمون كأجدادهم .

٧ ــ يعيبهم بسوء البيان في الكتابة ويُزْري بطلبهم منه الطاعة ويستعظم جرمهم في ذلك مستخدماً الآية : (لقد جئتم شيئاً إدّا ...) .

٨ ــ يسخر مرة ثانية بالمرسِل وكاتبه ويعُدّ كتابته طنينَ ذباب ويهدّد ويوعِد وينتظر لعدوه الخيبة .

وقد رتّب الكتاب ترتيباً منطقياً يؤدي فكرته العامة أداء جيداً وهي تتلخص بأنّ وعيد خصمه لم يؤثر فيــه •

ب ـــ يستشعر قارىء الكتاب بأن المرسِل رابط الجأش قوي الأعصاب ، ناقم على خصمه يهدد ويتوعد ويستخدم العاطفة الدينية مثله ؛ ولكنّ أثر المدنية أوضح في عباراته ومقاصده لأنّه لا يرمي نفسه بالغلظة مثله ولكنه يصف نفسه بالثبات وأنه على حق في الدفاع ويزيد على خصمه بالتعبير عن عاطفة السخرية أكثر من مرة •

جـ ـــ الكاتب لا يستخدم التصوير الواقعي نتيجة لعدم وصف نفسه بالغلظة كخصمه ولكنه يستخدم الصور البيانية في غير مبالغة ، ومن أعجب العجب تهديد الرتوت بالتوت ، والسباع بالضباع والكماة بالكراع •••) فالقصّاب لا يبالي بكثرة الغنم ، وكبير الحطب يمنيه الضرم ، كضرب رباب ، أو كطنين ذباب •

ويلاحظ أن هذه التشابيه موفقة جيدة واقعة مواقعها بالاضافة الى أن الكاتب قد استخدم الآيات أحياناً في تشبيهات تمثيلية : (كم من فئة قليلة ، لقد جئتم شيئاً إدّا ، كلا سنكتب ما يقول •••) •

د ـــ أكثر الكاتب من اقتباس الآيات القرآنية وكان أحسن استخداما لها من خصمه ، واستخدم من الفنون البيانية السجع والطباق بالإضافة الى الاقتباس ، ولكنه لم يفسد أسلوبه بالمبالغة فيها •

هـ ـــ أسلوبه واضح ولكنه أكثر صنعة وتلويناً من أسلوب خصمه • وهو صحيح الأداء ، فصيح الالفاظ •

النثــر الذاتــي والوجــداني

كان النثر الديواني هو الذي يحتل الصدارة والى جانبه كان بعض النثر الذاتي الذى يعبر عن مشاعر أصحابه من الكتّاب •

وقد اشترط له ابن الاثير شروطاً (المثل السائر ج ١ ، ص ٨٦) • منها ما جاء في قوله : « فأما الكتب الإخوانية والكتب التي تعمل رياضة للخاطر فيما يقل وقوعه ، لاحتمال أن يقع ، أو فيما تمتحن به قوة القريحة ، ويعتبر به تصرف الفطنة ، ويسبر به غور الذهن ، ويعلم به استعداد الفكر ، فان الكاتب في ذلك مطلق العنان ، مخلى بينه وبين قوته فيه أو ضعفه ، لكن على كل حال يراعى كل مقام بحسبه » •

وقد حاول الكتاب أن يعبروا بحرية عن خلجات نفوسهم ولكنهم لم يستطيعوا التخلص من الاسلوب المتكلف الذي ألفوه في النثر الديواني •

كتب السهاب محمود في رياضة الخاطر كتاباً الى إنسان تخيله يتضمن مخاطبته بتزويج أمه ، وكتاباً الى من هزم مع جيشه يتضمن إقامة عذره ووصف اجتهاده وحثه على الاخذ بثأره ، وكتاباً في ذم المهزوم وتقريعه ، وكتاباً على لسان المهزوم يتضمن الاعتذار ووصف الاحتفال بأخذ الثأر ، ومما قاله فيه :

« الى فلان أتبع الله ما ساءه من أمرنا من العدو بما يسره ، وبلّغه عنا من الانتصاف والانتصار ما يظهر من صدور الصفاح وألسنة الرماح سرّه ، وأراه من عواقب صنعه الجميل بنا ما نتحقق به أنّ كسوف الشمس لا ينال طلعتها ، وانّ سرار القمر لا يضرّه » •

« حسن التوسّل ص ١١٦ »

ويدور موضوع الرسائل الاخوانية حول الصداقة والصلة بين الاخوان والاقرباء والاصدقاء وتتخللها مشاعر العتاب والاعتذار والحب ، ويحاول الكاتب فيها الاعراب عما في نفسه وازالة جفوة صديقه •

وقد أكثر كتّاب هذه الحقبة من الرسائل الاخوانية ، وفيها عاطفة صادقة ، وشعور انساني سامٍ على الرغم مما فيها من تكلف أسلوبي كان يحجبها بعض الحجب •

ويبين من موضوعاتها أنها موضوعات الشعر الغنائي نفسها ولذلك نراها تكثر الاقتباس منه لتوافقهما فيها •

وهذا مثال منها مشفوع بالاقتباس من الشعر :

كتب القاضي الفاضل الى أحد اخوانه يعبر عن شوقه ويعاتب (نهاية الأرب ، ج ٨ ، ص ٢٢) :

أكـــذا كـــل غائـــب غـــاب عمّـــن يحبّـــهُ

غـــاب عنـــه بشـــخصه وســـلا عنـــه قلبـــهُ

لو أنّ لي يداً تكتب ، أو لساناً يسهب ، أو خاطـراً يستهلّ ، أو فؤاداً يستدلّ ، لوصفت اليه شـوقاً ان استمسك بالجفون تَشَرَّ عقدَها ، أو نزل بالجوانح أشعر وقدَها ، أو تنفس مشتاق أعان على نفسَه ، وظنه استعاره من قبَسه ، أو ذكر محبٌ حبيباً خاله خطر في خلَده ، وتفادى من أن يخطر به ذكر جَلَده .

حتـــى كـــأن حبيبـــاً قبـــل فرقتـــه

لا عـــن أحبّتـــه ينـــأى ولا بلـــده

بالله لا ترحمـــوا قلبـــي وان بلغـــت

بـــه الهموم فهـــذا ما جنـــى بيـــده

ولولا رجاؤه أنّ أوقات الفراق سحابة صيف تقشعها الرياح وزيارة طيف يخلعها الصباح ، لاستطار فؤاده كمَدا ، ولم يجد ليوم مسرّته أمدا ولكنه يتعلل بميعاد لقيـــاه ، ويدافـــع ما أعلّه بلَعلّه أو عساه .

غنـــى في يـــد الاحـــلام لا أســـتفيده

وديـــن عـــلى الأيـــام لا أتقاضـــاه

ومن غرائب هذه الفرقة وعوارض هذه الشقة أنّ مولاي قد بخل بكتابه وهو الذي يتداوي به أخوه قليلَ اكتئابه ، ويستعدي به على طارق الهمّ اذا لجّ في انتيابـــه .

كمِثلِ يعقوبَ ضلَّ يوسُفَه

فاعتاض عنه بشمِّ أثوابه

وهبْ أنَّ فلاناً عاقه عن الكتب عائق ، واختدع ناظره كمن هو في ناضر عيش رائق فما الذي عرض لمولانا حتى صار جوهر وُدّه عرضاً ، وجعل قلبي لسهام إعراضه غرضاً .

بي منه ما لو بدا للشمس ما طلعت

من المكاره أو للبرق ما ومضا

وما عهدته أدام الله سعادته إلا وقد استراحت عواذله ، وعُرِّي به أفراسُ الصِّبا ورواحله . الا أن يكون قد عاد الى تلك اللُّجَج ومرض قلبه فما على المريض من حرج ، وأياً ما كان ففي فؤادي إليه سريرة شوق لا أذيعها ولا أضيعها ، ونفسي أسيرة غلّة لا أطيقها بل أطيعها .

واني لمشتاق اليك وعاتب

عليك ولكن عتبة لا أذيعها

والأخُ النظّام ، أدام الله انتظام السعد ببقائه وأعْداني على الوجد بلقائه ، مخصوص بالتحية إثْر التحية ، ووالَهفي على تلك السجية السخية ، وردتُ منها البابليَّ معتقا ، وظَلْتُ من أسر الهموم بلقائها معتَقا .

خلائق إما ماءَ مُزْنٍ بشهدِه

أُغادَى بها ، أو ماءَ كرْمٍ مصفَّقا

وقد اجتمعت آراء الجماعة على هجراني ، ونسوا كل عهد غير عهد نسياني :

وما كنتمُ تعرفون الجَفا فبالله ممَّن تعلمتمُ . »

يلاحظ أن أسلوب القاضي الفاضل في رسالته الاخوانية هذه هو أسلوبه نفسه في الرسائل السلطانية غير أنه هنا يتحدث عن عاطفته ولذلك كان كلامه

في صوره وصناعته قريبا من الشعر لا ينقصه عنه الا الوزن ، كثير التكلف للسجع وسائر فنون البديع . كثير الصور ، يورد الشعر حلال نثره مستشهداً به وكأنه من كلامه • وهو هنا يصف شوقه الشديد وجفوة صديقه بعد الصفاء وطول انقطاعه عنه دون سبب ، ويتفاءل برجوع الصلة كما كانت ويمدح أخلاق صاحبه ويتمدّح هو ببقائه على عهده •

ويتسم كلامه بطابع المبالغة ولا سيما في أوله حين يصف شوقه الى صديقه • ونعتقد أن التكلف فيه قد أساء الى المعاني وقلّل من وضوحها •

وكتب شرف الدين عيسى بن حَجّاج العالية الى الوزير الكاتب فخر الدين ابن مكانس ، أحد شعراء القرن الثامن وكتّابه ، رسالة اخوانية يستوهبه فيها شاشاً :

« يقبّل الارضَ التي شاق ترابُها المواطىءَ الفخرية ، فزاد اعجابا ، وقال المسك يا ليتني كتب ترابا ، ويُنهي أنه أقبل على المطالعة ، والباقي من العشر الى ليال خمس ، واستهدى بنجومِ فوائدها حين قامت الشمعة بوظيفة الشمس ، واستدعى أعوانا من السهر ، فتخاذلت عنه أعوانه وخشي من غلبة النوم فتغلّب عليه سلطانه ، ولمّا أغفى على وجه الكتاب لعبت الشمعة بلسانها وناولت طرف شاشه بين نيرانها ، فهبّ المملوك ، وأخمد منها ما تصاعد من الأنفاس وقابلها على حرق الشاش بقطع الرأس :

إني جلست بشمعة موقودة
لأطالع الأسفار للتسبيح

فتناولَتْ شاشي أوائلُ نارها
ونمكّنت منه بمرّ الريح

من قبل حرْق الشاشِ كنتُ مطالِعا
في الكُتْبِ صرتُ مطالِعاً في الروح

وقد توسلتُ بهذه الرسالة المدوّنة في باب المنظوم والمنثور ، ومددتُ يد

سئؤلي الى طلبي شاشاً مقصوراً ، وأرجو أن يَجْمَعَ لي بين الممدود والمقصور أبقاك الله للأولياء الذين يحبّون وجودك ويستمطرون كرمك وجودك » •

« مطالع البدور ١ : ٨٦ »

يلاحظ هنا أن الرسالة تقوم مقام القصيدة في المدح والاستنجاح وأنها قد اتسمت بالسجع ، واستخدمت فنون البديع الاخرى ، وتضمنت الشعر ؛ ولكنه من نظم كاتبها وليس مقتبساً من غيره • وبصوّر كاتبها حاله من السهر والمطالعة وكيف عفا فأحرقت الشمعة شاش عمامته فهو يطلب من الممدوح أن يعوّضه عنه بأسلوب وصفي خفيف الروح •

وقد تناولت الرسائل الاخوانية الرثاء كما تناولت الشعر • ومن رسائل الرثاء رسالة ابن الوردي في رثاء الإمام البارزي الشافعي وقد أرسل بها الى ابنه : (تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ص ٣٢١) •

« ••• وينهي انه بلغ المملوكَ وفاةُ الحبْر الراسخ ، بل انهدادُ الطود الشامخ ، وزوال الجبل الباذخ ، الذي بكته السماء والارض ، وقابلت فيه المكروهَ بالتّدْب ، وذلك فرْض ، فشرِفتْ أجفان المملوك بالدموع ، واحترق قلبه بين الضلوع ، وساواه في الحزن الصادرُ والوارد ، واجتمعت القلوب لما تمّ لمأتم واحد ، فالعلومُ تبكيه ، والمحاسن تَعزّي فيه ، والبِرّ ينعاه ، والحُكْم يتفدّاه ، والأقلام تمشي على الرؤوس لفقده ، والمصنّفات تلبس حِداد المِداد مِن بعده » •

تتسم الرسالة بالمبالغة والسجع والجناس والطباق وسائر فنون البديع وفيها تشابيه واستعارات وكنايات كثيرة ويأتي الكاتب بصفات مناسبة لصنعة المتوفّى تتعلق بالعلم والكتابة •

وتناولت الرسائل الاخوانية الوصف كما تناولت الشعر ، ومن ذلك وصف الآثار •

وتناولت الرسائل وصف عدد الحرب وآلاتها براً وبحراً •

قال العماد الكاتب في وصف الاساطيل التي استقدمها صلاح الدين من مصر (ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١١) :

« فجاءت كالفتح بالفُلْك المواخر ، وجاءت كأنها أمواجٌ تلاطم أمواجا ، وأفواجٌ تزاحم أفواجا ، تدبّ على البحر عقاربُها ، وتَجِفُ كقِطَع الليل سحائبُها • والحاجبُ لؤلؤٌ مقدَّمُها ومِقدامها ، وضِرغامٌ غايتُها وهمّامها ، فطفِق يكسر ويكسب ، ويسلُّ ويسلُب ، ويقطع الطريق على سفُن العدوّ ومراكبه ، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه » •

يشمل الوصف كثرة السفن وعظمها ومجيئها زمراً ويذكر قائدين من قوادها ويذكر فعلها في الاعداء وسفنهم ذكراً مجملاً لا يتعرض فيه الى تفصيلات المعارك وجزئياتها • ويغلب على أسلوبها السجع والجناس •

ووصف القاضي الفاضل في إحدى رسائله حصن الكرك الحصين الذي كان بأيدي الصليبيين يقطع طريق الحجّ ، على المسلمين ، فقال :

« هو شجىً في الحناجر وقذىً في المَحاجر ، قد أخذ مِن الآمال بمَخْنقها ، وقعد بأرصاد العزائم وطرُقها ، وصار رئيساً للدهر في ذلك الفجّ ، وعُذْراً لتارك فريضة الله من الحج ، وهو وحصن الشَّوْبك يسّر اللهُ الآخرَ ، كبيت الواصف للأسدَيْن :

ما مرَّ يومٌ إلاّ وعندهما لحمُ رجالٍ أو يولِغان دماً

« الروضتين ٢ : ٥٥ »

اهتم القاضي الفاضل حين وصف هذا الحصن بوصف خطره على الناس والحجاج منهم بخاصة وعلى الجند ولذلك نراه فرحاً بالاستيلاء عليه يرجو أن يستولي صلاح الدين على نظيره في الخطر وهو حصن الشوبك فنرى أن الرسالة تقوم بدورها من التوجيه المعنوي والكفاح في سبيل التخلص من الاعداء ، وأسلوبها متكلف •

وتناولت الرسائل الاخوانية الى جانب الجد حديثاً كثيراً عن اللهو • كتب

بدر الدين بن الصاحب الى الصاحب فخر الدين بن مكانس[1] يصف مجلساً للخمـــر :

« هل لك ، بسط الله آمالك ، وضاعف تعيمك ودلالك ، في عذراءَ مَصونة كالدرة المكنونة ، فتانةٍ مفتونة ، كأنّ على خدّها فوق ورده ياسمينة ، مُخْدَرةٍ تدهش العقولُ لمجتلاها وتعشى العيونُ لضوء سَناها ، مظلومةِ الريق في تشبيهه بالضَّرَب ، وفي اللثات وفي أنيابها شنَب ، لها من ذاتها طربٌ يغني عن المزامير ، بلقيسيّةِ الجمال ، لها صرح ممرّدٌ مِن قوارير ، ضرّة للشمس ، تلبس زيَّ البدور ، ليَلين ويَطربَ بها عيشُ السرور ، ليلُها من حسنها نهار ، وضوءُ وجهها ليد لامِسها سِوار ، عجوزِ الاسم ، صبيّةِ الاستمتاع ، بكرٍ تستخفّ الحليم بكشف القِناع ، تعصّبت بالدَّجى طِيبا ، وتلثمت بالصباح ، وتلطفت حتى مازجت الأرواح ، كريمةِ الأصل والفعال ، حسنةِ المعاني والخِصال ، أديمُها كلّما تعتّق يغلو وو ردُها كلّما مرَّ يحلو ، يخلع الوقورُ في حبّها العِذار ، ويطيعها بالسعد فلَك اللهو الدوّار ، ثملةِ المَعاطف ، تقهقه قهقهة الرعونة ، كأنما خلقت نشوانة من الطّينة ويزداد ثغرُها طيباً في ساعة السحَر ، وتعرف عينُها المَخفيّةَ بحسن الأثر ، حديثُها السحر الحلال ، وعتيقها خلَع الدلال ، أيامُها أعياد ، وأوقاتُها أقواتُ القلوب والاكباد ، تُطيب عيش الجُلاّس ، وتفرك أذُنَ الوَسْواس ، من القاصرات الطرْف في كل قَصْر ، وهي على الاطلاق ذهبيةُ العَصر ، روميةٍ لها بالكيمياءِ معرفة ، مع أنّها بادراكِ المَعارف متصفة ، فتارة تقلب الأحزان أفراحا ، ومرّة تكتال لك الذهبَ أقداحا ، نديمُها يجدُ في تخاييلِها الملكة ، ويكاد أن يمدّ على الدنيا من لؤلؤ جنّاتها شبكة ، قينةٍ كأنما غنّت الفَلَكَ فنقّطها بالنجوم ، فارسيةٍ تخلّقت بعد أن تقمّصت بياضَ الغيومُ ، تجمَع شملَ الأحباب وتُهذّب الأخلاق الصعاب ، لو خالَطها جبَلٌ لماس ، أو قابلها جماد لَقيل إنّه ناس ، أو قتلت نُدَماءَها لما نُسبت الى إياس ، ولقال لسانُ حالِهم : وفيها منافعُ للناس ، وتلطّفت حتى كأنّ رائيَها

---

[1] الاثنان من اواخر العهد المملوكي التركي واوائل الجركسي .

ــــادم تطلب وتطرب ، وحتى يكاد يتأكل بالضمير وتشرب . تعاير ت الاستقصاءات على شكلها النوراني ، وما نمت في خلقها الجثماني الروحاني ، فلم يجد الطين[1] له منها مدخلا ، لكن منع منها بالتلطخ تطفلا ، على أنه وارثها بالنسب وفل جدها للأد بلا ترتب ، أنفاسها مسكية وطبائعها برمكية ، ومكارمها حاتمية وأنسامها فبصرية ، بكر بخاتم ربها ، وهي ترضع أباها من حلبها فتعد التسخ صبيًا . والمشعول خليا ، فكأنها استعارت الإرضاع من أمها التي لها ثدي كالنجوم عده ، ونعلت منها المكارم ، لما رأت أكفها بالندى مسندة ، غائبة ، طعم الحياة في ريقها ، وضيق الموت في مباينتها وتطليقها ، لا تزل الحوادث ساحتها ، ولا يعرف التعب من صافح راحتها ، حمراء تخلع ثوبها على الندمان ، بل تكاد تنطبق عينها على الإنسان ، لا ينهض البليغ بوصفها ، فالعجز عن إدراك لطمها إدراك لطفها » .

« مطالع البدور للغزولي ١ : ١٥٣ »

الرسالة تكاد تكون شعراً وهي شعر منثور بكثرة صورها وتشخيصها الجماد وبراعة الوصف وتصوير مشاعر المغرم بالخمر ، ثم بما ينثره الكاتب من أبيات الشعر القديمة والمستحدثة في عهده ، ويظهر أن الشاعر استحضر في ذهنه وهو يكتبها جميع ما يحفظ من الشعر الجيد في الخمر . وأسلوبها مسجوع متكاشف .

واستخدمت الرسائل في أوصاف الرياضيات و... يات ويشمل هذا النوع من الوصف الخيل والجوارح والسلاح وآلات الحرب المختلفة ولعب الكرة ورمي البندق الذي أصبح يشغل حيزاً مرموقاً في أدب هذا العصر .

وقد بيّن الشهاب محمود ما يجب أن يكون عليه هذا النثر الذاتي من صفات بشكل موجز فقال : انه « مما يحسن بسط الكلام فيه ، ويكون الكاتب مطلق العنان . مخلى بينه وبين فصاحته ، موكولا الى اطلاعه وبلاغته » . (حسن التوسل ، ص ٩٩) .

---

(١) في الاصل المطبوع الطير . وقد اصلحناها باجتهادنا .

وقد تناول هذا الموضوع الكتّاب كما تناوله الشعراء . وألف الشهاب محمود رسالة في البندق ذكر أنها « تشتمل على أنواع من الاوصاف ، وفنون من النثر والنظم . يستعين بها الكاتب على ما يشاء من إنشاء قدّمة[1] في أي نوع أراد من الطير الواجب »[2] .

ويقول في مقدمتها « الرياضة تبعث النفس على مجانبة الدعة والسكون ، وتصونها عن مشابهة الحمائم في الركون ؛ ويحضّها على أخذ حظّها من كل فن حسن ، ونحثّها على اضافة الادوات الكاملة اللسن ، وتأخذ بها طوراً في الجِدّ وطورا في اللعب ، ونصرفها عن ملاذ السموّ في المشاقّ التي يستروح إليها النصب » .

ثم يتحدث عن خروجه الى الصيد وقت الاصيل فيصف الطبيعة والجداول والطيور والنسائم ، ثم يصف مجموعة من الطيور المصادة بعد أن « أصبحت أشلاؤها على وجه الارض كفرائد خانها النظام » (حسن التوسل ص ١٠٣ — ١٠٤) .

عُني كتّاب هذه الحقبة بوصف أماكن الصيد ورحاب الطبيعة التي يصطاد فيها ووصف حيوان الصيد وعدده وآلاته ومجالس الطعام والشراب بعد الانتهاء منه .

وأكثرُ من عُنوا به مَن كانوا في صحبة سلاطين المماليك وأمرائهم الذين كانوا يعدّون الصيد ضربا من الفروسية ومراناً على القتال واستعداداً له ولذلك نرى الشهاب محمود في رسالته هذه تُعنى به وبتفضيله على سائر أنواع الرياضة والتسلية ...

وممن عنوا بوصف الصيد أيضا ابن حبيب الحلبي في كتابه (نسيم الصبا)

---

(١) القدمه : قدوم نوع من الطير الذى يهاجر عادة من بلد الى اخرى . والسير الى صيده . والمقاله او المقامة التي تتحدث عنه وعن صيده .

(٢) الطير الواجب : الطير المرغوب في اصطياده والمسموح به ، على مختلف انواعه .

وهو مجموعة مقامات تزيد على الثلاثين . وسنرى انه لا يوجد كبير فرق بين الرسائل والمقامات في العهد المملوكي .

المقـــــامة

المقامات في الأصل معناها المجالس (المطرزي في شرح مخطوط للحريري . و : ٤٥) .

كانت المقامة تلي الرسالة في المكانة وفي درجة الاهتمام بها ، بل فضّلها بعض الأدباء عليها قالباً لإنتاجهم ، وقد اختلفت عما كانت عليه زمن الهمذاني من اختيار بطل خيالي لها وراوية يروي أخباره ، وأصبح الادباء ينسبونها الى أنفسهم مباشرة ويعبّرون بها عن مشاعرهم الخاصة من أفراح وآلام في ثوب قصصي واستغلّوها كذلك في الوعظ الديني وفي الإضحاك واللهو وفي نقد المجتمع والسخرية ببعض الاشخاص .

وقد قامت المقامة بدَور الشعر في الحقب السابقة فتناولت شتى موضوعاته وشاركت بذلك الرسالة وقامت معها بدور المقالة في عصرنا .

ويرى « نيكلسون » أن المقامة كانت خطوة نحو الفن القصصي الذي لم يكن ، في رأيه ، موجوداً عند الساميين . (نيكلسون ، تاريخ الأدب العربي ص ٣٢٨ بالانجليزية) وقد وافقه بروكلمان في ذلك (تاريخ الشعوب الاسلامية ٢ : ١٣٥) وخالفه كاتب المقال عن المقامة في دائرة المعارف الاسلامية . وقد اعتبرت أحياناً في المكانة بعد القرآن لدى المثقفين (لرجع نفسه ص ٣٣٦) .

وقد قلّد بعضهم المقامات لغرامهم بأسلوبها . ومنهم الحسن بن صافي[1] الذي كان يقول : « مقاماتي جد وصدق ومقامات الحريري هزل وكذب » (ارشاد الأريب ٣ : ٧٥) .

وعلق على ذلك صاحب النجوم الزاهرة (ج ٦ ص ٦٨) بقوله :

« ولكنْ دون ذلك أهوالُ » . ومنهم محمد بن يوسف بن نِحرير[2]

---

(١) لقب نفسه بـ « ملك النحاة » (٤٨٩ — ٥٦٨) فهو من العهد الزنكي .

(٢) توفي سنة ٦٦١ هـ .

الذي وضع مقامة لاحد الامراء وصف فيها الجوارح والخيل والخروج الى الصيد وكلباً من كلابه وغير ذلك .

ومنهم محمد بن الحسن بن سبّاع المصري (ت ٧٢٠ هـ)[١] الذي وضع المقامه الشهابية (بغيه الوعاه للسيوطي ، ص ٣٤) ..

ومنهم أحمد بن علي بن الزبير الغساني (ت ٥٦٣ هـ)[٢] الذي ألف كتابه (المقامـــات) .

ومنهم الشاب الظريف (٦٧٢ هـ) الذي ألف مقامات العشاق ووصف فيها حبه وخروجه الى الرياض والتقاءه بعاشقين وحديثه معهما .

وجرى على نهجه الشهاب محمود (٧٢٥ هـ) فألّف « مقامه العشاق » .

وكثر التأليف في شرح مقامات الحريري ومنه « المطول » في شرح المقامات لابن ظفر (محمد بن عبد الله ت ٥٦٥ هـ) . و « التنقيب عما في المقامات من الغريب » له أيضا . ومنه شرح عبد الكريم البعلبكى (ت ٦٠٠ هـ) .

وهذا مقطع من مقامة لمحمد بن يوسف بن نحرير

(ت ٦٦٥ هـ) قال :

« خرج يوماً مع أناس ، قد واصلوا برهم بإيناس . كل منهم يهتزّ للأُكرومة ويأوي الى شرف أَرومة ، على خيل مسوّمه ، متقّفه مقوّمه ، ما بين حَوْنٍ أدهم . أذكى من فارسه وأفهم . إذا زاغ عن سنان ، أو انعطف لعِنان ، ظننه عبد مُواصله ، أو انفصل عن مَفاصله . واستقرّ كالطّراف ، عبِلَ الأطراف ، وأشهبَ كريم ، له سالفةُ ريم ، كأنما خُلق من عمق ، أو تردّى برداء من

(١) اشتهر بـ « ابن الصائغ » (٦٤٥ — ٧٢٠ هـ) وهو محمد بن حسن بن سباع بن ابى بكر الجذامى . أبو عبد الله ، شمس الدين اديب عالم بالعربيه مصرى الاصل ، دمشقى المولد والوفاة . له أيضا قصيدة نحو الفى بيت فى الصنائع والفنون وله ديوان شعر .

(٢) اشتهر بلقب : القاضى الرشيد . دعا لنفسه بالخلافة . حارب مع صلاح الدين فى الاسكندرية وقتله شاور .

شقيق ، ان أوردته الطرادَ أوردك المراد ، وكُمَيْتٍ كالطَّود ، ذي وظيف كذراع العَوْد ، يلطم الارض بزُبَر ، وينزل من السماء بخبر ، وهملاجٍ أشهب ، ان زجرته ألهب ، أديمه روضةُ بَهار ، بنظر في ليل من نهار ، ينساب انسياب الأَيْم ، ويمرّ مرورَ الغَيم لا ينبّه النائمَ اذا عَبَر به ، ولا يحرّك الهواء في سَرَبه ، أخفّ وطأً من طَيْف ، وأوطأ من مهاد الصيف ، قال : فلم يزل بنا المَسير ، وكلٌّ منا في طاعة صاحبه أسير ، الى أن قصدنا وادياً كان لعيوننا بادياً ، فما قطعنا منه عرْضاً حتى أتينا أرضاً كأنما فَرْش قرارها زبرجَد وصيغَتْ ألوانها من لُجَيْن وعسجَد ، قد رقرقت فيها السحابُ دمعَها ، وأحسنت في قيعانها جمعَها • نسيمُها سقيم ، وماؤها مُقيم ، فهي تُهدي للناشق ، أنفاسَ المعشوق للعاشق » •

وجاء في هذه المقامة وصف للكلب :

« دو خَطْم مخطوف ، ومِخلب كصُدغٍ معطوف ، غائبُ الخصر ، حاضر البَصْر ، له طاعةُ التهذيب ، واختلاسُ الذّيب ، وتلفّتُ مَريب ، وصداقةُ قريب • له من الطّرف أوراكه ، ومن الطَّرْف إدراكه ، ومن الأسد صولته وعِراكه ، اذا طَلَب فهو مَنون واذا انطوى فهو نون » •

« الطالع السعيد ٦٤٣ ، والادب المملوكي ٢ : ١٩ »

هذا الجزء من المقامة يبيّن ان المَقامة التي أخذ منها لم تحتفظ من مُقوّمات المقامات الا بالاسلوب المرصّع بالصــور البيانية والزخارف البديعية ، وانها ليست قصة محبوكة وليس فيها بطل أسطوري ولا راوية ولكنها أسهل من ألفاظ الحريري وأرقّ وأقربُ فهماً ، على أنّ نصيبها من الخيال أقلّ •

وقد استُخدمت المقامــةُ في وصف الكوارث كما استُخدمت في وصف الطبيعة •

قال ابن الوردي (عمر بن مظفر ، ت ٧٤٩ هـ) يصف الطاعون ، من مقامة :

« اللهم صلّ على سيدنا محمد وسلّم ، ونجّنا بجاهه من طغيان الطاعون وسلّم ، طاعونٌ روّع وأمات ، وابتدأ خبرُه من الظُّلمات ، فواهاً له من زائرٍ

من خمسَ عشرةَ سنةً دائر ، ماصين عنه الصّين ، ولا منعَ حِصن حصين ، سلّ هنديّاً في الهند ، واشتد على السّند ، وقبض بكفيّه وشبّك على بلاد آرْدَك ... وقهر خلقاً بالقاهرة ، وتنبّهت عينه لمصر فإذا هم بالساهرة وأسكن حركة الإسكندرية ، فعمل شغل الفقراء مع الحريرية :

اســـكندريةُ ذا الوبـــا سبْع يسدّ إليك ضَبْعَه
صـــبراً لقســـمته التـــي تركت من السبعين سبعَه »

« الادب المملوكي ج ٢ : ٢١ »

وهو هنا يصف ما أحلّه الطاعون من بلاء في شتى البلاد ويصف تنقّله فيها .

وقد استخدم الادب العامي المقامة كما استخدمها الادب الفصيح .

ومن النثر العامي **مقامة هزلية لشرف الدين بن أسد** (ت ٧٣٨ هـ) رواها الصفدي[1] . وهي من مقاماته الطريفة . وكان شرف الدين عامياً مطبوعاً قليل اللحن منها : « اجتاز بعض الحاة ببعض الأساكفة ، فقال أبيتَ اللعن ، واللعنُ يأباك ورحم الله أمّك وأباك ، وهذه تحية العرب في الجاهلية قبل الاسلام ، ولكنْ عليك أفضل السلام ، والسلام ، ومثلك من يُعَزّ ويُكَرم ... » ثم يسرد عليه قراءاته في كتب العلم واللغة والنحو وينتهي الى الغرض الذي جاء من أجله الى الاسكاف فيقول : « وقد دعتني الضرورة اليك ، ونمثلت بين يديك لعلك تتحفني من بعض حكمتك وحسن صنعتك بنعل يقيني الحر ويدفع عني القرّ ، وأعرب لك عن اسمه حقيقاً لأتخذك رفيقاً ، فيه لغات مؤتلفة ، على لسان الجمهور مختلفة ، ففي الناس من كناه بالمداس ، وفي عامة الأمم من لقّبه بالقَدَم ، وأهل سِرْنُوزة سمّوه بالشرموزة ، واني أخاطبك بلغات هؤلاء القوم ، ولا إثمَ في ذلك ولا لَوْم ، والثالثة به أولى ، وأسألك أيّها المولى أن تتحفني بشرموزة ، أنعمَ من الموزة ، وأقوى من الصوان ، وأطولَ منطقة ، ثابتة في الأرض الزلِقة ،

---

(١) واوردها ابن شاكر في « فوات الوفيات » . وهو يترجم لكاتبها .

نعلها من جلد الأفيلة الحسير لا المَطير ، أطول عمراً من الزمان ، خالية الحواشي ، مُطبّقة الحواشي لا يتغير وشيها .

فلما أمسك النحوي عن كلامه ، وتب الإسكافي على أقدامه ، وتمشّى ونبخر ، واطرق ساعة وتفكر ، وتندد وتشسر ، وتحرّب وتنمر ، ودخل حانوته وخرج ، وقد داخله الحنَق والحرَج . فقال له النحوي : جئت بما طلبته ؟ قال لا ، بل بجواب ما قلته . فقال : قلْ وأوجز وسجّع ورجّز . فقال : « أخبرك أيّها النحوي ، أنّ البشر سَنجوري سطبطاب المتفوقل ، والمتيعب من جانب السّر شَنْكل ، والدبوك تصهل كنهبق زفازيق الصولجانات ، الخ » .

« ويورد كلاماً مسجوعاً لا معنى له على تلك الصورة حتى يقول » : « أعبذك بالزمزاح ، وأبخرك بحصى لبان المستراح ، وأرقيك برقوات مرفات قرفرات البطون لتخلص من داء البرسام والجنون .

ونزل من دكانه مستعبناً بجيرانه ، وقبض لحية النحوي بكفّه ، وخنقه بإصبعيه ، حتى خرّ مغشيّاً عليه . وبربر في وجهه وزمجر . ونأى بجانبه واستكبر ، وشخر ونخر ، وتقدّم وتأخر . فقال النحوي الله أكبر الله أكبر ، ويلك ما هذا الغثيان ، قال مِن هذا الهذيان ، والسلام » .

ينقد شرف الدين بن أسد في هذه المقامة تقعّر النحويين في استخدام اللغة العويصة والصناعة البديعية البيانية في غير مكانها على ما لا يوافق مقتضى الحال ، ويستخدم أسلوب النحاة نفسه مبالغاً فيه مجسّماً عيوبه باستعمال ألفاظ مخترعة لا معنى لها ، واختيار موضوع لمقامته هو تصليح حذاء . والنقد خفيف الروح يصلح أن تكون لمحة تمثيلية للإضحاك القائم على اللفظ والحركة والشجار والسباب .

خيال الظل

ومن الفنون الادبية التي راجت أو وجدت في هذه الحقبة خيال الظل .

(تحدث عن خيال الظل في العصر الحاضر الدكتور فؤاد حسنين في كتابه .

« القصص الشعبي » وأحمد تيمور باشا في كتابه « خيال الظل » والمستشرق جورج يعقوب في بحثه عن خيال الظل وكتاب :

(Studies in the Arab Theatre and Cinema 1958. England, London Jacob M.) .

عرف هذا الفن في الشرق العربي ، وبخاصة مصر ، منذ العهد الفاطمي . ولكن الذي وصل الينا من نصوصه يرجع الى عهد المماليك الاتراك وهو بابات (أو مسرحيات اذا صحت التسمية) لابن دانيال (ت ٧٤٠ هـ) تنّوع في قوالبها بين الشعر والنثر والزجل . وخيال الظل هو ما يسمى اليوم في الشام بـ (قره غوز) خطأ[١] ومما يدل على أنه كان معروفا لدى الأيوبيين ما ذكره ابن حجة (في ثمرات الاوراق ، ص ٣٠) من ان صلاح الدين أحب أن يري القاضي الفاضل خيال الظل فأتاه من القصر (الفاطمي سابقا) بمن يعالجه ، فقام القاضي عند الشروع فيه ثم قعد مسايرة للسلطان فلما انقضى سأله عن رأيه فيه ، فقال :

« رأيت موعظة عظيمة ، رأيت دولاً تمضي ودولاً تأتي ، ولما طُوي الستار اذا المحركُ واحد » .

وفي هذه الرواية نظر لأن القاضي الفاضل أسبق من صلاح الدين وجودا في مصر واختلاطا بالفاطميين فكيف لم يعرف خيال الظل من قبل ، الا ان يكون النظر اليه في زمنهم كان مقصورا على الملوك أو انه كان شائعا معروفا لدى الناس ، ولكنّ القاضي الفاضل كان يورع عن مشاهدته ، أو انه لم يحب ان ينصرف السلطان لمثل تلك الحال من اللهو والعدوّ رابض في البلاد .

وكان يستخدم فيه ما يسمى بالبابات وهي عرائس من الورق المقوّى أو الجلد تحرّكها مدربون عليها ، وربما دربوا الجواري على تحريكها يدل ذلك على قول أحدهم :

---

(١) قره غوز هو ما يسمى اليوم بالفصحى « مسرح العرائس » لأنه يتكون من دُمى وتماثيل من خشب او جصّ تحرك بخيوط لا يرى النظارة محرّكها . وقد اطلق العامة في الشام اسم قره غوز على الصور المقصوصة من الورق المقوى أو الجلد المضغوط والتي تقع خيالاتها بواسطة نور وراءها على الشاشة أمامها . (مسرح عربي قديم « كراكوز » لعادل ابي شنب ، ص ٣١ و ٣٢) .

أرتنـا خيـال الظـل والسـتر دونهـا
فأبـدت خيـال الشمـس خلـف غمـام

تَلَعَّـب بالاشـخاص مِن خلف سترها
كمـا لعبـت أطرافهـا بأنـام

« مطالع البدور للغزولي ١ : ٢٦١ »

وقد وصل الينا من مسرحيات ابن دانيال العرائسيه ثلاث هي طيف الخيال ، وعجيب وغريب ، والمتيم ٠ وتدل موضوعاتها على أنـه وضعها زمن الملك الظاهر بيبرس بعد أن حرّم هذا شرب الخمر وتناوُل الحشيشة وعاقب عليهما بالقتل والصلب ٠ وهي عقوبة تجاوزت الحدّ الشرعي المعروف ٠

طيف الخيال :

تتلخص هذه المسرحية في أن أميراً من أمراء الجند ، اسمه وصال ، يرغب في أن يتزوج امرأة من ذوات الحسب والجمال ٠ ويلجأ الى الخاطبة أم رشيد ، فيفاجأ حين الزفاف بقبح العروس ، وتثور ثائرته ، ويهدد أم رشيد وزوجها بالقتل ، ولكنه يعود فيرى أن ما حصل تكفير عما ارتكبه من المعاصي سابقا ، ويصمم على التوبة والحج ليتطهر من ذنوبه ٠

ويورد ابن دانيال قبل بدء المسرحية مقدمه يمهد بها لها ، تتلخص في أنه جاء من الموصل فوجد أن الخمر والحشيشة وسائر الفواحش قد حرمت وأن ابن الكازروني قد وجد مخمورا فشنق ، وأن صديقه المضيف قد اعتذر عن تقديم الخمر اليه بسبب ذلك وذكر له أن أبا مرة أي ابليس قد مات ودعاه الى رثائه فرثاه بسينية طويلة منها :

مات يا قـوم شـيخنا ابليـس — وخـلا منـه ربعـه المأنـوس
ما لنـا بعد ذلك الشيخ إلْـف — وسـمير ومؤنـس وأنيـس
ما لنا لا نرى فتىً ضاحك السن — وكـلٌ يبـدو لـه تعبيـس

وفي هذه المقدمة نقد واضح لمرسوم الملك الظاهر ، اتخذ شكل الاضحاك والسخرية •

يقدم ابن دانيال تشخصيته الاولى ، وصال ، فيخلع عليه كل أنواع الفساد المعروفة في العصر من مألوفة وشاذة : يفترس أكثر من السبع ، ويشرب أكثر من الرمل ، وانه أظهر من كوكب وأدور من لولب • ويعلق طيف الخيال على ذلك ساخراً (إنّ من يترك تلك الآثار لا يموت) •

ويتداخل الراوية الذي هو أيضا طيف الخيال فيعلق بين الحين والحين . أو يناجي ، أو يقدم الاشخاص ، أو يحدّث خلال تسلسل المشاهد التي يلتقي فيها البطل مع أشخاص آخرين ويتحدث معهم •

ويمزج ابن دانيال بين النثر والشعر في هذه المسرحية • وهذا مقطع صغير منها :

« تلبي أم رشيد نداء طيف الخيال فتأتي ليقول لها :

يقول طيف الخيال : طلبك الامير وصال •

فتقول أم رشيد : ونعم من الامير وصال ، الذي رُبّي في النعيم وفي الدلال ، رحم الله أباه ، ورحم أمّه ومن ربّاه •

فيقول الامير وصال : يا خالتي أم رشيد ، كيف نعم الله عليك ، ولقد كنت ، قسما بالله ، مشتاقا اليك وما طلبتك الا لتزوجيني ، والى غيرك فلا تحوجيني ، وأريد هذه العروس تكون دريّة اللون ، حسنة الكون ، ملفوفة اليدين ، لا رقيقة ، ولا مفرطة في السمن ، أسيلة الخد ، قائمة النهد :

بيضاء مصقولة الخدين ناعمة   كأنها لؤلؤ في الخدر مكنون

حسنٌ جرى قلمُ الباري فأبدعه   خطّا تحار لمرآه الدواوين » •

* * *

ومن الفنون الأدبية التي ظهرت خلال هذه الحقبة :

فــن المقامات الادبيــة

الفضل في ظهور فن المقامات الادبية لمحمد بن محرز الوهراني الدي رحل الى الشرق وزار الشام زمن نور الدين ، ومصر زمن صلاح الدين ، واستقر أخيراً في داريا خطيبا لمسجدها حتى توفي سنة ٥٧٥ هـ • ومناماته مطبوعة[١] •

دكر ابن خلكان ان الوهراني حين جاء الى الشرق شعر أنه ليس من طبقه القاضي الفاضل والعماد الكاتب فعدل عن طريق الجد الى الهزل •

وأهم ما في ماماته المنام الكبير الذي أعجب به ابن خلكان فقال : « لو لم يكن فيها الا المنام الكبير لكفــاه » (وفيات الاعبان ، ج ١ ، ص ٥١٨) •

سلك في هذا المنام مسلك أبي العلاء في رسالة العفران ولكنه كان أبعد عن التكلف وأوضح مقصداً وجمع فيه مثله بين الهزل والجد •

تحيل الوهراني أنه نفخ في الصور وأنّ القيامه قامت وقام العرْض أمام الله وقام هو مسلهم في دلك الهول العظيم واستطاع أن يتعرف على كثيرين مسّن عاصروه وأن يتحدث عما يحاسبون عليه يومئذ ساخرا بهم •

وفي « رقعته » عن مساجد دمشق يتخيل ذهاب مساجد دمشق كلها الى مسجدها الكبير واجتماعها تحت قبته شاكية ، وهناك يتحدّث كل منها عما أصابه من ضياع وإهمال ونهب وخراب وهكذا •

فسنير عليها مسجد دمشق الكبير بالشكوى الى قاضي القضاه ابن أبي عصرون فتشكي اليه حالها ونعاتبه فإن لم يستجب لها فالسلطان أمامها ••• ونقابل القاضي فيغضب من هذه الرقعه وينشتم المسجد الجامع فيرفع هدا أمره الى نور الدين فيلبّيه ويصلح أحوال المساجد وينحّي قاضي القضاة عنــه ويقرأ عليه (ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود) • والسلام ••

---

(١) ترجم له كثيرون • منهم : ابن خلكان في وفيات الاعيان ١ : ٥١٨ • والزركلي في الاعلام ج٧ : ٢٤١ •

النقد على لسان المساجد جيد والاسلوب طريف وهذا الهزل الساخر اشد تأثيراً وفتكاً من الجد . وهو نقد اجتماعي يوجه به صاحبه ضد عامل من أكبر عمال الدولة . وقد سار على غرار الوهراني في هذا النقد الشاعر الدمشقي ابن عنين في « مقراض الاعراض » . والحق أن الوهراني فتح شيئاً جديداً في النثر العربي . وقد قدم الدكتور عبد العزيز الأهواني لكتاب « منامات الوهراني » بمقدمة مفيدة يجدر الرجوع اليها كما تحدث عنه الدكتور صلاح الدين المنجد في مجلة المجمع العلمي العربي المجلد الاربعين ج ١ ، ص ٢٤٣ حديثاً قيماً نحسن مطالعته .

ومن حسنات الوهراني أنه تجنّب الصناعة في كتابته .

مميّزات النثر

كان الادب الذي قيل في الحروب الصليبية يمتاز بأمرين : القوة والصدق ، وهو بذلك يستثير الاعجاب .

فقد عبّر عن عواطف العامة والخاصة ، ورسم للقادة خططهم وصوّر الآمال والآلام وعبر عن الرأي العام الإسلامي في عصره . ولم تكن الزينة أهمّ ما في هذا الادب ، كان الأهم منها قدرته على الايحاء والتأثير ، وتصوير الوقائع والتغني بالبطولة والاعجاب بالقوة والشعور بها ، وإلهاب العواطف ضد الاعداء ، وتخفيف حدة الهزيمة حين وقوعها ، وبعث الامل وطرد القنوط ، واذاعة الفرح والبشرى حين النصر وقذف الحسرة في قلوب الاعداء .

وقد ساير الادب الاحداث منذ نجاح الحملة الصليبية الاولى في الاستيلاء على الساحل فاستثار الهمم وصور أبعاد المحنة وابكى القلوب .

ثم سار مع الابطال عماد الدين ونور الدين [illegible]
والاشرف خليل يفرح للانتصارات ويواسي في النكبات ويتغنى بالانتصارات [illegible]
ذلك كله مضطرم العاطفة عميق الحس . وكان الشعر [illegible] أمام [illegible]

وعلى ملإٍ من الناس • ويذاع في المحافل ، أما النثر فلم يكن يكتب للناس جميعهم وانما كان يكتب لخاصة الخاصة من طبقة الحكام فقد كان الكتاب مشاركين في تدبير الدولة والاعداد للحرب فاستطاعوا أن يطّلعوا على ما لم يطّلع عليه غيرهم وأن يصفوه ، ولكن دائرة ذيوع أدبهم كانت محدودة •

كان الشعر يقوم مقام الصحف اليومية في أيامنا • أما النثر فكان يقوم مقام الوثائق والتقارير الرسمية السياسية والحربية التي يرسلها الحكام والقواد الى الخليفة أو غيره من أولي الشأن •

ولما كان هذا النثر قد كتب للخاصة فانه كان من حيث الاسلوب أعقد من الشعر في كثير من الاحيان • ولقد أصبح تكلف الاسلوب عاده لدى كتّاب الدواوين حتى إن التاريخ نفسه لم يسلم حين يكتبه أحد هؤلاء من تعقيد الاسلوب • كما رأينا في كتابي العماد الاصفهاني : « الفيح القسي في الفتح القدسي » و « البرق الشامي » • وقد رأينا كيف نقد أسلوبهما ابن شامة وخلّص أسلوبه مما فيهما من الصناعة المملّة •

وقد ألفت في هذه الحقبة كتب كثيرة مختلفة الاساليب في عدة موضوعات ، لتذكّر الأمة بمجدها وتستثير هممها وتجعلها تتلمس مواطن القوة من نفسها لتوجهها ضد أعدائها • ومنها كتب التاريخ ، والشيم والمناقب ، وفضائل البلدان ، وكتب الجهاد والفروسية • وشاركت الخطابة في تكملة وعيها وتدعيم ارادتها وتنظيم قوتها وتحسين اعدادها وتمتين تعلقها بالاهداف السامية التي تؤمن بها •

وقد فعلت هذه الكتب في النفوس ، معتمدة على القرآن والحديث والتاريخ ، ما تحاول أن تفعله الصحافة والاذاعة اليوم ، في حروبنا ضد أعدائنا • وقد استطاعت هذه الكتب أن تحمل المسلمين على الصبر حتى النصر • وقد عرف السلاطين المخلصون الواعون للكتابة حقّها فقال صلاح الدين ، على سبيل المثال ، لقوّاده : « لا تظنّوا أني ملكت البلاد بسيوفكم ، بل بقلم القاضي الفاضل » •

« مرآة الزمان ٨ : ٤٧٢ »

كانت ثقافة العصر دينية ، وكانت منصرفة في أغلبها عن الفلسفة ولذلك لم

يظهر غير الأثر الديني في أدب هذا العصر الا قليلا ٠ ولم يستطع الادباء أن يفعلوا كما فعل أبو تمام من حيث تحويله عناصر ثقافته الى فن شعري مستساغ ٠

وقد أضفى البديع على الشعر والنثر في هذه الحقبة طابع الفن المقصود ، وأساء الى معاني الادب في هذه الحقبة أحيانا فجعلها غامضة ٠

ويظهر أن بساطة المعاني وهدوء العاطفة هما اللذان أتاحا للكاتب أن يهتم بالصناعة البديعية ٠ فقد رأينا القاضي الفاضل نفسه حين تشغل فكره بالأمور التي يهمل الصناعة اهمالا يكاد يكون كلياً ولا يورد منها الا ما يأتيه عفو الخاطر ٠ فالقاضي الفاضل هو الذي أمسك صلاح الدين عن الانهيار ٠ ولو انهار صلاح الدين لما أفادت تلك السيوف والرماح ٠ لقد كان القاضي الفاضل مقيماً غالباً في مصر يباشر أمورها ويرسل الى صلاح الدين بما يجدّ فيها وينصح ويحذّر ويبشّر وينبّت ويبصّر ٠ وكان صلاح الدين يستمع الى قوله الذي يظهر عليه دائما نبرة الاخلاص والصدق ٠

فلا يجوز لنا أن نتهم الادب في تلك الحقبة بانه لم يؤد مهمته ، ولكن الادباء كلهم لا يمكن أن يكونوا القاضي الفاضل في جميع لحظاتهم ، كما أن القاضي الفاضل نفسه لا يمكن أن يكون دائما على مستواه نفســه في بعض لحظاته ٠

وقد كسبت الأمه الحرب على أعدائها بالسلاحين المادي والمعنوي ٠

لقد كان الاسلوب في الدواوين عبد الصناعة البيانية والبديعية ، ولكنـنـا نستشف من بين ألفاظه وتعابيره مشاعر مكبوتة تريد لنفسها الانطلاق ، فاذا تركنا الجوّ الديواني المقيّد الى الجو الشعبي ٠ ظهر لنا أدب شعبي قصصي ووعظي جديد بعيد عن القصور والدواوين استمدّ وجوده من الشعب الذى أقبل عليه لانه منه وإليه واستطاع أن يتخلّى عن التصنع في الاسلوب الذي عجز بعض كتاب الدواوين عن التخلي عنه ٠ ولكنه قارب العامة في سهولة ألفاظه ووقوع بعض الخطأ النحوي فيه في أواخر العهـد الايوبي ، وصـار أقرب اليها في العهد المملوكي الاول ، وأشد قرباً في العهد المملوكي الثاني ٠

وظهر لنا كذلك فن المقامات الادبية على يد الخطيب الوهراني ذي الاسلوب الحر ، وذلك في أواخر العهد الزنكي .

خصائص الكتـابة في هـذه الحقبة :

كان التطويل من سمات كتّاب هذا العصر وقد أخذه عليهم أبو شامة صاحب كتاب الروضتين الذي رأى أن البلاغة الايجاز كما فهمها العرب الأقدمون .

وكان من سماته ولا سيما في فن الرسائل الاكثار من عبارات المديح والإطراء والذلة والخضوع مثل : « الخادم يقبل الارض بين يدي المولى ، أو المملوك يرى كذا أو الخادم يقول كذا » .

ومثله ألقاب الفخامة التي كانوا يطلقونها على الملوك فيقولون : الملك المرابط معزّ الإسلام مذلّ الشـرك محطّم الطغيان ناصر التوحيـد سيف الله حامي الملّة ... الخ .

وقد أكثر الناس من الاسماء التي تضاف الى الدين مثل نور الدين وشمس الدين وعزّ الدين ... الخ .

وأطلق على العلماء والشعراء ألقاب تضاف الى الدين أو الى الاسلام مثل : حجة الاسلام أو الدين وضيائه وتاجه وسراجه وجماله وشرفه ...

وأطلق على القواد ألقاب مناسبة تضاف كذلك الى الاسلام أو الدين مثل : سيف الاسلام وحسامه وركنه وسهمه ودرعه .

وكانت الكتابة الديوانية تتفاوت قوة وضعفاً وحرية في الاسلوب وتكلفاً بحسب الموضوع الذي يعالجه وبحسب الكاتب أو المترجم .

وكان همّ الكتّاب أحياناً أن يظهروا للسلاطين وأولي الامر براعتهم الإنشائية وبلاغتهم لينالوا إعجابهم ويشعروهم بمكانتهم في دولتهم وأنهـم لا يمكنهم الاستغناء عنهم .

ويمكن أن نميز في هذه الحقبة ثلاث طرق . طريقة القاضي الفاضل المعروفة

في الصناعة التي يمثلها الخطيب الحصكفي في الشام ، وطريقة ابن الأثير المعدلة التي سار عليها في مصر أكثر الكتّاب باستثناء القاضي الفاضل وابن سناء الملك . وطريقة ابن ظفر الصقلّي في الشام وقد اتبعها كثيرون . وهي أقل صناعة وأكثر اعتماداً على التصوير وعلى ايراد الشعر المستشهد به من نظم الكاتب وغيره .

لم يأت القاضي الفاضل بطريقة جديدة في الكتابة ، وانما سار على طريقة الحريري التي كانت معتمدة في الدولة الفاطمية التي نشأ في ظلها . وانما نسبت هذه الطريقة إليه لمكانته في الدولة حينئذ ولمبالغته في التكلّف البياني والزخرفة البديعية ولكثرة ما كتب في الموضوعات السلطانية وغيرها . وقد قلّده كثير من الكتّاب فشملت الصناعة البلاغية أكثر ما يكتب حتى القصص[1] والمناشير الموجهة الى العامة ، وبعض عقود الزواج الخاصة بالعظماء وأولادهم . والإجازات العلمية التي تمنح للطلبة .

وكان السجع هو الفن البديعي السائد ولكن بعض الأدباء نقدوا المبالغة فيه ومنهم السبكي الذى أورد بعض النوادر عن النحويين المتقعّرين المتكلفين . وذكر ابن حجة افتتان الناس بالتورية وأنها تسمى بأسماء كثيرة كالايهام والتوجيه والتخيير ولكن اسم التورية أحسنها لأنه يدل على معناها ، وأن القاضي الفاضل هو الذي عصر لأهل عصره سلافة التورية وان القاضي ابن سناء الملك تابعه فيها .

ويظهر ان صلاح الدين الصفدي كان أكثر ولعاً بالجناس ولم يرض ذلك أستاذه ابن نباتة الذي حرّف اسم كتابه من «جنان الجناس» الى «جنان الخناس» نقدا له وتعبيرا عن الاستياء منه .

واهتم أدباء العصر بالاقتباس من القرآن والحديث وتضمين الشعر القديم والمثل السائر والنوادر وقصص العرب وحكاياتهم وأخبارهم . وأحيانا كانوا يوردون الكلام كما هو ، وأحيانا كانوا يكتفون بالإشارة إليه .

---

(١) المراد بالقصص في لغة ذلك العصر العرائض .

من الموسوعات(1)

كتاب «صبح الاعشى للقلقشندي»

أ ... عصر القلقشندي والموسوعات :

كانت مصر والشام يستقطبان معا الحركة العلميه الادبية فلما خربت ديار الشام في غزوة تيمور لنك التتارية الثانية تركز الاستقطاب في مصر واصبح هم العلماء انقاذ الثقافة العربية الاسلامية عامدين الى ذلك أو متجهين بما تحت الشعور •
وكان من محاولات الانقاذ تأليف كتب كبيرة أو دوائر معارف في شتى العلوم وكان لها دور الحفظ الثقافي والإحياء العلمي الادبي •

وكان هنالك حافز آخر لتأليف الموسوعات وهو حاجة كتّاب الدواوين الى ثقافة عامة واسعة ليلمّوا بكل شيء يتعرضون الى الكتابة فيه ، ولرفع مستوى الديوان الفكري فقد كان هذا الديوان الدماغ المفكر للحكم المملوكي كما كان كذلك لجميع أدوار الحكم قبله ، ولكن جهل الملوك المماليك جعل قيمته فى عهدهم أكبر •

وكان منتهى أمل المثقفين أن يعملوا في هذا الديوان أو في بعض المناصب الثانية أو الدينية الكبيرة كالقضاء والخطابة والتدريس •

ولقد نجح القطران مصر والشام في معركتهما الثقافية نجاحهما في معركتهما الحربية ، وزاد التأليف فيهما اتقانا وحسنا بأن أ... ج حسَن التنظيم والترتيب والتبويب موحّد الموضوع وتخلص من الفوضى والاستطراد اللذين كانا يسودانه زمن الجاحظ وابن قتيبة والمبرد ومن بعدهم ، وعني فيه بالاختصاص بالموضوع والالتزام به دون الاستطراد الى غيره ، وتقاسم العلماء التأليف في الثقافة الاسلامية دون سابق اتفاق •

فبعضهم انصرف الى التأليف في الثقافة الادبية كالنويري في كتابه « نهاية

---

(1) نرجح أن يستبدل بكلمه « الموسوعات » كلمة « المعلمات » او « دوائر المعارف » •

الأرب » وبعضهم ألّف موسوعه في الثقافة الجغرافية كابن فضل الله العمري في كتابه « المسالك والممالك » .

وبعضهم ألّف موسوعه في الثقافة اللغويه كابن منظور في معجمه الفخم « لسان العرب » .

ووجدنا لزاما علينا أن نقف وقفة مطوّلة أمام هذه الموسوعة الديوانية القيمة المسماة « صبح الأعشى » للقلقشندي .

لقد كان هؤلاء المؤلفون يمثلون ضمير الأمة الحي المستيقظ لحفظ تراثها الخالد . وهم يمثلون في الوقت نفسه يقظة الفكر العربي غير الاعجمي الذي صُرف عن السياسه والحرب مضطراً فانصرف الى العلم والادب يبدع فيهما ما شاء له الابداع . وكان موقف هؤلاء العلماء الادباء أدعى الى التقدير في نظرنا من مواقف رجال السياسة والحرب على جلالها وعظيم فائدتها واعترافنا بفضلها ، ذلك لأنهم استطاعوا أن يحفظوا الفكر العربي من الفساد والانحراف وأن يقوموا بدورهم في التوعية والتوجيه المعنوي خير قيام .

ولكننا نحبّ ان ننبّه الى أنّ التأليف في هذه الموسوعات اذا كان قد حافظ على وحدة الموضوع فإنّه لم يسلم من شيء آخر هو مزج العلم بالادب وبالاخبار الدينية فترى المؤلف اذا أراد مثلا أن يتحدث في النجوم ذكر ما جاء فيها من القرآن والاحاديث وما جاء فيها من الشعر والحكم والأمثال والآثار ، ثم ما قاله العلماء مورداً رأيه الخاص أو مكتفياً بايراد آراء غيره ومقدّماً بعض هذه العناصر على بعض ومؤخّرا بعضها مع المحافظة على خطة يسلكها . وقد يكون لهذه الطريقة فائدتها في دفع الملل ، وجمالها في مزج جيدّ العلم بذوق الأدب ورونقه .

ونحبّ أن نوضح ما نريد من تحوّل التأليف من الاستطراد والفوضى الى التنظيم والترتيب فقد كانت الثقافة قبل العصر المملوكي ثقافة اسلامية تكونت من مزيج من الثقافة العربية الدينية المتمثلة بعلوم اللغة العربية والقرآن والحديث النبوي وأمثال العرب وحكمها وشعرها وخطبها وسائر نثرها وعلومها وتجاربها ،

ومن ثقافات أخرى كالفارسة واليونانية والهندية ، وثقافة الأديان الاخرى ولا سيما اليهودية والمسيحية .

وقد اقتبس العرب هذه الثقافات عن طريق الاحتكاك بأهلها والتفاعل معهم والترجمة من كتبهم ووجود مراكز تقافيه لبعضها كمدارس حرّان والاسكندرية وجنديسابور بالنسبة الى الثقافة اليونانيه ، واتخاذ وزراء أو قوّاد من بعض الاقوام الاخرى كالفرس والترك ، والمناقشات الدينية المستمرة مع أهل الذمة من يهود ونصارى وصابئة ، والاطلاع على كتبهم الدينية . وقد مثّل هذه الثقافة المختلطة الجاحظ في كتابيه « البيان والتبيين » و « الحيوان » ، وابن قتيبة في كتابيه « عيون الاخبار ـ وأدب الكاتب » وأبو الفرج الاصبهاني في كتابه العظيم « الاغاني » ، وابن سعيد في كتابيه « المغرب في حلى المغرب ـ والمشرق في حلى المشرق » .

وكان الأدب في ظل هذه الثقافات مفهوم فضفاض اتّسع للصيد وألعاب الفروسية ولعب الشطرنج والضرب على العود وكان الاديب هو الذي يأخذ من كل فن بطرف ، ولذلك نرى الحسن بن سهل أحد وزراء المأمون العباسي يقول في عهد مبكّر : « الآداب عشره : ثلاثه شهرجانيه ، وثلاثة أنوشروانيه ، وثلاثة عربيه ، وواحدة أربت عليهن ، فأما الشهرجانية ، فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج ، وأما الفارسية فالطب والهندسه والفروسية . وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس . وأما الواحده التي أربت عليهن فسقطّعات الحديث والسمر وما يتلقّاه الناس في المجالس » (عن أحمد أمين ـ ضحى الاسلام ، ج ١ ص ١٦٩ ، ١٧٠ ، وعن القلقشندي لعبد اللطيف حمزة ، المقدمه) .

وربما كان يقصد بالشهرجانيه « المدنيّة » نسبة الى شهر في الفارسية بمعنى مدينة . وهذه الصورة من فهم الادب فهماً واسعاً هي التي جعلت المؤلفين الاوائل الذين ذكرناهم (الجاحظ ، وابن قتيبه ، والمبرّد) يجمعون بين العلم والادب وينتقلون من الشعر الى الحكمة الى النادرة الى التاريخ الى الخطبة ، الى الفلسفة الى قصص البخل ، وقد سار المألف على هذا الغرار كما يقول الدكتور عبد اللطيف

حمزة في كتابه عن صبح الاعشى للقلقشندي حتى غزو التتار بغداد • وحينئذ بدأ التأليف المنهجي القائم على التنظيم الدقيق والتبويب والتقيد بالموضوع •

ولكننا لا نوافق الدكتور المرحوم عبد اللطيف حمزه على حكمه بأن هذه الطريقة مصرية ترتبط بجذور التاريخ المصري القديم قبل الاسلام ، وأن الطريقة الفوضوية التي كانت قبلها طريقة عراقية فهذا التفريق الإقليمي لبس حقيقة واقعة في التراث العربي الاسلامي • والذي أدّى في رأبنا الى وجود الطريقة الجديدة هو وقوع الاحداث الجديدة في العالم العربي ، ومنطق التطور الطبيعي الذي يؤدي الى تحسن التأليف وفق منطق التجربة والخطأ والتصحيح ، ودليل ذلك أنّ منطق الترتيب والتبويب قد سبق العهد المملوكي بزمن طويل في مجالات التأليف في العلوم المترجمة والفلسفة وفي علوم اللغة العربية كالنحو والبلاغة واللغة وفي العلوم الدينية كالفقه والتفسير والحديث •

ومنطق ارجاع التجديد في أسلوب التأليف الى قدماء المصريين يحرم المصريين العرب وغيرهم في العهد المملوكي من نعمة العقل والتفكير والاستفادة من التجربة ويرجع الفضل الى قدماء المصريين تجنيّاً وعصبية إقليمية •

وقد أمعنت الطريقة الجديدة في التقسيم المنطقي فقسمت الموضوع الى أبواب والابواب الى فصول والفصول الى أطراف والاطراف الى مذاهب والمذاهب الى وجوه •

ويقول المرحوم الدكتور حمزة نفسه بأن هذا يشابه ما جرى قبل في اللغة من جعل الباب لأواخر الكلم والفصل لأوائله في ترتيب المعاجم اللغوية •

فكأنه الدكتور حمزة يردّ على نفسه ويعتبر أن هذا التطور التأليفي كان ضمن الإطار العربي العام ولم يخرج عليه •

ترجمة القلقشندي :

كان أوسع المؤلفين ترجمة له السخاوي ، على أن ترجمته عنده كانت مقتضبة لا دقة فيها ولا توسع • وهذه ترجمته له كلها : « هو أحمد بن علي بن أحمد

ابن عبد الله الشهاب ابن الجمال أبي اليمن الفزاري القلقشندي ثم القاهرى الشافعي والد النجم الذي سيأتي ذكره (في كتاب السخاوى طبعا) » •

« ولد سنة ٧٥٦ هـ ، واشتغل بالفقه وغيره وسمع من ابن الشيخة ، ومن في وقته ، وكان أحد الفضلاء ، ممن برع في الفقه والادب وكتب في الانشاء وناب في الحكم وشرح قطعا من جامع المختصرات ، بل برع في نظمه كذلك ، وعمل صبح الاعشى في قوانين الانشاء في أربعة مجلدات جمع فيه فأوعى ، وكان يستحضر أكثر ذلك ، مع جامع المختصرات والحاوي وكتاب في أنساب العرب ، وهو ممن نظم سيرة المؤيد لابن ناهض ، مع تواضع ومروءة •

« مات يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة احدى وعشرين وثمانمائة وله خمس وستون سنة • ذكره شيخنا (أي ابن حجر) في معجمه والمقريزي والعيني وآخرون • وسمى العيني والمقريزي والده عبد الله وهو وهْم » •

وقال آخرون إنّه برع في العربية ، وعرف الفرائض وشارك في الفقه وسمع الحديث ونظم ونثر وأرّخوا وفاته بليلة السبت عاشر جمادى الثانية » • واختلف من ترجموا له مع السخاوي في اسم أبيه فقالوا إنه عبد الله • وهو ينتمي الى بني بدر من فزارة من قيس عيلان ، القبيلة العربية المشهورة ، وكان بنو فزارة قد نزلوا القليوبية وغلبوا عليها منذ الفتح الاسلامي • وكان لبني بدر هؤلاء الغلبة على سائر بني قومهم ، ومنهم بنو مازن بن فزارة ، وعلى جيرانهم •

بدأ أبو العباس تعليمه في بلده ثم انتقل الى الاسكندرية وتلقى العلم على مشهوري علمائها واشتغل بفنون العربية والأدب وقد أجازه فيها سراج الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن المشهور بابن الملقّن بالفتيا والتدريس على مذهب الامام الشافعي رضي الله عنه وأجاز له أن يروي عنه كل تأليف له في الفقه والحديث وأن يروي كل ما جازت له روايته كالكتب الصحاح الستة ومسند الشافعي ومسند أحمد بن حنبل وغير ذلك وكانت سنه إذ ذاك احدى وعشرين سنه •

ج ـ آثـــاره :

هذا وقد عرض كثير من تلاميذ الفلقشندي عليه ما حفظوه من الكتب وغيرها في الفقه والأصول وعلوم العربية فأجازهم بما حفظوه منها .

عمل الفلقشندي ، بعد أن أجازه شيخه ، في التدريس ، وألّف في الفقه وكان يميل فيه الى الاجتهاد ويطمح الى القضاء . وقد وضع في الفقه الكتب التالية :

١ ـ شرح جامع المختصرات في فروع الشافعية المنسوب الى كمال الدين أحمد بن عمر بن أحمد بن مهدي المدلجي (ت ٧٥٧ هـ) .

٢ ـ شرح الحاوي الصغير في الفروع للقزويني نجم الدين بن عبد الغفار ابن عبــد الكريم الشافعي (ت ٦٦٥ هـ) . وألّف في هــذه الفترة في الادب كتباً منها :

١) حلية الفضل والكرم في المفاضلة بين السيف والقلم ، ألّفه للمقرّ الزيني أبي يزيد الداودار الظاهري سنة ٧٩٤ هـ وكان الظاهر برقوق في هذه السنة قد ولّى أبا يزيد وظيفة الداودارية .

٢) شرحا على قصيدة « بانت سعاد » لكعب بن زهير ، وقد قال فيــه : « قد وضعت على هذه القصيدة شرحا بديعا سميته (كنه المراد في شرح بانت سعاد) فتح الله بمعان لم أقف عليها في شرح لها من قبل » .

وقد نبغ في الفقه والادب ولفت اليه الانظار فاختير لديوان الانشاء سنة ٧٩١ هـ أي في زمن الظاهر برقوق مؤسس الدولة البرجية . وكانت سنه حينئذ خمسا وثلاثين سنة .

وألّف في هذه المرحلة :

١ ـ مقامة في تقريظ القاضي بدر الدين بن القاضي علاء الدين بن القاضي محيي الدين بن فضل الله . رئيس ديوان الانشاء حينئذ باسم « الكواكب الدرية في المناقب البدرية » وهي في التعريف بكتابة الانشاء والثناء عليها بأنها الحرفة التي لا يليق بطالب العلم غيرها وذكر فيها كثيرا من أصول صناعة الكتابة .

وكانت موجزة جدا فاحتاج الى شرحها في كتابه « صبح الاعشى » أو طلب منه ذلك •

٢ ـ « صبح الاعشى » الذي استمر في تأليفه زهاء عشرين سنه وانتهى منه في شوال سنة ٨١٤ هـ •

ثم رأى أنّ من الضروري للكاتب معرفه أنساب العرب فألف كتابين في ذلك هما التاليـان :

٣ ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب وقد أهداه الى أبي الحسن يوسف الأموي • وهو بمثابة معجم في الانساب رتبت فيه القبائل والبطون على حروف الهجاء • وقد حققه في العراق الشيخ علي الخاقاني (صاحب البيان) عام ١٩٥٨ مع مقدمة مسهبة في الانساب عند العرب • وقام بتحقيقه في مصر الاستاذ ابراهيم الابياري ونشر عام ١٣٣٢ هـ بعناية سليمان الدخيل (صاحب الرياض) في بغداد •

ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية ، وثانيه في مكتبة الدولة ببرلين وثالثة في المتحف البريطاني ورابعة في النجف الاشرف • وخامسة في مكتبة الاوقاف العامة ببغداد • وسادسة في سورية ، وسابعة في صوفيا • وقد أكمل النهاية وزاد عليها العلامة السويدي عام ١٢٢٩ هـ في كتابه « سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب » وهو مطبوع على الحجر ببغداد • وقد أثبت الابياري ان الكتاب لأبي العباس وليس لابنه محمد المشهور بالنجم •

جعل المؤلف كتابه ثلاثة أقسام : مقدمة ومقصداً وخاتمة • ذكر في المقدمة ما يحتاج اليه في علم الانساب ومعرفة القبائل وجعلها خمسة فصول : الاول في علم الانساب وفائدته وبيان الحاجة اليه ، والثاني في بيان من يقع عليه اسم العرب وذكر أنواعهم ، والثالث في معرفة طبقات الانساب ، والرابع في ذكر مساكن العرب القديمة التي منها درجوا الى سائر الاقطار ، والخامس في ذكر أمور يحتاج اليها الناظر في علم الانساب• وجعل المقصد فصلين : الاول في دكر عمود النسب النبوي ، وما يتفرّع عنه من الانساب والثاني في ذكر تفاصيل القبائل مرتبة على حروف المعجم • وتتألف الخاتمة من خمسة فصول :

الاول في ديانات العرب قبل الاسلام • والثاني في المفاخرات بين قبائلهم • والثالث في الحروب بين العرب في الجاهلية وأوائل الاسلام • والرابع في نيران العرب في الجاهلية • والخامس في أسواق العرب قبل الاسلام •

٤ ــ قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان وقد أهداه الى ابي المحاسن محمد الجهني الشافعي المؤيدي صاحب ديوان الانشاء حينئذ • ذكر فيه أنه استدراك على كتابه السابق « النهاية » بالحذف والاضافة والتعديل وانتهى من تأليفه سنة ٨١٩ هـ أي قبل وفاته بعامين • وقد ألفه بعد « صبح الاعشى » وذكر الأبياري أنّه أحال فيه على الصبح في موضعين مما يبرهن على أنّه ألّفه بعده (مقدمة تحقيق نهاية الأرب للأبياري ص ٤) • وقد نسبه قلائد الجمان الى والد القلقشندي ولكنه له وقد رتبه على حروف المعجم كالنهاية • توجد منه نسخة في دار الكتب المصرية ونسخة ثانية في النجف الاشرف في خزانة الشيخ حسن الدخيلي •

٥ ــ اختصّر المؤلف صبح الاعشى في كتابه « ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر » علما منه بأنه ليس لبعض الناس صبر على قراءة الموسوعة ، وطبع المختصر في مطبعة الواعظ بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ •

٦ ــ للقلقشندي رسائل تزيد على المئة وقد أودعها « صبح الاعشى » • هذا وقد اشتهر القلقشندي بكتابه « صبح الاعشى » دون غيره وهو أهم منها جميعا ومن بينها النهاية •

ولذلك لقي اهتماما مـن دار الكتب المصـرية فأصدرت الجـزء الاول منه في أوائل القرن العشرين ولمّا رأت اعجاب الناس به واقبالهم عليه أتمّت اصداره وفق أصول التحقيق الحديثة فخدمت الثقافة العربية خدمة كبيرة • ووجدت وزارة الثقافة والارشاد المصرية أنّ من الضروري تعريف المثقفين ودارسي العربية به فكلّفت المرحوم الدكتور عبد اللطيف حمزة بالتعريف بهذه الموسوعة في كتاب نشرته له باسم « القلقشندي في كتابه ، صبح الاعشى » •

تمتاز طبعة دار الكتب المصرية بالتقيّد بأصول التحقيق الحديث ، ووضع

علامة بجانب العبارات التي يمكن تصحيحها تدل على التوقف وترك فهمها لاجتهاد القارىء . والدلالة على الكتب التي رجع اليها في كل إصلاح أدخله المحققون ، وتقييد أكثر الكلمات بالشكل بالاعتماد على معاجم اللغة المشهورة ، ووضع علامات الترقيم بين الجمل وأجزاء العبارات لتسهيل الفهم على القارىء ، وتمييز الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وأمثال العرب ، وحكمها ، بعلامات فارقة ، وشرح ما جاء فيه من الغريب في الحواشي .

صدر الكتاب في طبعة دار الكتب المصرية في زهاء خمسمائة وستة آلاف صفحة وتقع هذه الصفحات في أربعة عشر مجلدا .

مصادر القلقشندي في تأليف ((صبح الاعشى)) :

ذكر الدكتور حمزة في كتابه عن القلقشندي (ص ٥٣ ، ٥٤) أن المصادر التي رجع اليها القلقشندي لا تقل عن مئة وقد تزيد ، وأورد منها على سبيل المثال الكتب التالية :

- ذخيرة الكتّاب لابن حاجب النعمان .
- حسن التوسل في صناعة الترسل لشهاب الدين محمود الحلبي .
- المثل السائر لابن الأثير .
- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري .
- التذكرة لابي الفضل الصولي .
- كتاب الأم للشافعي .
- العلم والدواة لمحمد بن علي .
- الملل والنحل للشهرستاني .
- قوانين الدواوين لابن مماتي .
- العقد الفريد لابن عبد ربه .
- حياة الحيوان للدميري .
- أدب الكاتب لابن قتيبة .
- صناعة الكتابة لابي جعفر النحاس .

- كنز الكتّاب لكتاجم .
- البيان والتبيين للجاحظ .
- الاوائل لابي هلال العسكري .
- الأحكام السلطانية للماوردي .
- تشريف الايام بسيرة الامام الملك المنصور . لمحيى الدين بن عبد الظاهر .
- التعريف بالمصطلح النريف لابن فضل الله العمري .
- تقويم البلدان لابي الفداء صاحب حماة .
- تثقيف التعريف لابن ناظر الجيش .
- المسالك والممالك لابن فضل الله العمري .
- عجائب المخلوقات لابن الاثير .
- فضائل العرب لابن أبي عبيدة .
- نزهة المشتاق للإدريسي .
- معالم الكتابة لابن شيث .

وذكر الدكتور حمزة أن هناك كتباً أخرى لم يذكر القلقشندي أسماء مؤلفيها . وأورد منها على سبيل المثال :

الروض المعطار ، موّاد البيان ، القانون ، تاريخ النيل ، كتاب الاطوال ، رسم المعمورة ، تاريخ صفد ، الهناء الدائم بمولد ابي القاسم ، الدرّ الملتقط .

كثرة الاهتمام بصبح الاعشى :

اهتم بدراسة صبح الاعشى كثير من المستشرقين فقد نشر الاستاذ سوفير في مارسيليا عام ١٨٨٦ ــ ١٨٨٧ م (ملخصات من كتاب صبح الاعشى) .

ونشر الاستاذ فيستنفلد (جغرافية مصر للقلقشندي) في جوتنجين عام ١٨٧٩ ، وكتب الاستاذ مارتن هارتمان بحثاً عن (الفصول المتعلقة بالجغرافية الإداريه من صبح الاعشى) تحقيقاً ومتناً وترجمة في المجلة الآسيوية ٥٠ ــ ١٩١٦ .

وكتب الأستاذ كانار عن (الصلات السياسية بين بيزنطة ومصر في صبح الاعشى) في مؤتمر المستشرفين (١٩) لعام ١٩٣٥ م . وطبع من صبح الاعشى

ثلاثة أجزاء عام ١٩١٣ في كلية آكسفورد عن النسخة الخطية الموجودة في خزانتها ، ونشرت هذه الاجزاء في مجلد واحد بدار الكتب ببولاق عام ١٩٢٣ هـ •

وكتب عنه المستشرق كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان القاهرة ١٩٦٣ ، ج١ ومما قاله في ص ٤١٦ — ٤١٧) ما يلي :

« تناول جميع المعارف، التي يحتاج إليها الكاتب المثالي ابتداء من التوجيهات الفنية بالكلام عن المواد والقلم والورق والخط الى المعلومات الواسعة في محيط الجغرافيا والتاريخ والادب والبلاغة وهو يقدم وصفاً لنواحي مصر والشام ، بل ولجميع الدول التي لها أدنى علاقة بمصر مما يجعل من كتابه مصدراً أساسيا بالنسبة للتاريخ والإدارة والحياة الاجتماعية للعالم الاسلامي والاقطار المتصلة به في أوائل القرن الخامس عشر •

وممن كتب عن القلقشندي من المؤلفين العرب : الاستاذ إبراهيم الابياري في مقدمة تحقيقه لكتاب « نهاية الأرب في أنساب العرب » وتحدث في هذه المقدمة عن كتبه ومنها « صبح الاعشى » •

وممن كتب عنه أيضاً الاستاذ صباح محمود الحلي في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (المجلد السابع والاربعون ج٤ ، ص ٧٨٨) وقد تناول في مقاله موضوع « المناخ والقلقشندي » وعنه أخذنا ما كتبه المستشرقون عن القلقشندي •

طبعت دار الكتب « صبح الاعشى » كاملاً ثم أعادت طبعه مصورا •

ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية ونسخة ثانية في مكتبة زكي باشا ، كما يذكر جرجي زيدان •

لم نهتم به نحن ؟ :

تمثل هذه الموسوعة جانبا من طاقتنا الروحية المستمدة من تراثنا الحضاري الذي يضم مثلنا العليا والذي نستطيع إذا ترجمناه الى عمل منسجم مع الظروف الحاضرة موجه الى أهدافنا القومية المحددة أن نحقق به النصر • فهي تحمل

ثمرات يانعة من الفكر العربي في مدى ثمّف وثمانية قرون بدءاً من الحقبة النبوية حتى أيام المؤلف الأخيرة ، ثمرات في فنون الإدارة والحكم وفي فنون النثر العربي الرسمي والطليق ، منظمة مبوّبة وفق الاغراض المتنوعة التي تشتمل عليها ؛ وهي تعتبر من أجمع الموسوعات الأدبية التاريخية الاجتماعية منذ فجر التأليف حتى نهاية الخمس الاول من القرن التاسع الهجري .

وقد عدّه الشيخ محمد عبد الرسول في مقدّمته لطبعة دار الكتب أنفس كتاب أُلّف في اللغة العربية وآدابها .

موضوعاته واهميته :

لقد بيّن القلقشندي فيه كيف كانت حال اللغة العربية قبل الاسلام وكيف انتشرت بعده في أكثر بلاد الدنيا المعروفة في عصر المؤلف بعد أن أصبحت لغة القرآن والدين الاسلامي وانتشرت بانتشارها في بلاد فارس وما وراء النهر وبلاد الروم « الاناضول » وفي مصر وافريقية والمغرب الاقصى وبلاد الاندلس والهند والصين وكثير من بلاد أوربا كصقلية .

وبيّن فيه كيف ازدهرت هذه اللغة زمن بني أمية وبني العباس وغنيت مادتها واتسع مجالها فأصبحت لغة العلوم والحكمة والجدل والمناظرة والتأليف ونظام الملك وسياسة الشعوب ولغة الفلسفة والعلوم العقلية من رياضيات ونجوم وهندسة وطب وكيمياء الى جانب انها لغة الادب والدين وبيّن فيه أطوار الكتابة العربية في شتى البلاد الاسلامية من ارتقاء ثم ضعف ووهن تبعاً لحال اللغة العربية وحال أهلها من الوهن باستيلاء المغيرين عليهم وهم غرباء عنهم وعن العربية .

وبيّن فيه طبقات الكتاب وأهل الادب ، الذين نالوا حظوة لدى الملوك ورعاية واحتراما . وبيّن فيه الخلافة الاسلامية وشروطها ورسومها ومن وليها من الخلفاء الراشدين ومراكز ولاياتهم ، وخلفاء بني أمية بالشام والاندلس ، وخلفاء بني العباس ببغداد ، ومصر ، وخلفاء الفاطميين بمصر ، ومن ادّعوا لانفسهم الخلافة من بقايا الموحّدين في افريقية .

ويبيّن فيه الممالك الاسلامية في المشرق والمغرب وما وصلت اليه من المجد والحضارة وبيّن حدودها وأنظمتها ورسومها وما اشتملت عليه من الفضائل والمحاسن والخواصّ والعجائب • وما فيها من الآثار القديمة ومن تتابع عليها من الملوك في الجاهلية والاسلام •

وشرح فيه النظم الادارية في البلاد الاسلامية ، واهتمّ بجغرافية هذه البلاد ولا سيّما مصر والشام منها ، وبجغرافية البلاد الاوروبية المعروفة حينئذ وغيرها من بلاد الدنيا في إفريقيا وآسيا •

واهتم بخطط هذه البلاد وبنهر النيل بخاصة فتحدّث عمّا يعتريه من زيادة ونقص • واهتمّ بتاريخها وما توالى عليها من أحداث وعُني بمناقب مصر والشام وخواصهما وعجائبهما وآثار مصر القديمة ومن ولي كلاً من القطرين قبل الاسلام وبعده وتحدّث عن شؤونهما العامة قديماً وحديثاً •

وقد استقصى المؤلف في هذه الموسوعة عدة كتب أدبية وعلمية نفيسة وجمع فيها ما تفرّق من معلومات • وعرض لآثار الكتابة الديوانية منذ كتبت الرسائل والوثائق زمن النبي الى عصره فبيّن لنا بذلك أطوارها وأحوالها في العهود المختلفة متناولا ما يقرب من عشرين فناً من الفنون السلطانية مورداً أمثلة عليها من مختلف العصور • ومن هذه الفنون على سبيل المثال :

تحرير الولايات والعهود والمبايعات والأيمان وكتب الأمان ، وعقود الصلح ، وكتب الهدنة والوصايا الدينية والمسامحات والإطلاقات والإقطاعات •

وكانت هذه الموسوعة بذلك كتاب تاريخ وسير وجغرافية ولغة وأدب وأمثال وحكم عربية وفقه وتفسير وحديث وبسط لنظم الحكومات بعامة ونظام حكومة مصر بخاصة •

وجمعت بين الفائدة والمتعة والشمول والدقة والصحة والوضوح ، وتتبّعت كل فن من فنون الكتابة السلطانية في عدة أقاليم • كالعراق والشام ومصر والحجاز والمغرب والأندلس • وكانت كتاب ثقافة عامة وتوعية للكتّاب تعلّمهم أصولا

عامة لا بد منها في جميع فنون الكتابة . واهتمّت برفع مستوى الموظف الثقافي وجعله كفؤاً لعمله جديراً به .

وكانت لنا ذخراً قيماً نهنيء أنفسنا ببقائه وحفظه من الضياع وطبعه ونشره . وكانت شاهداً على ما لصاحبها من فطنة وقدرة وتمكّن من العربية وآدابها وسَعة اطّلاع في ميادين المعارف الأخرى .

وهذا ما جعلها تروج لدى المثقفين منذ حياة المؤلف فقد تسابقوا الى نسخها . وذكر المؤلف ذلك في آخر كتابه وشكر الله عليه .

وقد أثبت القلقشندي بها أنّه من أعظم رجال العهد المملوكي الذين كان لهم دور في حفظ التقافة العربية وإحيائها وبنائها وتوجيهها وكان أحد عظماء العرب الذين صُرفوا عن السياسة والحكم والحرب فانصرفوا الى تشييد بناء الحضارة والعمران بِلَبنات من العلم والادب والفن .

ما حمله على تأليف كتــابه :

ذكر القلقشندي في تقديم الكتاب قيمة اللسان والقلم في الترجمة عمّا في الضمائر ، وشرف الكتابة على سائر الصنائع ومكانة الكتّاب لدى الملوك ، وتقدّم مصر في عصره على سائر الاقطار الاسلامية بحيث أصبحت مقرّ الخلافة وخادمة الحرمين وحاوية القبلتين وغناها بفضلاء الكتاب على غيرها في الحديث والقديم .

نجوم سماء كلّما غاب كوكبٌ بدا كوكبٌ تأوي اليه كواكبُه

ثم ذكر أنّ المؤلفين في هذه الصنعة قد اختلفت مقاصدهم فبعضهم اهتمّ ببيان أصولها وذكر شواهدها ، وبعضهم اهتمّ بذكر المصطلحات وبيان مقاصدها ، وبعضهم اهتمّ بتدوين الرسائل لتكون نماذج لمن بعدهم يسلك سبيلها ، وأنّه لم يؤلّف كتاب جامع شامل لجميع ما يطلب معرفته فيها .

ثم ذكر الدستور الموسوم « بالتعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري — ويقصد بالدستور الكتاب الذي ينص على قواعد هذه الصنعة ، فبيّن أنّه من أنفس الكتب المؤلفة في هذا الموضوع إلاّ أنه أهمل أمورا لا يسوغ تركها

واحتيج الى غيره للاطلاع عليها ومما أهمله هذا الكتاب البطائق ، والملطفات والمطلقات . ثم ذكر دستور ابن ناظر الجيش المسمى « تثقيف التعريف » الذي استدرك ما أنقصه العمري ولكنه أهمل مقاصد لا غنى عنها كالوصايا والاوصاف ومراكز البريد وأبراج الحمام ولم يغن عن سابقه وانفرد كل منهما بمحسنات وقد آنس من نفسه القدرة على استكمال النقص ورأى أنّه يجب ألاّ يكتفي بمعرفة المصطلح وان يكمل ذلك بشرح أصول الصنعة وألاّ يكتفي بالتقليد وأن يضمّ إليه الاجتهاد :

ولم أر في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

ثم ذكر أنّه أنشأ مقامة سنة إحدى وتسعين وسبعمائة حين بدأ العمل في ديوان الإنشاء بيّن فيها ما يجب على صاحب هذه الصنعة وطالبها معرفته من شؤونها ولكنّها كانت لشدّة إيجازها بمثابة الوحي والإشارة فأشار عليه صاحب الديوان حينئذ أن يشرحها بكتاب يستوفي فيه كلّ ما يتعلّق بها فاستجاب له ولكنّ قريحته جمدت في بدء المحاولة ثم أسمحت .

مميزات كتابه في رأيه :

ثم بيّن أنّه استوعب في كتابه من حيث المادة ما ضمّه كتابا التعريف والتثقيف مع إيضاح ما استبهم عندهما ، وضرْب الأمثلة وتسهيل العبارة وطريقة العرض والتأليف ، ومع استكمال النقص في البحوث وتتبّع فرع كل قضية وأصلها واستيفاء كل ما يحتاج اليه الناظر من قضايا الموضوع بحيث يجد جواباً لكلّ سؤال يعترضه ، مضيفاً الى ذلك أحوال الممالك المكاتبة وأقدارها معيّناً قواعدها وطريق الوصول اليها براً وبحراً وانقطاعاً واتصالاً مع ذكر مشاهير بلدانها وضبط أسمائها .

ونرى أنّ المؤلف متواضع فهو يطلب من مطالع كتابه أن يعذره على ما يجده فيه من نقص أو خطأ لأنّ نتائج الأفكار ليس لها حدّ تنتهي اليه ولكل انسان طاقة محدودة ثم يزيد غيره عليها .

وندرك من هذا التقديم سعة اطّلاع المؤلف على الموضوع الذي يؤلف فيه وإلمامه بجوانبه واعترافه بالفضل للذين سبقوه وحسن خلقه وتواضعه العلمي ونستشف انه يتمنع بعقل منظّم يحسن فيه تخطيط ما يريد أن يؤلف فيه ويشرحه ، ثم تتبيّن سهولة أسلوبه ووضوحه برغم استعمال السجع كأهل عصره ، ونرى أنه يحلّي نثره في المقدمة بالشعر يأتي به من محفوظاته المختارة •

ثم ذكر في هذا التقديم أنّه سمّاه « صبح الأعشى » في كتابة الإنشا ولم يقل سبب اختياره لهذا الاسم ولكنه مفهوم من خلال هذا التقديم نفسه فإنّه قد شرح في كتابه كل شيء يخص الكتابة شرحاً واضحاً سهلاً كافياً يضيء كالصبح المنير ويهدي الى الطريق حتى من كان أعشى ضعيف البصر •

ثم ذكر أنّه رتّبه على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة وأتمّ التقديم بذكر ما يتضمنه من المقدمة والمقالات العشر واحدة واحدة والخاتمة من موضوعات على التسلسل وهذا ما حملنا على وصف تأليفه بالفكر المنظّم المخطّط المرتب الشامل المستوفي •

د ـ نصوص ديوانية مختلفة منه

١ ـ نص من الفصل الاول من المقالة الاولى :

وهو فيما يحتاج اليه الكاتب على سبيل الاجمال (ج ١ ص ١٤٥) : « على أن كاتب الانشاء في الحقيقة لا يستغني عن علم ولا يسعه الوقوف عند فنّ ، فقد قال الوزير ضياء الدين بن الاثير في « المثل السائر » أنّ صاحب هذه الصناعة يحتاج الى التشبث بكل فنّ من الفنون حتى إنّه يحتاج الى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء ، والماشطة عند جلوة العروس • والى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة » • فما ظنّك بما فوق هذا وذلك لأنّه مؤهل أن يهيم في كل واد ، فيحتاج الى أن يتعلق بكل فنّ ، بل قيل إنّ كلّ ذي علم يسوغ أن ينسب اليه فيقال فلان النحوي ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم ، ولا يجوز أن ينسب المتعلق بالكتابة اليها ، فلا يقال فلان الكاتب لما يفتقر اليه من الخوض في كل فن •

واعلم ان كاتب الانشاء وإن كان يحتاج الى التعلّق بجميع العلوم والخوض في سائر الفنون فليس احتياجه الى ذلك على حد واحد بل منها ما يحتاج اليه بطريق الذات ، وهي موادّ الانشاء التي يستمدّ منها ويقتبس من مقاصدها ، كاللغة التي منها استمداد الالفاظ ، والنحو الذي به استقامة الكلام ، وعلوم البلاغة : من المعاني والبيان والبديع التي هي مناط التحقيق والتحسين والتقبيح ونحو ذلك ممّا يجري هذا المجرى ، وعلى هذا اقتصر الوزير ضياء الدين بن الأثير في المثل السائر وتبعه على ذلك الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله في كتابه « حسن التوسل » . ومنها ما يحتاج اليه بطريق العرَض كالطبّ والهندسة والهيئة ونحوها من العلوم فإنّه يحتاج الى معرفة الألفاظ الدائرة بين أهل كل علم والى معرفة المشهورين من أهله ومشاهير الكتب المصنّفة فيه لينظم ذلك في خلال كلامه فيما يكتب به من متعلقات كل فن من هذه الفنون كالألفاظ الدائرة بين أهل الطب ومشاهير أهله وكتبه فيما يكتب به لرئيس الطب ، ونحو ذلك من الهيئة فيما يكتب به لمنجّم ، ونحوه من الهندسة فيما يكتب به لمهندس ، وربما احتاج الى معرفة ما هو دون ذلك في الرتبة كمعرفة مصطلح رماة البندق فيما يكتب به في قدَمات البندق ، ومعرفة مصطلح الفتيان فيما يكتب به في دسكرة فتوّة ونحو ذلك ، بل ربما احتاج الى معرفة مصطلح شكل الناس لكتابة أمور هزلية : كمعرفة أحوال الطفيلية فيما يكتب به لطفيلي اقتراحاً أو امتحاناً للخاطر أو ترويحاً للنفس ، مع معرفة ما يجب عليه من وصف ما يحتاج الى وصفه كأوصاف الابطال والشجعان ، والجواري والغلمان ، والخيل والإبل ، وجليل الوحش وسائر أصنافه ، وجوارح الوحش والطير ، وطير الواجب ، والحمام الهدي ، وسائر أنواع الطير ، والسلاح بأنواعه وآلات الحصار ، والآلات الملوكية ، وآلات السفر ، وآلات الصيد ، وآلات المعاملة ، وآلات اللهو والطرب ، وآلات اللعب ، وآلات الشرب ، والمدن ، والحصون ، والمساجد ، وبيوت العبادات ، والرياضة ، والاشجار والازهار والثمار والبراري والقفار والمفاوز والجبال والرمال ، والأودية والبحار ، والأنهار وسائر المياه ، والسفن والكواكب والعناصر والأزمنة والأنواء والرياح والمطر والحرّ والبرد والثلج وما يتعلّق بكل واحد من

هذه الأشياء أو ينخرط في مسلكه ونحو ذلك مما ندعو الحاجة الى وصفه في حالة من حالات الكتابة على ما سيأتي بيانه في آخر الفصل الثاني من هذا الباب إن شاء الله تعالى » •

كلمة في هــذا النص :

هذا النص قيّم جداً يبرهن به المؤلف على ضرورة اطّلاع الكاتب على كل علم وكل فن وكل شيء في الحياة صغر أو كبر لأنه قد يضطر الى الكتابة فيــه مفاجأة على غير انتظار ولأنّه يساعد على زيادة وعيه وفهمه للأمور فهماً صحيحاً شــاملاً •

فالكاتب قد يطالب بكتابة شيء يتعلق بأمر السّفلة فعليه أن يعرف مصطلحهم وكل ما يتعلق بهم وقد يطالب بالكتابة في شيء من الهزل في التطفل فعليه أن يعرف أحوال الطفيليين وعاداتهم ومصطلحاتهم • وأنت تخرج من النص مدركاً مقتنعاً بأن الكاتب يجب أن يلمّ بكل شيء ممّا يُسمع أو يُرى أو يُلمس أو يُتذوّق أو يُدرك بالعقل أو يُقرأ أو يُتصور •

وحبّذا لو استطاع كتّابنا الحديثون ، صحفيّين أو قصصيّين أو كتّابَ تمثيليات ، أن يُوسّعوا ثقافاتهم ويطبّقوا ما يقوله هذا المؤلف ، إذاً لكانوا أعمق تناولاً وأصدق تجربةً وأصحّ حُكماً وأبعد أفقاً وأقلّ إملالاً وأكثرَ إثارةً للإعجاب وأملك لناصية الفن الصحيح •

وبيننا وبين هذا المؤلّف الواعي سبعة قرون تقريبا ولكنّه أكثر إحساساً بالفنّ الكتابي من كثيرين يعيشون بيننا • ويذكّرنا هذا المؤلّف مع زميله ضياء الدين بن الأثير بالكاتب الفرنسي « كوستاف فلوبير » مؤلف مدام بوفاري الذي قيل إنه شرب السمّ الذي تشربه بطلة قصته ليُحس بعوارض هذا السم ويسعر بآلامه فيحسن وصفها • ويستعين القلقشندي في مطلع النص برأي ابن الأثير الذي يتفق هو معه في الرأي وقد رأى ابن الأثير أن يعرفَ الكاتب ما تقوله كل من النادبة والماشطة وما يقول المنادي في السوق •

واستشهاده بقول ابن الاثير دليل كثرة مطالعته وحسن فهمه لآراء غيره وتجاربهم • وهو لا يكتفي برأي ابن الاثير وأمثلته بل يبيّن تبياناً منطقياً أنّ الكاتب اذا كان عليه أن يلمّ بكل شيء فان إلمامه بالأشياء يجب ألاّ يكون متساوياً ويجب أن يفرّق بين الاكثر ضرورة والضروري والكمالي • فاللغة والنحو وعلوم البلاغة معارف أساسية يجب إتقانها • وقد اقتصر بعضهم على ذكرها في كتبه كابن الاثير والشهاب محمود ، على احساسهما بضرورة معرفة الكاتب بكل شيء • كما رأينا في كلام ابن الأثير في النص المعروض •

ومنها ما يحتاج اليه بطريق العرض أي ما هو كمالي ليست الحاجة اليه ماسة ولكنّ معرفته ضرورية وقد ذكر المؤلف لذلك أمثلة كثيرة شملت أكثر نواحي الحياة مما يقع تحت الحس والمشاهدة أو يدخل في حيّز الاستعمال •

وهذه الأمثلة تدلّ على سعة تجربته وشمول نظرته وغنى فكره وخياله وسعة آفاقه وقد نوّع في هذه الأمثلة بين جدّ وهزل وسماء وأرض وطبيعة وصناعة وعمل و... علم وفن •

وإنّما ذكر ذلك كله في هذا الموضوع من قبيل الأمثلة ثم بيّن أنه سيبيّن ذلك في آخر الفصل الثاني من هذا الباب وبذلك يثبت مرة أخرى حسن تخطيطه وترتيبه في تأليف كتابه •

ونلاحظ أن أسلوب المؤلف في هذا النص واضح سهل خال من التكلف والصناعة ومن السجع اتجهت عنايته فيه الى أداء المعاني ووُفّق فيه الى ما أراد •

٢ ـ قال القلقشندي (في الجزء التاسع من صبح الاعشى ص ٢١٣) :

وهذه نسخة بيعة مرتبة على خلع خليفة أنشأتها على هذه الطريقة أيضا (طريقة ان افتتح البيعة ، بعد البسملة بخطبة مفتتحة بالحمد لله) ، وتعرّضتُ فيها لذكر السلطان القائم بها ، على ما تقدم في البيعة المرتبة على موت خليفة وهي :

« بسم الله الرحمن الرحيم • الحمد لله الذي جعل بيت الخلافة مَثابةً للناس وأمنا • وأقام شعار الامامة وقاية للأنام وحصنا ، وشدّ لها بالعصابة القرشية أزْرا وشاد منها بالعصبة العباسية ركنا • وأغاث الخلق بإمام هدىً حَسَن

سيرة وصفا سريره ، فراق صوره ورق معنى ، وجمع قلوبهم عليه فلم يستنكف عن الانقياد اليه أعلى ولا أدنى ، ونزع جلبابها عمن شغل بعبرها فلم يعرها نظراً ولم يصغ اليها أذنا ، وصرف وجهها عمّن أساء فيها تصرّفا فلم يرفع بها رأسا ولم يعمر لها مغنى . نحمده على نِعَمٍ حلّت ومنن جلت الخطوب حين جلّت : ومسارّ سرت الى القلوب فسرّت ، ومَبارّ أقرّت العيون فقرّت وعوارف أمّت الخليقة فتوالت وباركت ، وقدم صدق تبتت إن شاء الله في الخلافة فما تزلزلت ولا زلّت .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تكون لنا من درك الشكوك كالئة ، ولمهاوي الشبه دارئة ، وللمقاصد الجميلة حاوية ، ولشقة الزيغ والارتياب طاوية ، وأنّ محمداً عبده ورسوله الذى نصح الأمة إد بلّغ فشفى عليلها وأوردها من مناهل الرشد ما أطفأ وهْجها وبرّد غليلها وأوضح لهم مناهج الحق ودعاهم اليها . وأبان لهم سبل الهداية . (فمن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها) صلى الله عليه وعلى آله وسلم أئمة الخير وخير الأئمة ، ورضي الله عن أصحابه أولياءِ العدل وعدول الأمة صلاة ورضوانا يعمّان سائرهم ويشملان أولهم وآخرهم ، سيما الصديق الفائز ، بأعلى الرتبتين صدقاً وتصديقاً ، والحائز قصب السبق في الفضيلتين علما وتحقيقا ، ومن عدل الانصار إليه عن سعد بن عبادة بعد ما أجمعوا على تقديمه ، وبادر المهاجرون الى بيعته اعترافاً بتفضيله وتكريمه ، والفاروق الشديد في الله بأسا والليّن في الله جانبا ، والمتوفي للخلافة حقا والمؤدي للامامة واجبا ، والقائم في نصرة الدين حق القيـام حتى عمّت فتوحه الأمصار مشارقا ومغاربا ، وأطاعته العناصر الاربعة : إذ كان لله طائعا ومن الله خائفا والى الله راغبا ، وذي النورين المعوّل عليه من بين سائر أصحاب الشورى تنويهاً بقدره ، والمخصّص بالاختيار تفخيماً لأمره ، من حُصر في بيته فلم يمنعه ذلك عن تلاوة كتاب الله وذكره ، وشاهد سيوف قاتليه عياناً فقابل فتكاتها بجميل صبره ، وأبي الحسن الذي أعرض عن الخلافة حين سئلها ، واستعفى منها بعد ما اضطرّ اليها وقبلها . وكشف له عن حقيقة الدنيا

فما أمّ قبلتها بقلبه ، ولا ولّى وجهه قبلتها وصرّح بسقاطعتها بقوله : « يا صفراءُ غرّي غيري، يا بيضاءُ غرّي غيري، لمّا وصلها من وصلها، وسائر الخلفاء الراشدين بعدهم ، الناهجين نهجهم الواردين وِردهم •

أمّا بعدُ فإنّ للإمامة شروطاً يجب اعتبارها في الامام ، ولوازم لا يغتفر فوانها في الابتداء ولا في الدوام ، وأوصافاً يتعين إعمالها ، وآداباً لا يسع إهمالها : من أهمّها العدالة التي ملاكها التقوى ، وأساسها مراقبة الله في السر والنجوى ، وبها تقع الهيبة لصاحبها فيُجَلّ وتميل النفوس إليها فلا تُحَلّ • فهي الملكة الداعية الى ترك الكبائر واجتنابها والزاجرة عن الإصرار على الصغائر وارتكابها ، والباعثة على مخالفة النفس ونهيها عن الشهوات ، والصارفة عن انتهاك حرُمات الله التي هي أعظم الحرُمات ، والموجبه للتعفّف عن المحارم ، والحاملة على تجنب الظّلامات وردّ المَظالم ،و الشجاعة التي بها حماية البيضة والذبّ عنها ، والاستظهار بالغزو على نكاية الطائفة الكافره والغض منها ، والقوة بالشوكة على تنفيذ الأوامر وإمضائها وإقامة الحدود واستيفائها ونشر كلمة الحق ، وإعلائها ، ودحض كلمة الباطل واخفائها • وقطع مادة الفساد وحسم أدوائها ، والرأي المؤدي الى السياسة وحسن التدبير والمغني في كثير من الاماكن عن مزيد الجد والتشمير والمعين في خدع الحرب ومكايده والمسعف في مصادر كل أمر وموارده •

هذا وقد جعلنا الله أمة وسطاً ووعظنا بمن سلف من الامم ممن تفرّد وعتا أو تجبر وسطا ، وعصم أمتنا أن تجتمع على الضلال ، وصان جمعنا عن الخطل في الفعال والمقال ، وندبنا الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسوّغ لأمتنا الاجتهاد في النوازل والاحكام فاجتهادهم لا ينكر خصوصا في شأن الإمامة التي هي آكد أسباب المعالم الدينية وأقواها ، وأرفع المناصب الدنيوية وأعلاها ، وأعزّ الرتب رتبة وأغلاها ، وأحقّها بالنظر في أمرها وأوْلاها • وكان القائم بأمر المسلمين الآن فلان بن فلان الفلاني ممّن حاد عن الصراط المستقيم وسلك غير النّهج القويم ومال عن سنن الخلفاء الراشدين فأدرك الزلل وقارف المآثم فعاد بالخَلَل ، فعاث في الارض فسادا ، وخالف الرشد فسادا ، ومال الى الغي اعتمادا •• وأسلم الى

الهوى قادا . قد انتقل عن طور الخلافه . وعزيز الإنافه الى طور العامة فاتصف
بصفاتهم ، واتّسم بسِماتهم : فمنكَرٌ يجب علل إنكارُه قد باشره ، وصديق
سوء يتعين عليه إبعاده قد وازره وظاهره : إنْ سلك فسبيلَ النهمة والارتياب ،
أو قصد أمراً نحا فيه عن الصواب ، منهمكٌ على سهواته ، منعكف على لذاته .
متشاغل عن أمر الأمّة بأمر بنيه وبناته : الجبن رأس ماله ، وعدم الرضى قرينه
في أفعاله وأقواله ، قد قنع من الخلافه باسمها ، ورضي من الإمامة بوسمها ، وظنّ
أنّ السؤدد في لبس السواد فمال الى الحَبْف ، وتوهّم أن القاطعَ الغمدُ فقَطع
النظرَ عن السيف .

ولمّا اطّلع الناس منه على هذه المنكَرات ، وعرفوه بهذه السِّمات ، وتحققوا
فيه هذه الوجهات ، رغبوا في استبداله وأجمعوا على خلعه وزواله ، فلجؤوا
الى السلطان الاعظم الملك الفلاني (بالالقاب السلطانية الى آخرها) نصر الله
جنوده وأسمى جدوده وأرهف على عُداة الله حدوده ، ففوّضوا أمرهم في ذلك
اليه وألقوا كَلّهم عليه ، فجمع أهل الحلّ والعقد منهم ومن تصدُر إليهم الأمور
وترِد عنهم فاستخاروا الله تعالى وخلعوه من ولايته وخرجوا عن بيعته ، وانسلخوا
عن طاعته وجرّدوه من خلافته . تجريد السيف من القراب ، وطووا حكم إمامته ،
كطيّ السجلِّ للكتاب ، وعندما تم هذا الخلع وانطوى حكمه على البت والقطع ،
التمس الناس إماماً يقوم بأمور الامامة فيوفّيها ويجمع شروطها ويستوفيها ، فلم
يجدوا لها أهلا ، ولا بها أحق وأولى ، وأوفى بها وأملى ، من السيد الاعظم الإمام
النبوي سليل الخلافة ، ووليّ الإمامة أبي فلانٍ فلان العباسي الطائع لله (مثلاً)
أمير المؤمنين . لا زال شرفه باذخاً ، وعرنينه الشريف شامخاً ، وعهد ولايته لعهد
كل ولاية ناسخاً ، فساموه بيعتها فلبّى ، وشاموا برقه لولايتها فأجاب وما تأبى
علما منه بأنها تعيّنت عليه ، وانحصرت فيه فلم تجد أعلى منه فتعدل اليه . اذ هو
ابن بجدتها ، وفارس نجْدتها ، ومزيل غُمّتها وكاشف كرْبتها ، ومُجلّي
غياهبها ومُحمِد عواقبها ، وموضح مذاهبها ، وحاكمها المكين بل رشيدها الأمين ،
فنهض المقام الشريف السلطاني الملكي الفلاني المشار إليه : قرن الله مقاصده الشريفة

بالنجاح . وأعماله الصالحة بالفلاح . وبدر الى سمعه فبايع وائتم به من حضر من أهل الحلّ والعقد فتابع ، وقابل عَقْدها بالقبول فمضى ، ولزم حكمها وانقضى ، واتصل ذلك بسائر الرعية فانقادوا . وعلموا صوابه فسَّتو على سَنَنه وما حادوا . وشاع خبر ذلك في الأمصار ، وطارت به مُخلّقات البشائر الى سائر الأقطار ، فتعرّفوا منه اليُمْن فسارعوا الى امتثاله ، وتحقّقوا صحته وثباته بعد اضطرابه واعتلاله ، واستعاذوا من نقص يصيبه بعد تمامه لهذا الخليفة وكماله ، فعندها أبانت الخلافة العباسية عن طيب عنصرها وحبل وفائها وكريم مظهرها ، وجادت بجزيل الامتنان ، وتلا لسان كرمها الوفي على وليها الصادق (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ، فجدّد بالسلطنة الشريفة عهداً وطوّق جيده بتفويضها اليه عقداً ، وجعله وصيّه في الدين ، ووليّه في أمر المسلمين وقلّده أمر الممالك الاسلامية وألقى اليه مقاليدها ، وملّكه أزمّتها ، وحقّق له مواعيدها وعقد له لواءها ونشر عليه أعلامها وصرّفه فيها على الإطلاق وفوّض إليه أحكامها وألبسه الخلعة السوداء ، فكانت لسؤدده شعارا ، وأسبغ عليه رداءها فكان له دثارا ، وكتب له العهد فسقى المعاهد صوب العهاد ، ولهج الأنام بذكره فاطمأنت العباد والبلاد ، وعندما تمّ هذا الفصل ، وتقرّر هذا الاصل ، وأمست الرعايا بما آتاهم الله من فضله فرحين وبنعمته مستبشرين ، طولب أهل البيعة بما يحملهم على الوفاء ويمنع بيعتهم من التكدر بعد الصفاء : من توثيق عقدها بمؤكد أيْمانها والإقامة على الطاعة لخليفتها وسلطانها فبادروا الى ذلك مسرعين ، والى داعيه مهطعين ، وبالغوا في المواثيق وأكّدوا وشدّدوا في الأيمان وعقدوها ، وأقسموا بالله الذي لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة ، عالم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، في البدء والإعادة ، وعلى الوفاء لهما والموالاة ، والنصح والمصافاة ، والموافقة والمشايعة والطاعة ، والمتابعة ، يوالون من والاهما ويعادون من عاداهما ، لا يقعدون عن مناصرتهما عند إلمام مُلِمّة ، ولا يرقبون في عدوّهما إلاّ ولا ذِمّة ، جارين في ذلك على سنن الدوام والاستمرار والثبوت واللزوم والاستقرار ، على أنّ من بدّل منهم من ذلك شرطا أو عفّى له رسما ، أو حاد عن طريقه أو غيّر له حكما ، أو سلك في ذلك غير سبيل الأمانة ، أو استحلّ الغدر ، وأظهر الخيانة ،

مُعلِنا أو مُسِرًّا في كلّه أو بعضه ، مأوّلا أو محالا لإبطاله أو نقضه ؛ فقد برىء من حول الله المبين وقوته الوافية وركنه التسديد وذمّته الوافية الى حول نفسه وقوّته . وركنه وذمّته . وكلّ امرأة في عصمته الآن أو يتزوّجها مدة حياته طالق ثلاثاً بصريح لفظ لا يتوقف على نيّة ، ولا يُفرّق فيه بين سنة ولا بدعة . ولا رجعةَ فيه ولا مَثْنَوِيّة وكل مملوك في ملكه أو يملكه في بقية عمره من ذكر أو أنثى حرّ من أحرار المسلمين . وكلّ ما هو على ملكه أو يملكه في بقية عمره الى آخر أيامه من عين أو عرضٍ صدقة للفقراء والمساكين ، وعليه الحج الى بيت الله الحرام ثلاثين حجة بثلاثين عمرة ، راجلاً حافياً حاسراً لا يقبل الله منه غير الوفاء بها باطناً ولا ظاهراً وإهداء مئة بدنة في كل حجة منها في عسرته ويسرته . لا تجزئه واحدة منها عن حجة الاسلام وعمرته ، وصوم الدهر خلا المنهي عنه من أيام السنة ، وصلاة ألف ركعة في كل ليلة لا يباح له دون أدائها غمض ولا سِنَة ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ، ولا يؤجر على شيء من ذلك قولاً ولا فعلاً ، متى ورّى في ذلك أو استثنى أو تأوّل أو استفتى كان الحنث اليه عائداً ، وله الى دار البوار قائداً ، معتمداً في ذلك أشد المذاهب في سرّه وعلانيته ، على نية المستحلف له دون نيّته وأمضوها بيعة محكمة المباني ثابتة القواعد كريمة المساعي جميلة المقاصد ، طيبة الجنى جليلة العوائد ، قاطعة البراهين ظاهرة الشواهد ، وأشهدوها على أنفسهم بذلك من حضر مجلس هذا العقد من قضاة الإسلام وعلمائه وأئمة الدين وفقهائه ، بعد أن أشهدوا الله عليهم وكفى بالله شهيدا ، وكفى به للخائنين خصيما : (فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) . والله تعالى يجعل انتقالهم من أدنى الى أعلى ومن يسرى الى يمنى ، ويحقق لهم بما استخلفه عليهم وعده الصادق بقوله تعالى : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليَستخلفنّهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليُمكّننّ لهم دينَهم الذي ارتضى لهم وليُبدّلنّهم من بعد خوفهم أمنا) إنْ شاء الله تعالى .

وهذه هي الطرّة التي كتبها لهذه البيعة وقد كتبها بالقلم نفسه الذي كتب به البيعة . « وهذه بيعة ميمونة ، باليمن مبتدأة بالسعد مقرونة ، لمولانا السيد

الجليل الإمام النبوي المتوكل على الله أبي عبد الله محمد أمير المؤمنين ، ابن الامام المعتضد بالله أبي الفتح أبي بكر العباسي ، زاد الله تعالى شرفه علوّا وفخاره سموّاً . قام بعقدها السلطان السيد الأعظم . والشاهنشاه المعظم . الملك الظاهر أبو سعيد برقوق ، خلّد الله تعالى سلطانه ، ونصر جيوشه وأعوانه ، بمجمع من أهل الحل والعقد ، والاعتبار والنقد . من القضاة والعلماء والامراء ووجوه الناس والوزراء والصلحاء والنصحاء ، وإمضائها على السداد . والنجح والرشاد . على ما شرح فيه .

ومنه يفهم أنّ الطرّة هي خلاصة ما في البيعة المعرّفه بمضمونها ، وتوضع قبلها .

كلمة في هذا النص :

كتب هذه البيعة القلقشندي نفسه مؤلف كتاب صبح الأعشى وهي تعطينا صورة عن عقود البيعة بالخلافة التي كانت تكتب في ذلك الزمان . وهي الصورة التي كانت تبدأ بعد البسملة بحمد الله .

ويلاحظ أنه ذكر خلال الحمد مكانة بيت الخلافة لدى الناس وضرورة الخلافة لاستقرار أمورهم وبيّن منذ استهلاله بالحمد أنّ الموضوع هو خلع خليفة ظهر فساده وتولية خليفة هو الأحقّ بها . وهو يحمد الله على نعمه الكثيرة التي منها هذه النعمة .

ثم يأتي بالشهادتين ويصلّي على النبي ويدعو بالرضى لأصحابه ويخصّ بالذكر الخلفاء الراشدين الأربعة ويبيّن خلال ذلك مشروعية الخلافة وكيف بدأت بعد النبي بأبي بكر وأنه كان أحقّ من غيره بها ، وذكر خلال ذلك ما يتّصف به كل خليفة من الأربعة الراشدين من فضائل لتكون نبراساً للخلفاء بعدهم . وهذه هي المقدمة التمهيدية . ثم يأتي بأما بعد فيباشر بها الدخول في صلب الموضوع .

ويقدم له بشروط الإمامة من الأخلاق التي يجب أن تتوافر في الخليفة فاذا خرج عليها استحلّ إبطالُ بَيْعته ، وهي العدالة التي ملاكها التقوى والشجاعة والرأي الرشيد .

ثم يبيّن أنّ الله جعل هذه الأمه وسطاً وجعل أهلها شهداء على الناس وأتاح لهم الاجتهاد لما فيه مصلحتهم ولما كانت الخلافة أهمّ شيء عندهم وكان الخليفه القائم قد ظهر فساده لهم فقد حق لهم التحلّل من بيعته • ولذلك لجؤوا الى السلطان وفوّضوا أمرهم اليه فجمع أهل الحل والعقد فاتفقوا على خلعه ثم التمسوا إماماً يحلّ محلّه فوجدوا أحقّ الناس بمنصب الخلافة الطائع لله •• فدعوه الى توليه فلبّى ، وعلى ذلك بايعه السلطان الظاهر أبو سعيد برقوق ، وتابعه في هذه البيعة أهل الحل والعقد وامتلأت الرغبة لهذه البيعة وأيدتهما وقابل الخليفه الاحسان بالاحسان فجدد للسلطان عهد السلطنة وثبته في منصبه وفوّض اليه تدبير شؤون المسلمين وأصبحت الرعايا بذلك جميعه فرحين •

وعلى ذلك فان أهل البيعة من أرباب الحل والعقد مطالبون بالوفاء للخليفة والسلطان معاً والامتثال لأوامرهما •

وهو يستعمل الأيمان المتعدّده للإخلاص لهذه البيعه وعدم الاخلال بمضمونها والخروج عليها •

ثم يذكر أنهم أوردوها بيعة محكمة المباني ثابتة القواعد كريمة المساعي مباركة النتائج وجعلوا الله شهيدا عليها أوّلا والفقهاء وقضاة الاسلام وعلماءه ثانياً •

ويختم البيعة بذكر آيتين تندّد الاولى بالغادرين وتعد الوافين بالأجر العظيم وتعد الثانية المؤمنين الصالحين بالسيادة والتمكن والأمن •

والبيعة بهذه الصورة قد رتبت ترتيباً منطقياً يتسلسل فيه من المقدمات الى النتائج وتعطينا صورة سياسية واجتماعية لذلك العهد •

فقد كانت الخلافة أعلى منصب ديني اجتماعي ظاهراً ، ولكنّ الخليفة في الحقيقة لم يكن له حول ولا طول وكان مظهراً لا أثر له في تصريف الامور وتغييرها ، يتّخذ ستارة يُبرّر بها أعمال السلاطين المستبدين الغريبين عن البلاد •

وهذا العهد يحاول خداع الامة سظاهر كاذبة مس الشورى يُقلّد بها ما جرى زمن الخلفاء الراشدين فالخليفة المخلوع لم تخلعه الامه وانما خلعه السلطان الذي بيده القوه المادية والسلطة العسكريه • والعلماء الذين أفتَو(١) بخلعه يمالئون السلطان خوفا أو نفاقا ويعلمون أنهم لا يستطيعون تغييره فليستجيبوا إذاً لإرادته •

والخليفة الجديد قد يكون أسوأ من القديم أو أقل كفاءة وصلاحاً منه ، ولكنّ السلطان يريد تنصيبه ليُضفي الشرعية على سلطنته ولذلك يدعي العهد بأنّ الخليفة المخلوع قد ظهر للناس فسادُه ففوّضوا السلطان في التصرف • وأهل الحل والعقد أكثرهم من أمراء الجيش الذين يأتمرون بأمر السلطان • والسلطان يجمعهم فيتفقون على خلع خليفة وتولية آخر بوصف بأنه أصلح رجالات البيت العباسي للخلافة فيوافق فيبايعه السلطان ويبايع السلطانَ أهلُ الحل والعقد وتستبشر الرعية بذلك وتؤيد البيعة •

وتتمّ المسرحية بأن يقابل الخليفة الجديد الحسنة بالحسنة فيصدر تقليداً بتجديد التفويض بالسلطنة للسلطان الذي يسخر بالجميع لأنّ بيده القوة • والتفويض يجعل يد السلطان مطلقة في شؤون الرعية وتدبير أمور الدولة • والخليفة يسلخ نفسه من كل سلطة ليجعلها في عنق السلطان • والحقيقة أنّه لم يكن ولن يكون له سلطة لينسلخ منها • والشعب هو الضحية وهو مصدر السلطة والمبايعة قولا ، ولكنه ليس له شيء من الرأي في شؤونه عملا •

ويرى كيف يطالب الشعب بالإخلاص لبيعة لم تكن له إرادة فيها وبأن يفي بشروطها ومستلزماتها وهو مكره عليها وليس ذلك من الإسلام ولا من الشورى في شيء • ثم يرى كيف تشدّد الأيْمان على أهل الحل والعقد أو من يزعم أنهم كذلك ، وعلى غيرهم من الرعية ، فمن غدر بعهده طُلّقت نساؤه وحُرّمت عليه أمواله وتحررت جواريه وعبيده ولزمه كذا حجة وكذا عمرة ••• الخ •

وإنما يتشدّدون بهذه الأيْمان استمرارا في السنّه التي سنّها الحجاج حين كان يجبر أهل العراق على مبايعة الخلفاء الأمويين • وأغرب شيء أنّ عهد الخلافة

الذي بين أيدينا يعرض على الله سبحانه وتعالى نفسه أن ينقبّل العبادات من عباده أو لا يتقبلّها وفقا لصالح من كتب هذا العهد من أجلهم • وهذه وقاحة على الله لا ندري كيف قبلها العرب والمسلمون وفقهاؤهم : (لا يقبل الله صرفا ولا عدلا ولا يؤجر على شيء من ذلك قولا ولا فعلا) • وهذا افتراء على الله •

ويظهر أنّ سلاطين ذلك الزمان قـد استسهلوا خداعهم باسم الشورى والبيعـة •

وبعد فإنّ العهد قد تناسب في الطول مع عظم مقام الخلافـة أو مع ما يفترض ويتوهمّ من عِظم هذا المَقام حينئذ •

وظاهر فيه الإسهاب بإيراد الجمل المترادفة والفقرات المسجوعة المطوّله وبسط المعاني بما يمكن ايجازه في عبارات قليله •

وظاهر فيه تكلف الصور البيانية والفنون البديعية من سجع وطباق وجناس واقتباس وغير ذلك من ألوان البديع •

وظاهر فيه الملق للحكام والمبالغة في التعظيم والتوقير لهم وممالأتهم في ذم الخليفة المخلوع ومدح الخليفة المنصوب •

وظاهر فيه قلّة الغريب وسهولة التراكيب ووضوح المقصـود ، وجمال الأداء •

وظاهر فيه استيفاء ما يجب استيفاؤه في مثـل هـذه الصكوك الفقهية القانونية •

٣ ـ وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة من انشاء الشهاب محمود الحلبي رحمه الله وهي تمثل الكتابة الديوانية في العهد المملوكي التركي :

ملاحظـة : قبل أن نورد النص نلفت النظر الى أنّ القلقشندي كان قد تكلم على ترتيب وظائف المملكة في المقالة الثانية وبيّن أن الكفالة وهي نيابة السلطنة بالحضرة هي أعلى رتب نيابة السلطنة ، وأنّ النائب الكافل يحكم في

كل ما يحكم فيه السلطان ويعلّم في التقاليد والنواقيع والمناشير وغير دلك بخلاف غيره من النواب فإنّ كل نائب لا يعلّم الا على ما يختصّ بخاصة نيابته • وقد تقدّم في مقدمة الولايات أنّ لقبه « المقرّ الكريم » على ما استقرّ عليه الحال :

وهذا هو نص التقليد : « صبح الأعشى ، ج ١١ ص ١٣٥ — ١٣٨ » :

« الحمد لله الذي جعل ركن الدولة في دولتنا القاهره ثابت القواعد ، على فرقد الفراقد ، راقيا في رتب العلوّ الآخذة من أفق التأييد بالمطالع ومن نُطُق العز بالمعاقد ، حاليا بعقود المهابة التي لا تزال لرعبها على الأعداء طلائعَ خيل في المَراقب ورائع خيال في المَراقد ، حاويا من أنواع المفاخر ما لو كاثرته الدراري غدت وهي لمجموعه بفراقد ، أو فاخرته الدرر ثقبتها الأفكار النواقد ، مقلدا من سيوف الظفر ما لا تنبو في نصرة الإسلام مضاربه وكيف تنبو وأوامرنا لعقود حمائلها على عواتق مجده عواقد • نحمده على نعمه التي عدقت أمور دولتنا بمن يرفع بأسه نارَها ، وعقدت قواعد مملكتنا بمن يوالي فضله أنوارَها ، وعضدت هممَ أوليائنا بمن اذا تخيّلت أعداء الدين مواقع صوارمه كان امنعَ صونها إسارُها وأنفعَ سلاحها فرارُها •

ونشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له شهادة تشرق الهمم بلوامعها ، وتشرّف الكَلِمُ بجوامعها ، وتزكو الأمم بما تنقل الالسنة منها عن القلوب الى مسامعها ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أقامنا الله لنصر دينه وألهمنا تفويض مصالح أمته الى كل ولي ما رفعت راية نصر الا تلقاها عَرابة مجده بيمينه ، وعضدنا في جهاد أعدائه بأعزّ صفي ينوب بأسه للجيش عن طلعته ويقوم رأيه في الحرب مقام كمينه صلى الله عليه وعلى آلـه وصحبه الذين اختارهم لصحبته وارتضاهم وأرهفهم لإقامة ملّته وانتضاهم ، فمنهم من فاز بمزيتي سبقه وتصديقه ، ومنهم من كان الشيطان ينكب عن طريقه ومنهم من اختار الشهادة على الانتصار بطريقه ورفيقه ، ومنهم من اقامه بشرف الاخوة معه مقام شقيقه ، صلاة يبلّغه إخلاص مقيمها ويعرَض عليه إيمانُ مديمها وسلّم •

أمّا بعدُ فإنّا من حيث أورثنا الله ملك الاسلام لا عن كلالة ، وألبسنا في مواقف الذبّ عن دينه حلل العز المعلمة بالجلالة ومكّن لنا في أرضه وأنهضنا بمسنون الجهاد وفرضه ، ونشر دعوة ملكنا في طول الوجود وعرضه — لم نزل نرتاد لكفالة الممالك الإسلامية من تأوي منه الى ركن شديد ورأي سديد وحزم يُقرّب من مواهب النصر كل بعيد ، وعزم إذا أرهف صوارمه من أدنى الصعيد وجف لهول مواقعها باب الحديد • فهو المطوي في أثناء ضمائرنا وإن تقلدها فله سواه « المنوي في احناء سرائرنا وانما لامرىء ما نواه قد حلب قِدَمُ هجرته الدهرَ أشطره وكتب حسن خبرته ، من عنوان السير أسطره وتسلت مرآة الزمان لفكره فاجتلى صور الوقائع في صفائها وتردّدت تجارب الأمم على سمعه فعلم ما يأتي وما يذر في تركها واقتفائها ، واستقبل دولة أسلافنا الشريفة من فواتحها ، فكان لسان محاسنها ، وبنان مامنها ، وخزانة سرها وكنانة نهيها وأمرها ، وطليعه تأييدها ، وذريعة أوليائها الى عوارفها وجودها وعنوان أخبارها ، وعنان سوابقها التي لا تدرك مآثر من سلف شق غبارها ، ويمين قبضتها المصرّفة من البأس والندى وأمينَ آرائها المؤيدة بالتوفيق اللدني على العدا ، وركنها المشيد بالأمل وهو تبنى عليه الممالك ، وحصنها المصفّح بالصفاح فلا تستطيع الأهواء أن تتوقّل اليه تلك المسالك ، وزعيم جيوشها التي اجتنت من قصب قواضبه ثمر النصر غير مرة ، ومقدّم عساكرها التي اجتلت به وجوه الظفر الحلوه في ايام الكريهة المرة •

ولما كان المقرّ الكريم (الفلاني) هو معنى هذه الصفات المهمة ، ومبنى هذه القواعد المحكمة ، وطراز حلل هذه الاحوال المعلمة ، وسرّ المقاصد الظاهرة وسالك هذه (النجوم) الزاهية ، بل فلك هذه الدراري الزاهرة ، تحلّق صوادح البراعة فتقع دون أوصافه بمراحل ، وتغوص سوابح اليراعة ، فيلقيها العجز عن استخراج درر نعوته بالسواحل ، فأوصافه تذكر على وجه الاجمال لضيق نطاق الفصاحة عن تفصيلها ، ومناقبه تشكر بلسان الإجماع لعجز ألسنة الأقلام عن بلوغها الى غايتها ووصولها فلذلك اقتضت آراؤنا الشريفة أن نفسح مجال الهدى ، بتفويض ايالة الملك اليه ، وان نقطع آمال العدا ، بالاعتماد في زعامة الجيوش

الاسلامية عليه ، وأن تقرّ عيون الرعايا بإلقاء مقاليد العدل والاحسان الى يديه ، وأن نصون عقائل الممالك من مهابته بما يغدو سوراً لعواصمها وسواراً لمعاصمها ، وشنباً تفتر ثغورها عن بروقه ، أو لهيباً يقطع طريق أمل العدا عن تخيل خيالها في طروقه ، ليعتضد الدين سه بركنه ، وينغلب (على) الشرك في حالتي حربه ، ووهنه ، ويتقلب كل من رعايانا بين وهاد يمنه ومهاد أمنه — رسم بالامر الشريف — لا زال ملكه عليّ الاركان ، راقياً من أفق النصر الى أعلى مكانة ، وأرفع مكان — ان تفوّض اليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالديار المصرية والممالك الاسلامية على أكمل العوائد ، وأجمل القواعد تفويضاً تمضي أحكامه في الممالك الإسلامية شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً ، فلا يخرج منها شيء عن أوامره وأحكامه ، ولا يعدل في سلمها وحربها عن حكمي سيوفه وأقلامه .

فليستقرّ في هذه الرتبة العالية استقرار الأركان المواكث ، والأطوار اللوابث ، والأصول النوابت ، والنجوم الثوابت ، مؤثّلا قواعدها برأيه السديد ورايته ، معوذاً كمالها بسيف النصر وآيته . مبتدئاً في إعلاء منارها من العدل بأقصاه ومن الإحسان بغايته ، مكثراً أعداد الجيوش الاسلامية برأيه السعيد ، مقرّباً من مطامح النصر النائية كل بعيد ، موكّلا بحركات العدو وسكناته جفناً لا يألف الغرار[1] وسيفاً لا يعرف القرار ، وعزماً لا يرضى من عدوّه دون اصطلامه الفرار ، فلا تزال جيوش الإسلام بجميل تعاهده مزاحة العوائق ، مزالة القلائق ، لا مانع لها عن الركوب ولا قاطع عن الوثوب . قد أعدّتها عزائمه ، فكل زمانها بالتأهب للّقاء وقت امكانه ، وأمدّت بأسها صوارمه ، فهي لا تسأل عن عدد عدوّها بل عن مكانه . مقيماً منار العدل الذي هو أساس الملك ودعامته ، ورأس الحكم بأمر الله في خلقه وهامته ، ونور الخصب الكافل بمصالح العباد والبلاد وعامته[2] ناشرا له في أقطار الممالك ، ماحياً بنور اقامته آية ليل الظلم الحالك معاضدا أحكام الشريعة المطهّرة بالانقياد اليها والاعتماد في الحل والعقد عليها

---

(١) الغرار : النوم القليل أو القليل من كل شيء .

(٢) العامة : قبض السنابل اذا اجتمعت بعد حصدها ، وجمعها عام .

والاحتفال برفع منارها : فإنّ ذلك من أفضل ما قدّمته الدول الصالحة بين يديها مقدماً عمارة البلاد على كل مهمّ ، فإنّها الأمل الذي تتفرع عنه المصالح على افتراقها ، والمادّة التي تستطيل الجيوش الاسلامية على العداة بتوسعها في إنفادها وانفاقها ، والأسباب التي تعين الغيوث على نماء ما بسط الله لعباده من أرزاقها ، وآكد مصالحها الرفق الذي ما كان في شيء الا زانه ، والعدل الذي ما اتصف به ملك الا حفظه وصانه ، فقد جعلنا أمره في ذلك جميعه من أمرنا المطاع ، واقتصرنا عن ذكر الوصايا بما في خصائصه الكريمة من حسن الاضطلاع وجميل الاطّلاع ، واكتفينا بما في خلائقه الجميلة من محاسن لو تخيّر نفسه لم يزدها على ما فيه من كرم الطباع ، والله تعالى يؤيده وقد فعل ، ويجعل ركنه من أثبت قواعد الدين وقد جعل ، إنْ شاء الله تعالى .

كلمة في النص :

النص السابق تقليد بكفالة السلطنة كتبه الشهاب محمود كاتب السر الذي كان شاعراً كاتباً .

وهذا التقليد صادر عن رب سيف هو السلطان الى رب سيف، هو الامير المحارب من المماليك المكلف بنيابة السلطنة من مرتبة الكفالة في هذا التقليد . بدأ التقليد بعد البسمله بحمد الله ، ككتاب العهد بالخلافة السابق ، ثم انتقل من التحميد الى الشهادتين بالله وبرسوله وبالرضى عن الخلفاء الاربعة الراشدين من الصحابة الكرام . وجاء بأما بعد التي انتقل بها الى صلب الموضوع ، وختم كلامه بالدعاء بالتوفيق وبقوله ان شاء الله تعالى .

وفي خلال الحمد يفخر المكتوب باسمه بقوّة دولته وهيبتها ونصرتها الاسلام وبالاعتزاز بأمراء الجند الذين ينصرون هذه الدولة . وأثناء ايراد الشهادتين يثني على من فوّض اليهم خدمة مصالح الامة والقيام باعمال الجهاد ومنهم أعزّ صفي بينهم الذي امتاز ببأسه وشجاعته ورأيه . وحين الترضي عن الخلفاء الراشدين يذكر من صفاتهم ما يصلح أن يكون وصفا للنائب الكافل من حيث الاستقامة والإيثار والأخوّة .

في مطلب الموضوع بعد أما بعد يتحدث عن الصفات المطلوبة في النائب الكافل من حيث الكفاءة والاخلاص والشجاعة والرأي وحسن الادارة واليقظة ودوام الاستعداد ثم تبيّن أنّ هذه الصفات قد توافرت كلّها في المنتدب لهذه المرتبة (المقرّ الكريم) ولذلك رأى الجناب السلطاني تعيينه في هذه المرتبة وتفويض أمور السياسة والإدارة والحرب وكل مهام السلطنة اليه بالنيابة مع وجوده معه في حضرته ٠

وبعد أن يصفه بصفات مثالية يذكر أنه لم يجد داعيا لتقديم الوصايا اليه لأنّ له من كفاءاته وأخلاقه ما ينوب عن هذه الوصايا وبالحقيقة نستطيع أن نعد كل ما تقدم من مدحه بصفات مثالية بمثابة الوصايا لـه ولكنها قدمت بذوق وأناقة ٠

يلاحظ ان هذا النص أقصر من نص عهد الخلافة وهذا ينسجم مع القاعدة بأن طول العهد يتناسب مع مقام المكتوب في شأنه ٠

ونرى أن هذا النص أكثر انسجاما مع الواقع وصدقا مع النفس والحقيقة إذ لا تمويه على الشعب في قضيتي الشورى والحرية فرجل سيف هوا لسلطان بلغ مرتبه النائب الكافل أحد رجاله لاعتماده عليه وهو مثله رجل حرب ومن اهل البأس ، وكلاهما يفهم لغة القوة ولم ينَصّ في العهد على أنواع مشدّدة أو متعددة من الأيمان ٠

وهو يصوّر الصفات المثالية التي يجب أن يتصف بها رجل السلطة من حملة السيوف في ذلك العهد ٠

وأسلوب النص مطنب تكثر فيه الجمل المترادفة وقد التزم فيه السجع والصناعة البديعية من طباق وجناس وتورية واقتباس ٠

وهو لصناعته ومتانة نسجه وما حلّه فيه كاتبه من الشعر ، وما استعمله فيه من الصور البيانية الكثيرة ومن الألفاظ العذبة والتراكيب الجزلة يكاد يكون شعرا لولا فقدان الوزن والإطناب ويكفي مثالاً على ذلك أن ننتبه الى أنه قرب خاتمة العهد قد حل البيت :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلو صوّرنَ نفسك لم تزدْها   على ما فيك من كرم الطباع

والسجع ظاهر في جميـــع العهد لا ضرورة للدلالة عليه وكذلك الجنـــاس : المصفح بالصفاح ، والطباق : نهيها وأمرها ، والمبالغة : اذا أرهف صوارمه من أدنى الصعيد وجف لهول مواقعها باب الحديد •

ونظهر كثافه الصور البيانية في قوله :

فهو المطوي في أثناء ضمائرنا وإن تقلّدها قبله سواه • والمنويّ في أحناء سرائرنا وإنما لامرىء ما نواه : قد حلب قِدَمُ هجرته الدهر أشطُره وكتب حسن خبرته من عنوان السير أسطُره ، وتمثلت مرآة الزمان لفكره فاجتلى صور الوقائع في صفائها ••• الخ •

وهذا الاسلوب ينسم بالخيالبة الشعرية • ومثل ذلك قوله :

وزعيم جيوشها التي اجتنت من فصب قواضبه ، ثمر النصر غير مرة ، ومُقدّم عساكرها التي اجتلتِ به وجوه الظفر الحلوة في أيام الكريهة المرة •

هـ ـ نصان منه في الانشاء الوصفي (الكتابة الاخوانية)

نص لابن نباتة في وصف زيادة النيل زيادة مفرطة (جاء في صبح الأعشى للقلقشندي في الجزء ١٤ ، ص ٢٧٤) •

مقدمة للقلقشندي :

« ومما قاله شيخنا الشـــيخ جمال الدين بن نباتة الذي أطاعته من الآداب جوانح نظمها ونثرها وسخرت له بحور الشعر فقالت له الآداب اختر من دُرّها ، فسبحان من يسّر له ممتنع الكلام وهوّنه ، وجعله من الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه • فما أشف دقيق فكره الجليل وما أكثر ما يضحك زهر تقاطيعه على زهر مقطعات النيل فما كان الا مخصوصاً في الادب ببحر الهبات ، وكلامه في العذوبة والبلاغة يزري بالفرات وابن الفرات • وإنْ قيل : أي أصدق كلمة قالها شاعر بعد لبيد بقال قول ابن نباتة :

فلا عجب للفظي حين يحلو   فهذا القطر من ذاك النبات

النص :

« وأما النيل فقد استوى على الأرض فثبّت فيها قدمه وامتدّ نصل تيّاره كأنصيف الصقيل فقتل الإقليم وهذا الاحمرار انما هو دمه :

حمرتُها من دماء ما قتَلَت   والدمُ في النصل شاهدٌ عَجَبُ

فلم يترك وعدا بل وعيدا إلا وفّاه ولا وهدا بل جبلا إلا أخفاه ، أقبل كالأسد الهصور اذا احتدّ واضطرم . وجاء من سِنِّ الجنادل فتحدّر وعلا حتى بلغ أقصى الهرم . وعامل البلاد بالخيلاء وكيف لا ؟ وهو سلطان جائر أُيِّد بالنصر قائلا : ان كنتُ بليت بالاحتراق في أرضكم فأنا أفيض بأن أرميَ من بروق نباري بشرر كالقصر .

هذا وطالما قابَلنا قبلها بوجه جميل وسمعنا عنه كل خبَر خير ثابت ويزيد كما قال جميل ، وكل بديع من آثار جود يصبغ الثرى فيخضرّ بخلاف المشهور عن صبغة الليل وطالما خصصناه بدعاء فكانت الراحة به كمقياسه ذات بسطة ، وكمنازل الخصب بقدومه المبارك ذات غبطة ، ومنحناه ، بولاء وثناء هذا يدور من الاخلاص بفلك وهذا يعذب من البحار بنقطة . كم ورد الى البلاد ضيفا ومعه القرى . وكم أتى من لا يعجز آيات الخصب الى أهل القرى ، فهو جواد قد خلع الرسن ، ساهر في مصالح الخلق وقد ملأ الأمنُ أجفانهم بالوَسَن ، جامعٌ لأهل مصر من شفياه ومرعاه ووجهه بين الماء والخضرة والوجه الحسن ، كما بات سير مقياسه يشمل بظلّه الغائبين والحاضرين ، وكم رفع على الـ[illegible] راية صفراء[1] فاقع لونها تسر الناظرين وبلغ وبلّغ بخرير التيار سلامه ، وبات [illegible] س بوفائه من حذار الغلاء تحت الستر والسلامة ، وخلّق صدر العمود ، وكيف لا يتخلّق بشير العباد والبلاد ، ودعا مصر لأخذ زخرفها فسواء قيل : ذات العمود أو ذات العماد . وبسط يده ببركة الماء فقيل : سلام لك مِن أصحاب اليمين : وخضّب بنانه . وأقسم بحصول الخير فقيل لمخضوب البنان يمين ، وأشار الى وصول المدّ المتتابع وقبض يده المخلّقة على الماء فوفت وما خابت فروج الأصابع ، ونادى رائد الوفاء ،

---

(١) الراية الصفراء شعار الدولة المملوكيه .

ولكن كم حماه في الارض لمن ينادي . ونست أصابع الزيادة ونسب حتى قال الناس : ما ذي أصابع دى أبادي .

هذا وقد قرنت زرابيّ الدور المبثونه بالنمارق . وقال المقياس : نغطّت منها الدّرج فنال الرجاء وظهرت الدقائق ، فهو جم المنافع عذب المنابع ، يشار في الحقيقة والمجاز اليه بالاصابع .

فأعاده الله الى ذلك النفع المعهود . وأرانا منه الأمان من الطوفان الى أن نرد الحوض المورود ، وكفى أهل مصر هذه المصيبة التى إذا أصابتهم قالوا : إنا لله وإنّا اليه راجعون . ولا ابتلاهم بمثل ما ابتلى به قوما جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشَوْا ثيابهم فإنّما يستغشي ثيابه منهم الفقراء في المطر ويجعل أصابعه في آذانه منهم المؤذّنون ، اللهم انك وليّ النعمة ، وأوْلى برحمة خلقك من فيض هذه الرحمة » .

كلمة في هـذا النص :

أورد المؤلف نصّ ابن نباته ضمن جملة نصوص وردت في وصف زيادة النيل تلك الزيادة المفرطه التي يخشى فيها من أذى طوفانه .

وهذا النص من جملة النصوص غير الديوانية وهو كما ترى في وصف الطبيعة القوية الطاغية وقد ورد ضمن الرسائل التي توصف فيها الحوادث والماجريات وقد رأينا أنه يعني بالرسائل ما يكتبه الادباء في غير المكاتبات الديوانية .

وقد قدّم للنص بتعظيم أدب ابن نباتة شعره ونثره واعتزاز ابن نباتة نفسه بأدبه وحلاوة لفظه في البيت الذي أورده له . وقد جعل زهر أدبه يضحك ويزري بزهر مقطّعات النيل كما جعل لفظه أعذب من الفرات ويزري بابن الفرات الشاعر المشهور .

وهو يصف ماء النيل بقوة الاندفاع وباحمرار الماء والعلو في مبالغة ظاهرة فقد جعله يبلغ أقصى الهرم . وهو حائر بين غبطته بزيادته وسروره بما تأتي به من خير وبين خوفه من أذى زيادته المفرطة ورجائه ألا ينقلب الى مصيبة يقول الناس معها إنا لله وإنا اليه راجعون .

ونراه يشيد بخيراته ويعنى بوصف زيادته على الحد الأعلى لمقباسه : فوفى وزاد وعم بخيره البلاد • ويختم كلامــه بالدعاء الى الله أن يحفظ الناس من افراط فيضه •

وتبدو ثقافة الكاتب الادبية في كثير من العبارات كقوله : « يزيد كما قال جميل وهو يشير بذلك الى بيت جميل شينة :

اذا قلتُ مابي يا بثينةُ قاتلي   من الحبّ قالت : ثابت ويزيد

وتبدو شاعريته في صناعة نثره وأخيلته القريبة من الشعر وفي استشهاده بالشعر خــلال نثره •

وقد أغرق في السجع وفي سائر ألوان الصناعة البديعية كالاستخدام في قوله : وبلغ وبلّغ بخرير التيار سلامه • وأكثر من الصور البيانية ومنها قوله : « وخلّق صدر العمود وكيف لا يخلّق بشير العباد والبلاد » • وجميع كلامه على هذا النمط ، واقتبس من القرآن : « وقد قرنت زرابي الدور المبثوثة بالنمارق : وضمن الشعر : وما خابت فروج الاصابع « ما ذي أصابع ذي أيادي » وخياله جميل وألفاظه رقيقة •

٢ ـ نص من [illegible] وهو في المناور :

قال[١] في « التعريف » : « وهي مواضع رفع النار في الليل والدخان في النهار » •

وذلك أنّ مملكة إيران لمّا كانت بيد هولاكو من التتار • وكانت الحروب بينهم وبين أهل هذه المملكة (يريد مملكة السلاطين المماليك في مصر والشام) • كان من جملة احتياط أهل هذه المملكة أنْ جعلوا أماكن مرتفعة من رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلا ويثار الدخان نهاراً للإعلام بحركة التتار اذا قصدوا دخول

---

(١) بقصد ابن فضل الله العمري مؤلف كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » وهو من رجالات العهد المملوكي التركي . ومؤلف « مسالك الأبصار في ممالــك الأمصار » .

البلاد لحرب أو اغارة • وهذه المناوره تارة تكون على رؤوس الجبال وتارة تكون في أبنية عاليه ومواضعها معروفه يعرف بها أكثر السفّاره ، وهي من أقصى ثغور الاسلام كالبيرة والرحبه ، وإلى حضرة السلطان بقلعة الجبل حتى إنّ المتجدد بالفرات إن كان بكرة علم به عشاء ، وانْ كان عشاء علم به بكرة « ولما يرفع من هذه النيران أو يدخّن من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف حالات رؤيه العدو والمخبر به باختلاف حالاتها تارة في العدد وتارة في غير ذلك ، وقد أرصد في كل منور الديادب[1] والنظّارة لرؤية ما وراءهم وإيراد ما أمامهم ولهم على ذلك جوامك مقررة كانت ولا تزال دارّة • قال وكان ينوّر بمدينة عانة من تلك المملكة قوم من النصّاح بحجة أمر سوى التنوير ويستر عليهم أهل البلد حبّاً للملوكنا فترى تارة ناره أو دخانه بخربة الروم وبالجرف أيضا • ويرفع فيهما أو في إحداهما فيرى من كل منهما بوادي الهيكل ••• » (ويعدّد بعد ذلك كيف ترفع النار من مركز الى مركز حتى تصل الى السلطان في قلعة القاهرة) •

هذا النص ليس من إنشاء القلقشندي وانما هو نص من كتاب التعريف أحد مراجع المؤلف التي ذكرناها قبل •

وهو هنا يشرح صورة استعمال هذه النيران والأدخنة وارسالها على أشكال مختلفة للدلالة على الاحوال المختلفة المقصودة • ويذكر أماكنها من الجبال والابنية ومراكزها المتتالية وصفاً واضحاً دقيقاً ويتبين من هذا الوصف أهميتها في سرعة نقل أخبار العدو وفي الحرب والسلم وهي جزء مهم من أعمال رجال المخابرات حينئذ •

ويلاحظ في آخر ما أوردناه من النص كيف كان يتستر الناس على مرسلي هذه النيران من البلاد الخاضعة للعدو لأنهم يعرفون أنّه عدوّهم ويرون أن سلطانهم الشرعي هو السلطان القائم في القاهرة •

ويدلنا النص على أنّ المماليك استفادوا من العيون والارصاد في البلاد التي

---

(١) الديادب جمع ديدبان وهو الحارس . والجوامك الرواتب مفرده على القياس جامك .

خضعت للتتار ليكونوا دائما على استعداد وتعبئة ، وأنّ عمل أولئك العيون والارصاد كان لوناً من الكفاح العقيدي ضد المحتلّ .

والنص مشوّق غني بالمعلومات المفيدة خال من الصنعه والتكلف سهل الاسلوب مألوف الألفاظ ولم يخلُ من استعمال بعض الالفاظ الأعجمية المعرّبة (كالديادب) و (الجوامك) .

ملاحظة خاتمة :

كان آخر ما ختم به المؤلف الكتاب حمده الله على أن هذا الكتاب قد راج سوقه فتسارع الناس الى تناسخه إعظاماً لقيمته .

ولا يذكر المؤلف ذلك متبجّحاً بل متواضعاً فرحاً بأنّه قدم الى إخوانه الكتّاب ما يعجبهم ويفيدهم .

ونختم نحن حديثنا عن هذا الكتاب بأنّه فد سد ثغرة في تاريخنا الحضاري الادبي الديواني حبّذا نحن لو وعينا واجبنا فعرفنا كيف نسدّ مثل هذه الثغرة في عصرنا وسعينا جاهدين الى القيام بواجبنا نحو أنفسنا وأمتنا ووطننا ، وبأن النصوص التي أوردناها للقلقشندي وغيره من كتّاب العهدين المملوكيين كانت تسودها الصناعة البيانية والبديعية ولكنّها اذا قيست بنصوص القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني وابن الأثير في العهد الايوبي ظهر أنها أسهل أسلوبا وأوضح معاني وأقل تكلفاً وأكمل طريقة وأقرب فهما وأكثر ملاءمة لمقتضى الحال في الكتابة الديوانية وفي الكتابة الإخوانية ، من حيث الدقة والوضوح وسهولة الفهم وتجنّب الالتباس .

الحيـاة الثامنـة

في ظـل الدولـة العثمـانية

لمامة عامة موجزة(١) :

بدأ قيام الدولة العثمانية في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي على أنقاض الدوله السلجوقيه التركية في الأناضول وأخذت ستولي على أجزاء من الدولة البيزنطية واستمرت امارة تحبط بها الدول المجاوره مدة سبعين سنة فاضطرت ان تبقى دائما في حالة حشد واستعداد دائم للحرب واتخذت بروسة عاصمة لها ثم استولت على قطعة من الارض الاوروبية فحولت عاصمتها الى « أدرنه » واستولى السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ م على القسطنطينية التي عجز عن فتحها القواد الكبار من العرب وغيرهم ، ففتح بذلك أفقا جديدا لامبراطورية تركية واسعة فقد استطاع باستيلائه على مضيقي البوسفور والدردنيل أن يثبت قدميه في كل من آسيا وأوروبا واستطاع خلفاؤه من بعده أن يوسعوا امبراطوريتهم بحيث أصبحت تضم البلاد العربية وجزءا واسعا من القارة الاوروبية ، ونمكن قائده البحري خير الدين بارباروس باشا هو وأخوه من أن يستوليا بفضل الجيش والاسطول التركيين القويين على الجزائر وأن يسيطرا على البحر المتوسط ثم استولى خير الدين على جزء كبير من تونس • وجاء سنان باشا الألباني فأكمل الاستيلاء على تونس وأرسل في سنة ١٥٦٨ م من مصر وكان يحكمها حينئذ حملة الى اليمن استكملت الاستيلاء عليه حتى وصلت الى رأس الخليج العربي ولم يكن الاتراك قبله قد استولوا الا على عدن ومسقط •

واستطاع سنان باشا أن يطرد فرسان القديس يوحنا من طرابلس الغرب وأن يستولي عليها ويستكمل شمال افريقيا ما عدا القسم المرتفع من مراكش المسمى موريتانيا ، على أن طرابلس وتونس والجزائر بقيت شبه مستقلة وكانت تتبع الباب العالي اسماً ، وكان الحكم فيها وراثياً عسكرياً فردياً يدلل فيه الحاكم على خضوعه للسلطان العثماني بارسال هدية اليه تقوم مقام الجزية وقد أصبحت سلطة

---

(١) ملخصة عن تاريخ العرب لفيليب حتي مع بعض تعليقات واستشهادات من الشعر في هذا العصر .

حكام شمال افريقيا بعد ذلك أكبر من سلطه حكام سوريه ومصر حين ضعف الاسطول العثماني في البحر المتوسط .

وكانت أعمال القرصنة تدر أرباحاً كبيره على حكومات شمال افريقيا وشعبها وكان القراصنة فيها يشتركون مع الاسطول التركي في معاركه ضد أعدائه وكثيرا ما كان يعمل معهم منفيون من اسبانيا ، وقد بلغت القرصنة أوجها في النصف الاول من القرن السابع عشر . ثم كافحتها كل من انجلترا وفرنسا وأجبرتاها على عدم التعرض لهما على أن الدول الصغرى ، ومنها الولايات المتحدة حينئذ ، استمرت تدفع الجزية لها لتسمح لسفنها بالمرور حتى استولت فرنسا على الجزائر فتحولت القرصنة من الافراد اليها والى الدول الاستعمارية الاخرى التي أخذت تستعمر الشعوب فجعلت القرصنة عامة تشمل البر والبحر وجميع الشعوب المستضعفة .

تمت أكثر الفتوحات في شمال افريقا في عهد سليمان الاول ابن سليم وبلغت الدولة العثمانية أوجها في عهده فأخضع أكثر بلاد المجر (هونغاريا) وحاصر فيينا وافتتح رودس وامتدت سلطته من بودابست على الدانوب الى بغداد ومن شبه جزيرة القرم شمالا حتى شلال النيل الاول جنوبا .

وتولى السلطان مراد الرابع السلطنة سنة ١٠٣٢ هـ ثم غزا بلاد فارس سنة ١٠٤٤ هـ زمن الشاه عباس وفتح « روان » وفي سنة ١٠٤٨ هـ فتح بغداد بعد حصار ٤٠ يوما ، وقتل عشرين ألفاً من الفرس .

وقال المحبّي (خلاصة الاثر ، ج ٤ ، ص ٣٣٩) : « أكثر الناس من نظم الشعر والتواريخ لفتحها ومن ذلك قول تاج الدين المالكي :

خليفةُ الله مرادٌ غزا	قلعةَ بغدادَ فأرداها
وعندما حاصرها جيشه	اندكّ للأسفل أعلاها
وأصبح الشاهُ ذبيحاً كما	أُخبر عن كثرة قتلاها
هذا اختصارُ القول فيها فإنْ	قيل لقد اجملتَ ذكراها
فلتشرحَنْ فعل مرادٍ بها	مؤرخا ، قد ذُبّح الشاها

ووقع في زمنه سيل كبير أغرق مكة وهدم الكعبة فعدّ من مآثره بناؤها

وكان عاشر من بناها فأرخ ذلك أحدهم نثرا بقوله : « رفع الله قواعد البيت » .
وقال أحدهم :

وخاتمهم من آل عثمان بدرهم
مراد المعالي أسعد الله شارقه

« خلاصة الاثر ٤ : ٣٤٠ ـ ٣٤١ »

تولى بعده أخوه السلطان ابراهيم بن أحمد سنه ١٠٤٤ هـ وفي عهده فتحت قلعة القوزاق سنة ١٠٥ هـ وقلعة خانية بجزيرة أقريطش (كريت) دون قلعه (فندية) الحصينة . وقد مدحه الأمير منجك صديق ابن النقيب فقال :

لو كنت أطمع بالمنام توهما
لسألت طيفك أن يزور تكرما

* * *

ملك من الإيمان جرد صارما	بالحق حتى الكفر أصبح مسلما
لو شاهد المطرود[1] سطوة بأسه في صلب آدم للسجود تقدما	
العدل أخرس كان قبل زمانه	أذ نت له الأيام أن يتكلما
لم تخط آساد الفلا في عهده	بين الشقائق خيفة أن تتهما
عقد المثار على العداة سحائباً	لولا الحيا لسقى العدا منها دما
ودعت ظباه الطير حتى إنه	قد كان يسقط فرخه نسر السما

« خلاصة الاثر ١ : ١٤ »

* * *

وعزل ابراهيم فتولى مكانه ابنه محمد الرابع وهو صغير السن فتهاون به رؤساء الدولة واضطربت الامور حتى تولى الصدارة الوزير محمد باشا كوبرلي فقضى على الفساد الداخلي ثم افتتح قلعة (ينوه) وبعض القلاع الاخرى .

(١) المطرود : ابليس .

وقامت ثورة في بلاد الشام خلال غيابه بزعامة والي حلب ووالي دمشق وجمع كبير من العسكر فقتل الثائرون مع من ناصرهم من سكان البلاد •

وخلف محمد كوبرلي ابنه أحمد كوبرلي وكان عهده حتى أواسط مدته خير العهود رونقاً وحفظاً للدين وتنفيذا لاحكام الشريعه • وقد أسهم في الفتوح وهزم ثوار المجر •

وتمّ على يديه فتح قلعة (قندية) بعد حصار سنتين ، صلحا سنة ١٠٨٠ هـ فسلّمها اليه قائدها « موروزفين » •

« خلاصة الاثر ٤ : ٣١١ ، و ١ : ٣٥٣ »

وقد عظم الفرح بهذا الفتح وعمت البشائر ونظمت فيه التواريخ ، ومدحه ابن النقيب (ت ١٠٨١ هـ) بقصيدة مطلعها :

ما آل برمـــك في ذرا بغـــداد   يوم الفخـار ولا بنـو عبّاد

« ديوان ابن النقيب ٩٠ — ٩٣ »

كانت الامبراطورية العثمانية أطول الدول الاسلامية عمرا ، امتد حكمها من سنة ١٣٠٠ م حتى سنة ١٩٢٢ م على تفاوت في الضعف والقوة والسعة والضيق بين مختلف عهودها •

قام نظام العثمانيين على سلطة الأسره وعلى القوة العسكرية وكان الهدف الرئيسي من الحكم مصلحة السلطان ومن يليه من الحكام وليس مصلحة الرعايا التي كانت تضم قوميات وبلادا مختلفة وأديانا متعدده وثقافات متباينة متفاوتة ولا يجمع بينها الا الخضوع لقوة السيف • وكان الفلاحون الاتراك أنفسهم معدودين في جمله الرعايا فقد كانوا يخضعون لافراد الطبقة الحاكمة ، وكـان الاتراك أقلية بالنسبة الى مجموعة الشعوب التي سيطروا عليها ، ولم يحاولوا أن يستعمروا البلاد العربية أو يحلوا جاليات تركية فيها الا في بدء القرن العشرين حين قاموا بمحاولة التتريك على أساس نقل أسر عربية الى الاناضول وأسر تركية الى سورية وغيرها • وكانوا يسمحون لانفسهم بالزواج مـن غـير المسلمات

ويستخدمون في أعمال الحكومة شبانا غير مسلمين وكثيرا ما كان هؤلاء يدخلون في الاسلام مجددين بذلك حيوية الدم التركي عن طريق التمازج المستمر ، وقد وصل كثير من الجراكسة واليونان والألبانيين والسلاف والطليان والأرمن الى أعلى مراكز الدولة ومنها الصدارة العظمى (أي رئاسة الوزراء) .

حملت هذه الدولة بذور الانحلال في طياتها لانها تكونت من خليط غير متجانس لا يمكن أن يثبت أمام دول مناهضة مجاورة تسودها قومية واحدة . ومما زاد في ضعفها نظام الملة ، وهو ترك الطوائف الدينية تتمتع بقدر كاف من الاستقلال الذاتي حاولت فيه الدولة العثمانية ان تحلّ مشكلة الأقليات .

ومن أسباب الضعف أيضا تركيز السلطة في يد رجل واحد هو السلطان الخليفة[1] ، وعدم وجود نظام دقيق للاستخلاف فكثيرا ما كان أبناء السلاطين يقتل بعضهم بعضا أو يدسّ بعضهم لبعض في سبيل السلطة .

ومن أسباب الضعف عدم تجديد النظام العسكري الانكشاري فقد كان في أول الدولة رائعا وكان له الفضل في النصر ، ولكنه فسد بعد وأصبح علة ضعفها وانكسارها لأن السلاطين لم يراعوا عوامل الزمن فيجدّدوه الا حين لم يعد ينفع العلاج زمن السلطان محمود الثاني ، بسبب ضعف الدولة ، وقد انتهز محمد علي باشا حاكم مصر فرصة محاولة التجديد ليوجّه الى الامبراطورية ضربة قاصمة كادت تقضي عليها لولا وقوف انجلترا بجانبها .

وقف سيل الفتح التركي منذ خيبة الجيش في الاستيلاء على فيينا سنة ١٦٨٣ م وأصبح هم الاتراك أن يجدوا الوسيلة للاحتفاظ بما فتحوه وتحولوا الى مدافعين .

ومن أسباب الضعف نظام الجباية الذي كان يضمّن لاناس يستغلّون الشعب ولم يكن ليهتم السلطان أو الحكام الا بالحصول على أكبر قدر من المال ولذلك كان ملتزمو الضرائب للسلطان أو للوالي يفتنّون في فرضها على الرعايا وفي ابتزازهم .

---

(١) لم تطلق على السلطان لقب الخليفة الا في عهد متأخر في القرن التاسع عشر الميلادي .

قال الغزي : « ولما بلغ الإمامَ عليّ بن محمد المقدسي (٨٥٦ ـ ٩٣٤ هـ) ان العثمانيين ضربوا الجزية حتى على المومسات تنخّع الدم من كبده ، وتمنى الموت ، للقهر الذي أصابه وللغيرة على دين الاسلام وتغيُّر الاحكام وقال في دخول السلطان سليم دمشق هذه الابيات :

ليت شعري من على الشام دعا بدعاء خالص قد سمعا

فكساه ظلمة مع وحشة فهي نبكينا ونبكيها معا

قد دعا من مسّه الضُّرُّ من الظلم والجور اللذين اجتمعا

فعلا السحبَ دُعا فانبعثت غارةُ الله بسا قد وقعا

فأصاب الشام ما حلَّ بها سنةُ الله التي قد أبدعا

« الكواكب السائرة ج ٢ ، ص ١٩٣ »

فالغزي يأسى هنا لما أصاب الشام من بلاء بسيطرة العثمانيين عليها وارهاقهم أهلها بالمظالم . والابيات وان كان ظاهرها التشكي من أهل البلد أنفسهم وان ما حل بها هو نتيجة الفساد فيها واستجابة من الله للمظلوم من أهلها . الا أنها تتضمن التشكي من الدولة العثمانية التي أوصلت الامة المحكومة الى هذه الحال من البؤس ، وهي تتضمن ضرورة اصلاح الناس أنفسهم وأخلاقهم وضرورة تضامنهم ليرتفع عنهم غضب الله وأذى الظالم وهي ترتدي الطابع المستسلم للاقدار غير أنها تدعو دعوة مستترة الى عدم الرضا بالظلم وفيها تكرار لا مبرر له الا تأكيد معنى الظلم في أذهان الناس وفيها طلاوة تعبير وموسيقا جميلة كقوله : فهي نبكينا ونبكيها معا ، ولكن فيها كذلك تهربا من مجابهة المسؤولية ومن التخطيط لتغيير الحال .

ومن أسباب الضعف أيضا نظام الاقطاع الذي جعل أصحاب الارض الكبار ينصرفون عن الإعداد للحرب الى الاستمتاع بما تدرّ عليهم أراضيهم الواسعة وثرواتهم الطائلة .

ويضاف الى الاسباب السابقه طمع الدول الاوروبية القوية في أن تحصل لدى تركيا على مناطق نفوذ ، وذلك حين ضعفت الدولة العثمانية وأصبحت تسمى ، سخرية ، بالرجل المريض • ولم يكن يحفظ الدوله من الانهيار التام الا تحاسد القوى الطامعة فيها واختلافها على تقسيم الغنيمة وعدم اتفاقها على عمل موحّد ضدّها ، فلمّا قامت الحرب العالمية الاولى وانتهت بهزيمة الدولة وحلفائها كان في ذلك نهاية امبراطوريتها الشاسعة واقتصارها باسم الجمهوريه التركية على الاناضول وجزء صغير جدا من الساحل الاوروبي •

وقد قلنا في مقدّمة الكتاب أن العهد العثماني ينقسم الى ثلاثة أدوار : دور القوة ، ودور التوازن والضعف ، ودور الانحلال ، وعينا بدايات هذه الادوار ، ونهاياتها وقلنا بأن السلطان سليمان القانوني قام باصلاحات هامة في عهده سمي من أجلها بالقانوني وأفادت البلاد كثيرا ولا سيما في ناحية العلوم والمدارس وتخريج موظفين للدولة وعلماء ، ولكنّها فسدت بعد كما فسد كل شيء غيرها • فليرجع الى المقدمة لتذكّر ذلك •

وننبّه هنا الى أن الرحلة في طلب العلم قد استمرت في هذا العهد ، كما استمرت وحدة الحركة الفكرية فلم تظهر فيها أي نزعة إقليمية أو تفرقة في تحصيل العلم بين قطر وآخر •

حال الشعر في العصر العثماني ومدى الاهتمام به

كان بعض شعراء العصر العثماني المتفوقين على أقرانهم يرون أنهم خير ممّن تقدمهم من الشعراء الفحول برغم تأخر زمنهم وبرغم فقد الكرام من العظماء الذين يهبون الجوائز الكبيره ويشجّعون الأدب ويتذوقونه ويشاركون فيه

يقول الشهاب الخفاجي في مقدمته لـ « ريحانة الألباء » يفضل معاصريه على المتقدمين في الشعر ويعتذر لتقصير بعضهم (ص ٦) :

« والرؤساء شعراء لا ينظمون ولا ينثرون ، وما فيهم من صفات الشعراء الا أنهم يقولون ما لا يفعلون ، واذا كذب مادحٌ أحدهم اهتزّ وطرب ، وجازى من سراب وعده بكذب على كذب ، وبالوعد الفطير لا يُخسّر الحسير .

* وبأحسنتَ لا يباع التشعير *

وبرعد الوعد ، لا يسقى غرس الحمد

فلا تلوموه في وعد يردّده

في وفت مدحي له علّمته الكذبا

ومع هذا فكم هبت لهم أنفاس معطرة بالنجاح ، مزرية في وقتها بأنفاس الصبا في الصباح ، يهزّ لها السماحُ هيف مَعاطفه ، وينشر تحت أقدامها الزمانُ بساط عواطفه ، تتمسك كفّ الشّمال بأذيالها ، وتتفيّأ العشاق في هجير الأشواق ضافي ظلالها ، وترد صافي زلالها ، من كل حديث تليد وطارف له وشي على كاهل المجد ولا كوشي المطارف ، تزهو به الطروس على صفحات الخدود المحسّنات بالسوالف . في كل ورقة منها خمائل ، تسوغ مياه فصاحتها في لهوات الجداول .

تكاد يدي تندى إذا ما لمستها

ويَنبتُ في أطرافها الورَقُ الخُضْرُ

من كل من ألحق المتأخر بالمتقدم في تطبيق مفاصل معانيه ، وإخراج مخبآت عطره من جَوْنة مَبانيه ، وإنْ تأخر عصره فلا بأس ، في تأخر النتيجة عن القياس والخدم تتقدم بين يدي السادة ، والسّنن أُمِر بتقديمها على الفروض في العبادة ، وتقدّم الآحاد ، يرقى مرتبة الاعداد .

أو ما ترى أن النبي محمدا   فاق البرية وهو آخر مرسل

ا فيا أدلاء الهدى إني آنست من جانب الطور نارا بها تهتدون ، أو آتيكم بشهابٍ قَبَسٍ لعلكم تَصْطَلون فان لم يترك الأوّل شيئا للآخر ، فخير من الكثير الغائب القليل الحاضر ... » .

وهذا الكلام يدلّ على إعجاب بالنفس وغرور ، ولكنّ قائله أديب مُجيد شعراً ونثراً على الحقيقه وفق دوو عصره • ولقد استمرّ الاهسام بالشعر في هذا العهد حفظا ومذاكره وانشادا ومدحا للعظماء أحيانا في جميع أصقاع المِنطقة العربية •

ولأحمد البربير الدمياطي المولد البيروتي الاصل الدمشقي الوفاة (ت ١١٢٦ هـ = ١٨١٤ م) كلام لطيف في الثقافه الضرورية للشاعر وفي علو جاهه : « ••• ان الانسان لا يستحق الوصف بالشاعر ، الموجب له العزّ والترف ، إلاّ إذا احتوى من كل علم من العلوم على طرف ، وذلك لان الشاعر من ينظم في كل فن ، ولا ينظم في كل فن الا من دخل حانات العلوم فشرب كأسا من كل دنّ » • (أسـامة العانوتي ، ص ٥٣ • الحركة الادبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر) •

وكان الشعراء في هذا العهد ، كما كانوا في العهد المملوكي ، كثيرين • وكل من الريحانة للخفاجي ، ونفحة الريحانة وخلاصة الاثر للمحبي ، وسلك الدرر للمرادي ، وحلية البشر للبيطار ، يطالعنا باسماء كثيرة لهم تعد بالعشرات وأحيانا بالمئـات •

وترجع كثرتهم الى ما كان للشاعر من جاه في مجتمعه ولما كان يناله من خير أحيانا لدى حكام البلاد وأعيانها ، والى سحر هذا الفن في نفسه وفي نفوس الناس حوله • وكان نظم الشعر زينة لصاحبه وهواية محبّبة سائدة لا يُعفّي عليها الزمن ولا تضعضها الأحداث •

وكان الشعر ضرورة لازبة للانسان المثقف ، فلا بد من أن يشارك بنصيب من الشعر قلّ أو كثُر ، ولا بدّ من أن يمرن عليه حتى يسهل عليه النظم ، وقد يُضطَر الى مطارحه مع أحد أصدقائه أو معارفه أو أنداده أو خصومه •

ولعلّ الذي كان يشجّع عليه سهولةُ كثير مما كان يقال وسطحيته •

على أنّ هذا العهد لم يعدم شعراء كانوا قمّة في حياتهم بالاضافة الى غيرهم ، كابن النقيب ومنجك في القرن الحادي عشر الهجري •

وكان أكثر الشعراء الهواة يقولون الشعر مع انصرافهم الى حرفهم العلمية او العملية الصناعية فلم يكن ينتظر منهم أن يبدعوا أو يحلّقوا • ومن انصرف منهم الى الشعر لغناه ورفعه مكانته الاجتماعية ، كابن النقيب فلا يعدّ شاعرا محترفا بل هاويا مجيدا بالقياس الى عصره •

وكانوا يكثرون من نظم المقطوعات في فكرة عابرة أو عاطفه طارئه أو بارقة خيال أو نكتة فاحشة أو ضحكة مُجلجِلة مستجيبين الى رغبتهم في النظم دون إرهاق أنفسهم •

وكان الى جانب المقطوعات قصائدُ طويلة في المدح ، والمدح النبوي ، والغزل ، والرثاء وغير ذلك من الموضوعات •

وكان لغياب العنصر العربي عن الحكم أثر في ضعف الشعر فلم يكن الحاكم ناقدا نامي الذوق الادبي يستطيع أن يفرق بين جيد الشعر ورديئه الا اذا كان قد تثقف ثقافة عربية أدبية جيدة • وهذا لم يكن يتاح الا قليلا •

ولمّا كان أكثر الشعراء كما قلنا يحترفون عملا آخر فهُم إمّا عالم تثقف ثقافة أدبية فلم يسلَم شعره من الجفاف العلمي الذي عرف به العلماء الشعراء وإما صانعٌ ضئيل الثقافة يتصف شعره بفقر المعاني والصور وهلهلة الأسلوب واللغة وخشونة المشاعر •

ووُجد أحيانا بعض شعراء لا يأنفون من ذلّ السؤال بشكل مُزْرٍ • يقول نصر الله الطرابلسي الحلبي (مما أورده الطباخ في أعلام النبلاء) :

ولم يبــق الا ماءُ وجــهٍ أرقتُه   وحسبي بشعري شاهدا ومترجما

ولا يزال ما بين أيدينا من مطبوع الشعر العثماني قليلا وأكثر ما خلّفه شعراء هذا العهد وأدباؤه مخطوط في مكتبات الغرب أو الشرق وبعضه ضائع أو مفقود • ولذلك قد تكون أحكامنا عليه قاصرة تقبل النقد والتغيير •

ومصادرنا التي نستقي منها نصوصه وأحكامنا عليه هي دواوين الشــعراء وكتب الادباء التي طبعت ، وكتب التاريخ أو الموسوعات أو التراجم •

ونجد أحيانا لمعات مشرقة لدى بعض الشعراء سنشير الى بعضها في حينه . ومس عندهم أمثال هذه اللمعات منجك وابن النقيب والخفاجي ، الذين يمكن أن يعدّوا بمجموع شعرهم لامعين بين أقرانهم .

وكان كثيرون من أدباء هذا العهد يجمعون بين الشعر والنثر كأدباء العهد المملوكي قبلهم ، وينظمون في الاغراض المختلفة ويقتدون بالشعراء السابقين .

ولم يكتفوا بالاغراض التقليدية ، بل اهتموا بالألغاز والأحاجي والمعمّيات . وانتشر بينهم فن التاريخ بحروف الأبجدية شعرا ونثرا .

وكذلك نظموا في الفنون الشعرية المستحدثة التي أشار اليها المحبي وهو يترجم للشاعر الحريري رجب بن حجازي الحمصي (وهو شاعر زجال توفي في مدينة حلب سنه ١١٠١ هـ) فقال :

« وله كثير من الازجال والرباعيات والمواليا ، والموشحات والتواريخ ، والأحاجي » .

وقد أشار في تتمة هذا الكلام الى طابع اتّسم به هذا الشاعر وكان سـمة لكثيرين من شعراء هذا العهد وهو سهولة النظم فنراه يقول :

« ... وكل ذلك كان يقع له من غير تكلف رويّة ، بحيث انه في ساعة واحدة ينظم مئة بيت ومثلها قطعة أو قطعتين من الزجل والموشح ، وقس على ذلك البواقي » .

« المحبي ، خلاصة الأثر ، ج٢ ، ص ١٦٠ »

ويرتبط بسهولة النظم وسرعته سهولة الألفاظ والتراكيب وسطحية المعاني وقرب الصور والاعتماد على محفوظات الشاعر من النثر والشعر .

وكانت زيادة التصنع في الفنون والاغراض المختلفة من سمات هذا الشعر . ولكن بعض الشعراء كابن النقيب ومنجك كانوا يخالفون التيارات العامة السائدة أحيانـا .

وما بدا لنا بحسب مطالعتنا حتى الآن هو أنّ الدورين الاول والثاني من هذا العهد كانا أكثر وأحسن إنتاجا من العهد المملوكي الثاني الذي بدا لنا فيه انتاج الشعر ضئيلا سيئا . فإما أن يكون ذلك من قصور مطالعاتنا في العهد المملوكي المذكور وعدم استيفاء المراجع ونقصيّها ، وإمّا أن يكون من ضياع كثير من آثار الشعر فيه ، أو من قصور الذين ترجموا للادباء فيه فلم يذكروا مع تراجمهم مقادير كافية من شعرهم الجيد في مختلف الموضوعات من أمثال ابن حجر العسقلاني في كتابه « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » والسخاوي في كتابه « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » والغزي في القسم الأوّل من كتابه « الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة » . فقد تجلّى لنا أنّ المترجم اذا كان اديبا دواقة فإنّه يُعنى بالنصوص المستجادة للشاعر في مختلف الموضوعات أثناء ترجمته وذلك ما فعله كلٌّ من الخفاجي في كتابه « ريحانة الألباء » والمحبّي في « نفحة الريحانة » وفي « ذيل النفحة » .

وهذا ما كان قد فعله الأصفهاني في كتابه « الخريدة » حين ترجم لشعراء عصره .

وقد يكون فرط الضعف الذي ظهر لنا في العهد المملوكي الجركسي راجعاً الى أنّ الأمة قد خارت قواها بعد الحربين الكاسحتين الصليبية والتتارية ، وبعد المصائب الطبيعية الكثيرة المتوالية من زلازل وطواعين وأوبئة ومجاعات ، فاستسلمت الى النوم .

ومن أمثله الشعر الضعيف في هذا العهد قول حسين الأدكاوي يرثي الشيخ العشماوي :

يا أمّة الإسلام يا أهلَ الهدى	علماء منهم مبتدى أو منتهى
قد مات عشماويّكم نبأً لمن	بالمجد عن ثوب التأسّف ينتهى
مَنْ بعده للترمذيّ ومسلمٍ	أو للبخاريّ الصحيح الأوجَه
فالشافعي نادى ليوم مصابه	أوّاه ضاع مذاهبي وتفقّهي

« عجائب الآثار في التراجم والاخبار للجبرتي ج١ ، ص ١٩٦ »

فهذا النظم ضعيف المعنى بعيد عن روح الشعر الفني المؤثر ركيك الاسلوب مهلهل التراكيب يبدو على ناظمه فقدانه الموهبة الشعرية فقدانا كليا ، ومحاولته مع ذلك أن ينظم لشرضي تطلعه فكلف نفسه فوق طاقتها .

ولم يقتصر ضعف هذا الشعر على معانيه وأخيلته وعاطفته والنفحة الشعرية فيه بل تعدّى ذلك الى التركيب أيضا فقد أهمل الناظم حرف العطف وتكرار حرف النداء قبل الشطر الثاني من البيت الاول ، ورصّفَ الالفاظ في البيت الثاني ... إقامة الوزن دون رابطة ظاهرة بينها وقد زاد اللام حشرا في البيت الرابع .

ومن أمثلة الشعر الضعيف كذلك قول الامير منجك :

ذهب الشّـراع وضلّت المُلاح   في جُنح ليل ما لذاك صَبَاحُ

وقولُ الشاهيني :

أدركـتُ ما لا سوّلته تبيبني   وفعلتُ ما لا ظنّـه شـيطاني

« خلاصة الاثر للمحبي ، ج٤ ، ٤١٤ ، و ج١ ، ٢١٢ »

فالمُلاح جمع مَلاح لم ترد في لغة العرب ، ودخول لا النافية على الفعل الماضي لم ترد في لغة العرب ، ودخول لا النافية على الفعل الماضي لم ترد الا في صيغة الدعاء مثل : « لا أراك الله مكروها » .

ولكن الشاعرين لم يهتما بصحة الأداء النحوي واللغوي .

وتظهر الركاكة البالغة في بعض هذا الشعر . فهذا شاكر العمري الشـاعر الناثر (ت ١١٩٤ هـ) يقول في مدح رجل من آل المرادي :

فكـأن الزهــور فيهـا اسـتعارت
عَرْف خِيم الهُمـامِ ، نجـلِ المُرادي
وكـأنّ الطيـورَ تُملـي علينـا
وصـف زاكـي النجـار سـامي العِمادِ

« المرادي ، سلك الدرر ، ج٢ ، ص ١٨٣ »

وقد ذكر من مشاكل هذا العهد الأدبية الرئيسية مشكلة الازدواج اللغوي فلغة الناس العامية في واد ولغة الشاعر الثقافية في واد آخر ولا يستطيع الجمهور أن يفهمها • وهذا الازدواج اللغوي لا يقتصر على المردات ولو أنه اقتصر عليها لكان الأمر سهلا ولكنه يتصل أيضا بقواعد النحو الاساسية وبالمادة اللغوية من حيت المفردات والتراكيب •

وهذه المشكلة بدأت مع بدايه اختلاط العرب بالاعاجم وتكوّن اللغة العامية شيئا فشيئا ، وأخذت تستفحل مع تقدم الزمن وتظهر آثارها في لغة الشعر وتراكيبه • وهذه الامثلة من الشعر الضعيف يقابلها أمثلة كثيرة من الشعر الذي يقارب أحيانا مرتبة الإبداع وأحيانا يكون جيّدا لا ينحدر بحيث يعدّ ساقطا • وسنرى بعض هذه الامثلة ونحن نتحدّث عن بعض موضوعات الشعر •

شعر النضال في العهد العثماني ومنه المدح البطولي

نميّز في هذا العهد ثلاثة أنواع من المدح : الاول مدح السلاطين أو الوزراء أو القواد بمناسبة انتصاراتهم وما يلحق به من تهنئة ونحوها ، والثاني المديح النبوي وما يلحق به ، والثالث المديح الذاتي للعظماء والأصحاب والأقرباء :

أ ــ مدح السلاطين والوزراء والقواد بالانتصارات الحربية وشبهها :

لم نجعل هذا اللون من المدح أدب نضال وذلك لأنّه يتحدث عن انتصارات هجومية لا انتصارات دفاعية الغرض منها تحرير البلاد كما كانت الحال في الحروب الصليبية والمغولية • ولكن في هذا المدح لونا من أدب الحماسة والحديث عن الحروب ولذلك أفردناه وحده وألحقنا به بعض الشعر الذي يصوّر كفاح الشعب ضد والٍ ظالم يستبدّ به فيثور عليه ويحاربه وقد ينتصر عليه فيطرده ويضطر السلطان الى عزله ، وهذا الجزء الملحق هو في حقيقته أدب نضال شعبي يصوّر لنا أنّ الشعب لا تخمد فيه الحياة وأنّه مهما صبر على الظالمين فلا بدّ له يوما من أن يزيحهم أو يقضي عليهم •

لقد ابتعد الشعب العربي عن شؤون الحرب والسياسة أو أُبعد ولكنّ أصالته الحربية حفظت فيه الإعجاب بالقوة والرغبة بالاتصاف بها ، وحفظت لشعرائه الإشادة بها والإعجاب بالأبطال ، ولم تمت فيه روح الحماسة ولكنها نامت أو تخدّرت .

يقولُ عبد الرحيم العباسي (٨٦٧ ــ ٩٦٣ هـ) الشاعر المصري في وصف الحرب :

يعقد النقعُ فوقها سحبا كالليـ ـل فيه السيوف أضحت نجوما

ومتى ما رأت سوادَ شياطـ ـنِ بُغاهِ الحروب عادت رُجوما

« الريحانة ، ج٢ ، ص ٦٢ »

والذي يعنينا من هذين البيتين هو بقاء الروح الحماسية في الشعب العربي وفي شعرائه . أما معناهما والصورتان فيهما وصياغتهما فقديمة تجري على الأسلوب التقليدي القديم وقد استمدّ الشاعر المعنى والصورتين من شعر بشّار ابن برد ومن القرآن .

استقى صورة الليل والنجوم في تشبيه غبار الحرب والسيوف من قول بشّار المشهور :

كأنّ غبارَ النقع فوق رؤوسنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبه

واقتبس صورة الشياطين والرجوم من الآية : « وجعلناها رجوما للشياطين » .

ومن مديح منجك (١٠٠٧ ــ ١٠٨٠ هـ) للسلطان إبراهيم في ميميّته حين انتصر على أعدائه بحرا وبرا :

لو كنت أطمع بالمنام توهمّا لسألت طيفَكَ أن يزور تكرما

حاشا صدودكَ ان تذمّ فإنّها تحلو لدي وان أسفّت علقما

عذّبْ فؤادي بالذي تختارُه لو كنتُ منسيّا تركتُ وانّما

. . . .

لو بتُّ أشكو ظلمه لشكونه ... لمَلِك هذا الدهرِ أسمى من سما

* * * *

قد جهّز السفنَ التي لو صادمت ... رضوى بأيسر لمحه لتهدّما

« خلاصة الاثر ١ : ١٤ »

* * * *

فهنا نرى نمطاً من مدح العظماء طمعاً في الجائزة • وهو يجري فيه على سنه القدماء من حيث البدء بالغزل ويتذلّل في غزله لحبيبه مظهرا الثبات على حبه ويحسن التخلّص الى السلطان التركي الممدوح ويمدحه بالسمو على جميع معاصريه وبتجهيزه الأسطول القوي لحرب أعدائه •

وقال ابن النقيب يمدح الصدر الاعظم أحمد كوبرلي باشا فاتح جزيرة كريت ويخلّد فتحه العظيم • وكانت هذه الجزيرة تابعة لجمهورية البندقيه فاستطاع هذا الباشا أن يستولي على عاصمتها « قندية » بعد حصار سنتين واستسلام قائد حاميتها (مورو زفين) وهي قصيدة المدح الوحيدة في السلاطين في ديوانه .

ما آل برمك في ذرا بغداد ... يوم الفخار ولا بنو عباد

يوما بأوقعَ في النفوس مَفاخرا ... ممّا لكم من سؤددٍ وسَداد

حلّيتمُ جيدَ الزمان بدولة ... حلّت محلَّ الروح في الاجساد

جلَّ المهيمن كم أتاح لذا الورى ... منها جميلَ عوارفٍ وأياد

إيهٍ بعيشك يا زمانُ فلا تني ... أبدا بنشر مَحاسن الأمجاد

فتحوا بقندية مَعاقل أُرتجت ... قدما على الأمراء والأجناد

وافى لها الصدرُ الرفيعُ جنابُه ... علَمُ الغزاة ومُكمِدُ الحساد

وله بدين الحقّ صولةُ ناصح ... دكَّ الغزاةُ بها ذُرا الأطواد

تروي له الأيامُ طِيبَ مَفاخر ... ومآثرٍ عزّت على الأنداد

أنتم بني العلياء قطبُ مَدارها ... يوم الفخار وموئلُ القصاد

أشفعتمُ شرَفَ الجهاد بمقصِد ... أسنى ومسعاةٍ لخير مَفاد

وحللتمُ مغنى دمشقَ فأصبحت أيامُها تزهــو عــلى الأعيــاد

بلــدٌ بهــا للأنبياء مَراقــدٌ وبهــا حِمى الأبــدال والأوتاد

وبقيتمُ ظــلَّ البــلاد وأهلِها ما لاح برْقٌ أو ترنَّمَ شــاد

« ديوان ابن النقيب ٩٠ ـ ٩٣ »

يوازن ابن النقيب في هذه الابيات بين الممدوح وقومه وبين بني برمك وبني عباد ليخلص الى أنّ الممدوح وقومه أفضل ، ويذكر مآثر الممدوح وقومه الترك وأمجادهم وفتحهم فدية ، ويثني على جهادهم ويمتدح اخلاصهم لدينهم ويبدي سروره بحلولهم دمشق دون أن يعتبرهم غزاة محتلين ، ويرى أن أيامها أصبحت أعيادا بهم ويبدي اعتقاده بالصوفيه والصوفيين حين يجعل دمشق حِمى الأبْدال والأوتاد ، وهما رتبتان صوفيتان ؛ ويدعو للترك بالبقاء فيها . وذلك كلّه في أسلوب واضح سهل فصيح صحيح قوي فخم .

وقال عبد الرحمن البهلول (ت ١١٦٣ هـ) في حادثة حسين باشا قصيدة مطوّلة اخترنا منها الأبيات التالية :

« وتتلخص الحادثة كما وصفها رسلان بن يحيى القاري في رسالته عن (الوزراء الذين حكموا دمشق) في أنّ (حسين باشا دخل الشام في شهر جمادى الثاني /١١٥١ هـ/ وكان رجلا من الخوارج وأراد أن يظلم فما قدر . وسكّرت (أغلقت) الشام ودام القتل بينه وبين أهل البلد مدة من الايام ، وقتل من عسكره خلق كثير ، فللّه عسكر الشام وما فعل . دخلوا الى القلعة ، ورَموا بالمدافع على السراية (دار الحكومة) ، فهدّموا بعضها ، فلما نظر حسين باشا الى ما حلّ به من البلاء والنكير داخله الخوف والفزع ، وخرج في تلك الليلة على عجَل ، وقد كفّ الله شرّه عن الشام) » .

وما أجمله القاري فصّله البهلول في قصيدته وأرّخ للواقعة :

الأبيـات المختـارة :

صبراً لحكم قضاء في الأنام جرى
به دمُ الخلق من وشك الصدام جرى

لا يكشف السوءَ إلاّ اللهُ فهو على
كل العباد رقيبٌ جلَّ مقتدرا

مولىً ، نَواصي جميعِ الخلق في يده
إليه كلٌّ غدا بالعجز مفتقرا

ما مِن سكونٍ وتحريك يكون بنا
إلاّ بأمر حكيم أبدع الصورا

لنا جرت في دمشق الشام كائنة[1]
لربّنا قد شكونا هولَها الخطِرا

طالت علينا بخوف ليس نعهدُه
من قبلُ ، يوماً ، فصرنا نأخذ الحذَرا

نهارُنا فيه أسباب" معطّلة
وليلُنا في صباحٍ يصدع الحجَرا

ما ليلة تنقضي إلاّ ونقطعُها
همّاً بأفكار حُزن تقتضي السهرا

واذكرْ خوارق ظُلْمْ لا يُقاس به
ظلم إذا الأمر [illegible] من مُرّ البلاء مرا

والناس أضحَوا سكارى حائرين ولا
يدرون ما يفعل الباري بهم قدَرا

---

(١) حادثة بلغة الشام .

كأنهم سرب أغنام بمجزرة
لمورد الذبح كلّ بات منتظرا

منهم من اختار مأوى غير ممسكنة
والبعض سافر والبعض اختفى حذرا

من خوف ذي سطوة فيه الغرور لقد
أغراه في الناس ظلماً فاحتناً بطِرا

وكم بدت منه أنواع معدّدة
من القبائح شتى غير ما ذُكرا

فليته يكتفي في ألف واحدة
بل اجترى وافترى بغيا وما فترا

يا ويلَ من لم يخف نقض العزايم من
جناب مقتدرٍ كم طاغياً قهرا

لكنْ إلهُ الورى جازاه منتقما
منه بأفعاله لمّا به مكرا

ولا تسل عن أمور صعبة وقعت
يشيب من هولهنّ الطفل لو بصُرا

تجمّعت فِرقة من نحو حاكمهم
هي أصلُ إيقاد جمرٍ حرّه استعرا

همّوا بأن يكبسوا ليلاً فوارسَنا
هم أهل قبلتنا ، بل هم أسودُ شرى

حجم " غفير" لهم أردت ثمانية"
من أهل ميدانِ حربٍ يا لهم نفَرا

إذْ بالعدوّ محاليبَ الوعى نشَبوا
فغادروهم نُفوراً كالقطا ذُعُرا

تفرّقوا هرباً أيدي سبا ، ونبا
سيفُ العزيمة منهم والحِجى سَكِرا

آبُوا بخيبة آمالٍ بحيث رأوا
عقوبةَ البغي يا تعساً لِمن خسِرا

لهم تلت من أهالي الغَرْب شِرذمةٌ
حمقى بآلة شرٍّ تقدح الشّررا

صالوا علينا بسيف البغي وانتهكوا
بجَوْرِهمْ حُرُماتِ الله في الفُقَرا

طغوا بسفك دِماء المسلمين أسىً
ونهبِ أموالهم تبّاً لِمن فَجَرا

رامُوا أموراً بإفسادٍ فما شعروا
إلاّ وفيهم أسودٌ أحدقوا زُمَرا

ولم تزل جِلّقُ الفيحاءُ عامرةً
بكلّ ذي هِمّة عَليا اذا اختُبِرا

همُ الكرامُ لهم في كلّ حادثة
غوثُ الصّريخ ، وبذلٌ وافرٌ وقِرى

جزاهُم اللهُ خيرا عن جميع بني
دمشقَ والأجرُ عند الله لن يَتِرا

وكيف لا ودمشقُ الشامُ موطنُهمْ
مدينةُ الفضل مولانا لها اعتبَرا

بقولـه أنـا ربُّ الشـام إنَّ يـدي
عليكِ يا شـامُ أكفـي أهلَكِ الضَّرَرا

والشـامُ منشـأُ كـلِّ الأنبيـاء إذا
حقّقت في صِـدق نصٍّ جاءنـا خبَـرا

أرضٌ مقدَّسـةٌ بالأمـر تحرسُـها
أقطـابُ عـزم وسـاداتٌ بهـا حُضُـرا

فيهـا ملائكـةُ الرحمـن باسـطه
للحفـظ أجنحـةً قـد كُلّلـت دُرَرا

لكـنْ دهتنـا بهـذا العـامِ حادثـةٌ ،
عمَّـت ولا فتنـةُ التيمـور اذ ظهَـرا

لـولا المهيمـنُ بالألْطـاف داركنـا
فيهـا لكنّـا إذاً هلـْكى بهـا خَطَـرا

يـا فتنـةً مـا رأى الرائـي نظائرَهـا
في بلـدة حيـت في تاريخهـا نَظَـرا

« عن مقال للدكتور صلاح الدين المنجد في مجلة
مجمع اللغة العربية مجلد ٤٢ ، ج ٤ ، ص ٨٠٥ »

وقد أورد القصيدة كاملة الشيخ عبد الرزاق البيطار في كتابه « حلية البشر في رجال القرن الثالث عشر » . ولنا عليها الملاحظات التالية :

١ ـ هذه القصيدة ليست من الشعر الفني بل هي من قبيل النظم العلمي وإن كانت لا تخلو من عاطفة .

٢ ـ وهي من نوع الشعر التاريخي الذي شاع في هذا العهد وسُجّلت فيه الحوادث لتبقى في ذاكرة الناس وفي كتبهم وقد عني الناس به وكانوا يتباهون بنظمه .

٣ ــ هذه القصيدة سجل تاريخي لصدام أهل دمشق مع الوالي الظالم حسين باشا وهي تذكر تفاصيل الحادث وأسباب القتال ومراحله وكيف فر الوالي وتهنىء أهل دمشق بالنصر •

٤ ــ يقصد بأهل دمشق في القصيدة سكانها المدنيين والجنود من الانكشارية المحلية المسماة « اليرلية » ومن غيرهم ممن هم من أصل عربي دمشقي أو من أصل أعجمي ولكنه مستوطن دمشق •

٥ ــ في القصيدة حبٌ ظاهر لدمشق وأهلها وتعلق بها واعتقادٌ بأنها خير البلاد وان الله يحميها من كل سوء ويبطش بأعدائها •

٦ ــ تسجل القصيدة بمداد الفخر أنّ أهل دمشق لم يكونوا يرضون بالذل والظلم وأنهم كانوا يثورون ضد الولاة الظالمين القساة ، والشاعر يخصّ بالذكر من أهل دمشق سكان الميدان الذين تولّوا على ما يظهر العبء الاكبر من المعركة وكان أكثر جنود الانكشارية المحلية يسكنون في هذا الحي وكان قسم صغير منهم يسكن في حي سوق ساروجة •

٧ ــ يظهر في القصيدة شعور محلي وطنى ضد الوالي الغريب وجنوده كما تظهر شجاعة الدمشقيين في القتال •

٨ ــ ليس في القصيدة صور بيانية أو زخارف لفظية والشاعر مهتم بذكر الحقائق التي ترافقها العاطفة الطبيعية التي يشعر بها الانسان نحو أهل بلده ونحو أعدائه في حالة قتالهما • وليس فيها من صفة الشعر الا الوزن والقافية ، والعاطفة • وهي طويلة •

٩ ــ فيها أبيات ركيكة التراكيب ولكن أكثر أبياتها واضح متماسك الصياغة ، ولا تخلو بعض أبياتها من خطأ لغوي مثل ادخال الالف واللام على بعض ، أو نحوي كقوله فانظر فعلكه أشرا • وقد يكرر في الشطر الثاني ما قاله في الاول •

١٠ ــ للقصيدة طابع شعبي واضح ، تفكيراً وعاطفة وصوراً وألفاظاً •

المديــح النبــوي

ثابر الشعراء في هذا العصر على النظم في المدائح النبوية ولكن لم تظهر لهم قصائد تضارع ميمية البوصيري أو همزيته واستمروا على الاخذ بفكرة الحقيقة المحمدية القائمة على أن النبي هو أصل كل خير ورحمه ولولاه ما خلق البشر ، وعلى التوسل اليه وطلب الشفاعة منه وإزاحة الكرب •

وكانت دوافعهم الى نظم هذا اللون من الشعر هي دوافع من سبقهم نفسها • ومثال ذلك قول الاستاذ الامام أبي المواهب البكري (١٠٣٧ هـ) يمدح الرسول الكريم ويستغيث به :

ما أرســـل الرحمن أو يرســـل	من رحمـــة تصعـــد أو تنـــزل
في ملكـــــوت الله أو مُلكِـــه	مِن كلّ ما يختصّ أو يشــمَل
إلاّ وطـــه المصطفـى عبدُه	نبيُّـه مختـــارُه المرسَـــــل
واســطةٌ فيها وأصـــلٌ لهـا	يعلم هـــذا كـــلُّ مـــن يعقـــل
فلُذْ بـــه في كـــل مـــا ترتجي	فهـــو شـــفيعٌ دائمـــا يُقبـــل
وعُذْ بِه في كـــل ما تختشي	فإنّـــه المرجـــــع والمـــوئـــل
وحُطَّ أحمـــال الرجـــا عنـــده	فإنّـــه المـــأمـــــل والمَعْقِـــل
ونـــاده إنْ أزمـــةٌ أنشـــبتْ	أظفارَها واستحكمَ المُعضِـــل
يـــا أكـــرم الخلق عـــلى ربّـــه	وخيرَ مـــن فيهم بـــه يُســـأل
قد مسّني الكربُ وكم مـــرةٍ	فرجتَ كرْبـــا بعضُه يُذهِـــل
ولـــن تـــرى أعجـــزَ مني فما	لشـــدةٍ أقـــوى ولا أحمِـــل

« المنتخب لأحمد أمين وزملائه ، ج١ : ٢٢٥ »

ونلاحظ ان المعاني ليست جديدة بل هي مستمده من البوصيري وسائر شعراء العهد المملوكي ، وأنّ الصياغة ليست ركيكة ، عـلى أنها ليست في المستوى الارفع •

ويقول الشيخ مجد الدين الوتري البغدادي[1] مستغيثا بالشفيع من ذنوبه التي ينوء بها :

أغثني أجرني ضاع عمري الى متى
بأثقال ارزائي أراني أرزأ

إذا لم يكن لي من جنابك شافع
شقيت فما لي غير جاهك ملجأ

« شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ليوسف النبهاني ، ص ٢٨٥ »

يصور البيتان السابقان توبة المذنب وشعوره بعظم ذنوبه واستشفاعه بالنبي لدى الله ليغفر له وينجيه من شقائه وفيها حرارة وصدق وإيمان وجمال •

المدح الذاتي التقليدي

ظل الشعراء في هذا العهد يمدحون من لهم بهم علاقة حسنة من أمراء وحكام ومشايخ وأصدقاء وأقرباء وقد يكون من حيث المقدار قليلا اذا قيس بما كان عليه في العهد المملوكي التركي وما قبله من عهود ولكننا نعتقد أنه أغزر مقدارا مما كان عليه حاله في العهد المملوكي الجركسي • والكثرة والقلة النسبيتان ترتبطان ارتباطا وثيقا بمدى قوة العلاقة بين الشعراء والعظماء وبكثرة صلات الشعراء الاجتماعية أو قلتها •

وكانت تجارب بعض الشعراء مع العظماء الممدوحين غير مشجعة أحيانا على الاسترسال في المدح • وهذه النغمة قديمة ففي كل عهد نرى شاعرا أو أكثر يتصور أن الكرام في عهده قد فقدوا لسوء حظه ونراه يندم على أنه بذل لهم مديحه •

قال منجك (١٠٠٧ ــ ١٠٨٠ هـ) يستغفر الله من شعر المدح الذي هو منقصة :

---

(١) هو ابو محمد احمد بن محمد الوتري الشافعي . ذكر الزركلي في الأعلام ان لقبه ضياء الدين (ج١ ، ٢٢٣) (ت ٩٨٠ هـ ــ ١٥٧٣ م) . كان شيخا فاضلا صالحا .

دعني من الشعر إنّ الشعر منقصة
بالمجد يختال بين البيض والأسل

أستغفر الله من شعر مدحتُ به
قوماً مديحُهم من أعظم الزلل

« الريحانة ج١ ص ٢٣٢ ، وخلاصة الاثر ٤ : ٤٠٩ »

لقد دلت الشاعر خيبته على خطئه في التذلل للسدوحين فحمله دلك على أن يعدّ الشعر نقيصة إذا قيس ببطولة القتال التي يتبختر بها صاحبها بين السيوف والرماح كما هو شأن أهله ، وعلى أن يستغفر ربه من مديح قوم لا يستحقون هذا المدح . والذنب في الحقيقة دنبه ، لو صدق نفسه القول ، فهو الذي أضاع ماله في الملذات وبين قرناء السوء المتكسبين وهو الذي أذلّ نفسه وشعره بالطلب .

ومن مدائح هذا العهد قصيدة للمحبي صاحب خلاصة الاثر ونفحة الريحانه يمدح بها الشريف أحمد بن زيد ... بن أبي نمي الذي تولى شرافة الحجاز والذي توفي سنة ١٠٩٩ هـ ، وكان الشريف قد اضطر الى النزوح عن الحجاز والتنقل في البلاد حتى وصل الى القسطنطينية فعيّنه السلطان شريفا على الحجاز وطلب منه أن يصلح أحواله . والقصيدة طويلة ونوردها كاملة لنبين أن بعض شعراء هذا العهد قد عادوا بقصائد المدح الى عمود الشعر القديم والى مستوى جيّد من الأداء :

يجوب الارضَ من طلب الكمالا ومَن صحب القنا بلغ السؤالا
وكم في الارض من سكَن ودار وان كان النوى يُضني الجبالا
وما هجْري الدُمى ذلاً ولكنْ رأيتُ الذلّ أن أهوى الجمالا
وأنّ الحتف في حبّ الغواني جَزَيْن الصبّ هجرا أو وصالا
أما وحياةِ عينْيكِ اللواتي بغير السحر تأبى الاكتحالا
وما بسقيم جفنكِ مِن فتور أعاد البدر مِن سقَم هلالا
لأنتِ أعزّ من روحي ومالي وإنْ لعب الزمان بنا ومالا
وكم للشوق في أحشاء صبّ يبيت خيالُه يرعى الخيالا

يخاطب من أمانيه نديما ... ويجنى من مطامعه نوالا
فيقطع بالنوى الأيام سيرا ... ويقطع بالمنى السود الطوالا
اذا ما أوهمته النفس أمرا ... وراء السد كلفها ارتحالا
وليس الجد في الدنيا بمجد ... ولا زاد النوى رزقاً ومالا
ولكن الأمور لها دواع ... وأسباب بقاء أو زوالا
وأسهرني بأرض الروم برق ... سرى من جلق يشكو الكلالا
وجدد لي بأرض الشام عهدا ... وذكرني الأحبة والظلالا
مراطن صبوتي ومقام أنسي ... وإن صرمت أهاليها الحبالا
وما كانت غوانيها جفاة ... ولكن علموهن الدلالا
وترك المرء دار الضيم حتم ... ونفس الحر تأبى الاعتقالا
وما كلفتهم شيئاً ولكن ... أعاد الوهم رشدهم ضلالا
وليس يبين فضل المرء حتى ... يبين ويشبه الشهب انتقالا
ومن لم يشكر النعماء يوماً ... وأنكرها فقد رضي الزوالا
جفوا فحلمت فازدادوا جفاء ... وظنوا الحلم عجزاً واحتمالا
وبعض الجهل في الأحيان خير ... وبعض الحلم يستدعي النكالا
فحلفت الديار ومن عليها ... وفارقت الأحبة والعيالا
وسرت ولي من الذكرى سمير ... يؤرقني وصحبي والجمالا
فلا زالت لأحمد مكرمات ... تقابلني نزولاً وارتحالا
هو المولى الشريف ومن تسامى ... [illegible] العيوق أفضالا وطالا
مليك مستفاد من مليك ... [illegible] ف الروض أكسبه شمالا
فتى للمصل قد أضحى يمينا ... وباقي الناس كلهم شمالا
طليق الوجه بسام المحيا ... يسابق فضله منا السؤالا
ومن أحيا موات الجود فضلا ... وورث عدله الدنيا اعتدالا
تهون به الصعاب وكل عقد ... أبى الا بكفيه انحلالا
أجل ملوك أهل الأرض طرا ... وأصدقهم اذا نطقوا مقالا
رويدا أيها الراجي علاه ... فإن الشمس تكبر ان تنالا

ويا مَـن قاسـه بالبحر جُودا — لقـدْ فايسـتَ بالمِلْح الزُلالا
ويا مَـن قد أراد له نَظـيرا — لقـد كلّفت دنيـاكَ المُحـالا
لـه النسبُ الرفيـعُ الى نبيٍّ — لقد نالـت بـه الدنيا جَمـالا
أجـلِّ المرسـلين ومقتـداهمْ — وأجزلُ مَن على الغَبْرا نـوالا
عليـه بعدَّ أنفـاس البرايـا — صـلاةُ الله تَكسـبه كمـالا
اليك سليلَ خيرِ الخلق أشكو — نوىً قصُـرت تبيجتُه وطـالا
وهاكَ حُلىً على الهيف الغواني — وإلاَّ خُذْ على الوَجَنات خالا
عَروبٌ، إنْ أردتَ قتالَ خصمي — أجرّدُ مِن قوافيهـا النِّصـالا
تمتَّـعْ مِـن مدائحها بروضٍ — يروقُكَ منـه شـمأله اعتـدالا
ودُم صدرَ الزمان ، ولا رأينـا — لذاتك ما خدا الحـادي زوالا
لمجـدكَ تنتمي زهـر الدراري — ومجدُكَ ينطق الكـون ارتجالا

« خلاصة الاثر ، ج١ ، ١٩١ ــ ١٩٣ »

فهذه القصيدة جيدة المستوى لو لم نعرف قائلها لقلنا أنها من شعر جرير أو أمثاله في العصر الاموي ممن كانوا يؤثرون السهولة في الأداء . يعيبها أنَّ معانيها تقليدية ليس فيها جدة وابتكار ولكن الشاعر أحسن ايرادها وسبكها ووضعها في مواضعها . وقد بدأها بالغزل جاريا على نظام الشعر القديم وأطال هذا الغزل لانه يتلاءم مع نفسه ، وجعله مناسبا لموضوع القصيدة وحال الممدوح . وهذا ما كان يلاحظ في المقدمات الغزلية التي كانت تبدأ بها قصائد القدماء . فقد جعل نفسه يتنقل هائما في حبه من مكان الى مكان كالممدوح الذي أزعج من بلده فأخذ بالتنقل من بلد الى بلد حتى تهيأت له العودة الى وطنه وسلطته .

ويشعر قارىء القصيدة بسهولة الشعر وانثياله وصدوره عن طبع سمح وقريحة خصبة وقرب تناول المعاني والأخيلة ، وبأنها في مستوى جيد .

وقد يفخر الشاعر أمام ممدوحيه بشعره فيهم على عادة القدماء الفحول . قال الطالوي من قصيدة يخاطب ممدوحيه :

لي فيكم كدراري الأفق سائرةٌ — هي اللآلـىءُ الا أنّهـا كَلِم

من كل شامخة العرنين تحسبها ... في الشعر ليناً لها من نفسها أجمُ
تبقى على صفحات الدهر خالدةً ... كالأنجم الزهر عقداً ليس ينفصم
أو عادةٍ حسنها قيدُ النواظر في ... ألحاظها سَقَم ، في أنفها شَمَمُ

« الريحانة ، ج١ ، ص ٧٣ »

وهذه الأبيات تتسم بما تتسم به سابقتها من حيث قوة الاسلوب مع التقليد في المعاني والصور والأداء .

الرثـــاء

الرثاء كثير في هذا العهد ولكن رثاء السلاطين والحكام العظماء فيه قليل بالاضافة الى سائره . وتناول أكثر الرثاء بكاء العلماء الذين يكونون شيوخ الشاعر ، ثم الاصحاب ، والاقارب . ومن المراثي ما قاله علماء كانوا ينظمون الشعر في مستوى وسط بين الاجادة والرداءة ، وهم كثر . ومعاني الرثاء وصوره في مجملها تقليدية . ولكننا نرى أحيانا شعراء يرثون عزيزا عليهم قتل في حادثة لها طابع خاص يصفونها . وقد يستلفت نظرنا لمعة من التجديد في المعاني أو إحياء ما درس منها ونسي في شكل جديد . وسنرى أمثلة على ذلك كله .

قال يحيى الاصيلي (ت ١٠١٠ هـ) يرثي العلامة النحريري البصير ، خاتمة المفسرين ، وهو شمس الدين محمد النحريري :

إنْ عصاني شعري لفقد شعوري ... فدموعي ترثيــك بالمنثــور
يا إمامــا لمــا ســكنتَ جنانا ... فاض دمعي عليك فيضَ البحور
وبكى الأزهــر المعمَّــر بحــرا ... كان في الله ربّ دمــع غزيــر
فمصابيحُــه بأحشــائها النــا ... رُ عليــه من لوعــة التذكــير
ومحاريبُه لفرقــة ذاك الصــد ... ر أضحت مقوَّساتِ الظهــور

« الريحانة ، ج٢ ، ص ٤٥ »

وقد رد الشهاب الخفاجي هذا المعنى الى بلديّه ابن نباتة :

على مثـل ذا فلتبـك أعينـنا العبرى — وتطلق في ميدانها الشهبُ والحمرا
فقـدنا بنـي الدنيـا فلمـا تلفـّتت — وجوهُ أمانينا فقدنا بنـي الأخـرى
سيعلم كلٌّ من ذوى المال في غـدٍ — إذا نُصِب الميزان من يشتكي الفقْرا
كـأنّ المَحاريـب القيـامَ بصدره — لفُرقة ذاك الصدرِ قد قُوّست ظهْرا

« الريحانه ، ج٢ ، ص ٤٦ »

ويلاحظ ان يحيى الأصيلي يرثي العلامة النحريري بما يُرتي به العلماء عادة من صفات العلم والفضل ، وهو يبدي حزنه ويذكر فيض دموعه عليه لصلته الخاصة به وفضله عليه ، ويجعل الجنة نصيبه في الاخرة ، ويُشخّص الأزهر فيُبكيه عليه ويجعل ما بأحشاء المصابيح من النار منبعثا من لوعتها عليـه ، كما يجعل المحاريب مقوّسةَ الظهور لفقده ، ويصرح في أول بيت بأنّ شعره قد يعجز عن وفائه بحقّه لذلك تساعده دموعه بنثر دمعها وبذلك يقابل بين الشعر والمنثور ويورّي في كلمة المنثور لانه يريد بها الدمع المتساقط .

وقد نقد الشهاب الخفاجي معنى البيت الاخير فسب ابتكاره الى ابن نباتة المصري .وأورد أبيات ابن نباتة التي تضمنته في الرثاء وقد ورد المعنى المقصود في آخر بيت منها .

ويتبين من موازنة أبيات الاصيلي بأبيات ابن نباتة فرقُ ما بين الشاعرين في المستوى الفني الشعري من حيث التصوير وحسن الأداء فابن نباتة الذي هو من شعراء العهد المملوكي الاول يعدّ مُحلّقا بالقياس الى الأصيلي أحد شعراء بداية الدور الثاني من العهد العثماني .

ومن رثاء الأقارب في هذا العهد ما قاله البهاء العاملي (ت ١٠٣١ هـ) يرثي به والده (ت ٩٨٤ هـ) الذي توفي عن ست وستين سنة . قال :

قف بالطلول وسلْها ايـن سلْماهـا — وروِّ مـن جَرَعِ الاجفان جَرْعاها
وردّد الطّرف في أطـراف سـاحتها — وأرّج الوصـلَ من أرواح أَرْجاها
فإنْ يفُتكَ من الأطـلال مخبرُهـا — فـلا يفوتَنْـك مرآهـا ورَيّـاها

ربوعُ فضل تُباهي التربَ تربتُها ... ودارُ أنس يُحاكي الدر حَصْباها
عدا على جيرةٍ حلّوا بساحتها ... صرْفُ الزمان فأبلاهم وأبْلاها
بدورُ تِمٍّ غَمام الموت جلّلها ... شموسُ فضلٍ سَحابُ الترب غشّاها
فالمَجْد يَبْكي عليها جازعاً أسِفاً ... والدينُ يندبُها والفضلُ ينعاها
يا حبّذا زمنٌ في ظِلّهم سلَفتْ ... ما كان أقصرَها عُمْرا وأحْلاها
أوقاتُ أنسٍ قضيناها فما ذُكِرتْ ... الا وقَطّعَ قلبَ الصب ذِكراها
يا جيرةً هجروا واستوطنوا هَجَرا ... واهاً لقلبي المعنّى بعدكمْ واها
رعْياً للَيالاتٍ وَصل بالحِمى سلفتْ ... سَقيا لأيامِنا بالخَيف سُقياها
لفقدكمْ شُقّ جَيْبُ المجد وانصدعت ... أركانُه وبكم ما كان أقواها
وخرٌ مِن شامخات العلم أرفعُها ... وانهدَّ من باذخات العلم أرساها
يا ثاويا بالمصلّى مِن قُرى هَجَر ... كسيتَ من حُلل الرّضوان أصفاها
أقمتَ يا بحرُ بالبحرين فاجتمعت ... ثلاثةٌ كنّ امثالا وأشباها
ثلاثةٌ أنت أنداها وأغزرُها ... جودا وأعذبُها طعما وأصفاها
حويتَ من دُرر العلياء ما حويا ... لكنَّ دُرَّكَ أعلاها وأغلاها
يا أعظماً وطئت هامَ السُّهى شرَفا ... سقاكِ من دِيَم الوسميّ اسماها
ويا ضريحاً على هام السِّماك علا ... عليك من صَلَوات الله أزكاها
فيك انطوى مِن شموس الفضل أضوؤها ... ومِن معالم دين الله أسناها
ومِن شوامخ أطواد الفتوّة أر ... ساها وارفعُها قدْرا وأبهاها
فاسحب على الفلك الاعلى ذيولَ عُلا ... فقد حويتَ من العَلياء عُلياها
عليك منا صلاةُ الله ما صدَحتْ ... على غصون أراكِ الدَّوْح وَرْقاها

« الريحانة ج ١ : ٢٠٧ ، وخلاصة الاثر ج ٣ : ٤٤٠ »

فالبهاء العاملي يقف في هذه الابيات على ديار أبيه ومراتع صباه ، ويكني عن أبيه بالجيرة ، وكأنه يتغزل ، ثم لا يلبث حتى يصرّح بذكر البِلى ، والموت ، ويبكي ما كان ينصف به أبوه من كمال ومجد ودين وفضل ، ويأسى على أوقات

الأنس في صباه ، ويبدي لوعته لفقد أحبابه ، ثم يعود الى ذكر فضائل أبيه فيجعل ثوب المجد وجبال العلم مفجوعة به ، ويدعو له بالجنة ، ويذكر أن وفاته كانت بالبحرين ، ويجعله ثالثهما كرما ، بل أغزرهما • ويعود الى وصفه بالمجد ، ويدعو لأعظمه بالسقيا ، ويناجي ضريحه ، فيطلب له من الله أزكى الصلاة • ويصف أباه بعد ذلك بصفة جديدة هي الفتوه ، ثم يجعله أعلى من الفلك مجداً • ويتم الأبيات بالصلاة المستمرة عليه ما قامت حمامة تبكي على أراكة •

وهذا الرثاء يمكن أن يقال في أي عالم آخر غير أبيه يكون بينه وبينه مَودّة وليس فيه من سمات صلة القربى بأبيه إلاّ بكاؤه على مرانع طفولته التي هي ديار أبيه وعلى الاوقات التي قضاها بها وقد شعر بأنها قصيرة ويضاف اليه صدق العاطفة وشدة اللوعة • والأبيات تقليدية المعاني والصور والاسلوب ولكنها حسنة السبك والأداء قوية المشاعر •

وقد لفت نظرنا في هذا العهد ما ظهر لدى بعض الشعراء ، وعلى التحديد لدى ابن النقيب الحلبي (١٠٥٦ هـ) ولدى معاصره وصديقه القاضي صلاح الدين الكوراني من محاولة احياء الجماد ومناجاته فقد أورد المحبي في الخلاصة (ج٢ ، ص ٢٥٤) ما قاله أحمد بن النقيب وقد رأى أن أشجارا من العُنّاب ، قرب ضريح والده ، قد زهت بأغصانها المخضرة وثمارها المحمرة فبكى وتحسر :

وقائلةٍ والدمعُ في صحن خدّها
يفيض كهطالٍ من السحب قد همى

أرى شجرَ العُنّاب في البُقعة التي
بها جدَثٌ ضم الشريف المعظّما

له خضرةُ المرتاح حتى كأنّه
على فقده ما إن أحسّ تألّما

وأغصانه فيها ثمارٌ كأنّها
بحمرتها تُبدي السرور تلوّما

ولـو أنصفـت كانـت لعظـم مصـابه
ذوت واكفهــرّت حــيرة وتنـدّما

فقلـت لهـا مـا كـان ذاك تهاونـا
بمـا نالنـا مـن رزئـه وتهضّمـا

ولكنّهـا لمـا وضعنـا بأصـله
غديـراً بأنـواع الفضـائل مفعمـا

بـدت خضـرة منـه تـروق ، وحزنـه
كمـين ، فـلا نسـتفظعيه توهّمـا

ومـا احمـرّت الأثمـار إلاّ لأنّنـا
سـقيناه دمعـا كـان أكثـره دمـا

وقد وقف معاصره وابن مدينته صـلاح الدين الكوراني المتوفى سـنة ١٠٤٩ هـ[1] على هذه الابيات فقال أبياتا منها :

فيـا شـجر العنّـاب مالـك مثمـرا
سـرورا ولم تجزع عـلى سـيّد الحمـى

علـى رمسـه أورقـت تهتـزّ فرحـة
وتـدلـي اليـه كـل غصـن تنمنمـا

أهـذي أمـارات المسـرّة قـد بـدت
أم الحـزن قـد أبكـاك من دونـه دمـا

ومنها عـلى لسـان العنّـاب :

نعـم فرحتـي أنـي مجـاور سـيّد
نمـا حسـبا في عصـره ونكـرّمـا

---

(١) المرجع نفسه « خلاصة الأثر ج٢ : ٢٥٤ » .

وحضرته روضٌ من الجنة التي
زهت بضجيع كان بالعلم مغرَما

أتعجبُ بي اذ كنتُ في جنب روضة
وحقّي فيها أنْ أقيم وألزما

كعادة أشجار الرياض فإنّها
تمكّن فيها الأصلُ والفرعُ قد نما

وقد قيل في الأسماعِ إنْ كنت سامعا
خُذِ الجارَ قبل الدار إذْ كنت مسلما

أما سار من دار الفَناء الى البقا
وأبقى ثناءً بالجميل معظّما

ومن كان بعد الموت يُذْكَر بالعلا
فبالذكر يحيا ثانيا حيث يمّما

فقلتُ له يهنيك طيبُ جواره
وحياك وسميٌّ الغمام اذا همى

لتَسقِطَ أثماراً على جنب قبره
ليلقطها من زاره وترحّما

فواعجبا حتى النباتُ زها به
فحَقٌّ لنا عن فضله أن نترجما

فلا زالت الأنواء مغدِقة على
ثرى قبره ما ناح طيرٌ وزمزما

واضح أن هذه الابيات رائعة الجودة والجمال بما فيها من عاطفة حزن عميقة قوية صادقة ومن احياء للنبات وجعله يشارك الحزين في حزنه وفي ادراكه فضل المتوفى ، ومن حوار يبعث الحياة فيها ومن لطف خيال وحسن تعليل لخضرة

النبات الحزين . وواضح ان الشاعر الثاني الكوريني يعارض الاول ، ابن المتوفى ، (أحمد بن النقيب) . وهذه الابيات وان سُبقت بخيال مشابه في العهد القديم على لسان ليلى بنت طريف ترثي أخاها المقتول في أبياتها المشهورة :

فيا شجرَ الخابور مالك مُورِقا　　كأنك لم تجزع على ابنِ طريفِ

فانّ الشاعرين المتأخرين قائليها قد بسطا الموضوع وأفاضا فيه وكانا قريبين جدا في أدائهما من روح الشعر الإبداعي الذي قيل في القرن التاسع عشر ومن أسلوبه في الاداء ، وكانا إرهاصا سابقا له في البلاد العربية .

الغــــزل

لعل الغزل أكثر الفنون الشعرية قدرة على الاستمرار والبقاء والتجدد في الشكل مع بقاء المضمون حيا باقيا محافظا على كثير من أصوله لارتباطه بالغريزة الانسانية ، غريزة حب البقاء والمحافظة على النوع ، ولذلك نرى أن القديم يمتزج فيه بالجديد كثيرا ونرى كثرة من القصائد والمقطوعات فيه تأتي جيدة أو ممتازة برغم أن مستوى الشعر في بقية الموضوعات قد لا يكون كذلك ، وذلك لان موضوع الغزل يتصل كما قلنا بالنفس الانسانية وتجاربها المستمرة الباقية مع بقاء الجنس البشري ولا بد من أن يكون لكل شاعر تجربته فيه أو تجاربه الحية الصادقة وانفعالاته المضطرمة المتنوعة .

ولهذا كله نجد أن الغزل في العهد العثماني بمختلف أدواره قد تعددت أنواعه ونستطيع أن نميز فيه قسمين رئيسيين قسم القصائد وقسم المقطعات . فأما قسم القصائد فنجد فيه جميع الانواع التي رأيناها في عهود الدول المتتابعة السابقة : نجد بعض شعراء يجارون الأقدمين في معانيهم وأساليبهم ونجد بعضهم يتغزلون في مطالع قصائد المدح سواء أكان هذا المدح في عظيم أو قريب أو صديق ونجد بعض الغزل يستقل بنفسه في قصائد طويلة ونجد غزلا طبيعيا في النساء وغزلا شاذا في الغلمان وغزلا فيه شيء من التهتك يقال في مجالس الطرب والغناء .

وقد نجد الشاعر أحيانا يتذلل للحبيب وفق عمود الشعر العربي ;قد نجد آخر يثور فيأبى أن يذل للحبيب ، ويعامله معاملة الند للند ، وفي ذلك كله نرى ان المعاني التقليدية هي الغالبة ولكن الى جانبها بعض المعاني الجديدة التي يستقيها الشاعر من تجارب واقعية ومن سوانح فكرية أو خيالية •

فأما المقطعات فقد أكثر منها شعراء هذا العصر لعدم حاجتها الى النفس الطويل كالقصائد ، ولانها يسكن أن تتضمن فكره جديدة طارئة أو تجربة عابرة أو تشبيها طريفا أو نكتة بديعة أو لفتة عاطفية أو سانحة بديعية لفظية • وتمتاز في نظرنا على القصائد بأنها أبعد عن التقليد وأقرب الى التجديد واحتواء المعاني والصور المبتكرة ، وأسهل تناولا منها على الذين يخطر لهم أن بنظموا الشعر من غير المحترفين •

وتتناول المقطعات غالبا إما الحديث في عاطفة الحب بصوره مجملة من عير تفصيل أو الحديث في نواحي جزئية من الجمال أو الاحساسات والتجارب متل الحديث عن الثغر والريق والخد المختضب ، والخال على الشمة ، والذؤابة التي تشبه الحية ، واستعمال بعض مصطلحات العلوم ، في الغزل تظرفا ، وبعض المعاني المستلطفة في مغازلة الأتراك ، وحسناء ترى صورتها في مرآتها ، ولقاء حبيب بعد هجر ••• الخ •

ونلاحظ من حيث الاسلوب والشكل أن بعض الشعراء في هـذا العهد قد عارضوا قصائد مشهورة لسابقيهم ، وأحيانا لمعاصريهم وان بعضهم استخدم أسلوبا جديدا في الغزل بطريقة الدعاء الى الله والمناجاة ، وقد سبقه اليه أحـد شعراء العهد المملوكي التركي ولكنه لم يبتذل على السن شعراء كثيرين ، كما نلاحظ أن بعض الشعراء استخدموا الرباعيات في غزلهم •

وقد وجدنا أن أرقّ الشعراء غزلا في هذا العهد ، بحسب اجتهادنا ، هو ابن النقيب الشاعر الذي ألّف فيه الدكتور عمر موسى باشا كتابا جيدا أفدنا من بعض آرائه فيه ومن بعض النصوص التي اختارها ، وقد جعلناه في كتابنا المفصل مثالا على شعراء الغزل الممتازين في هذا العهد واخترنا له نصا يتغزل فيه برعبوبة

على طريقة الجاهليّين ونصا آخر يتغزل فيه بحبيب رشيق بالغ النحافة مما يوافق ذوق الاوروبيين المتأخرين الإبداعيين في القرن التاسع عشر ، وأبياتا له غنائية فيها بعض الانطلاق على طريقة بشار وأبي نواس ، وأبياتا أخرى تمثل مغامرات له ونزوات عاطفية ، ولمحات عنده من الادب الواقعي الجريء وأبياتا له يخرج فيها على عمود الشعر العربي فلا يتذلّل للحبيب • ولكنّ ضيق المجال في هذا الموجز منعنا من ايراد شيء منها •

وسنقدم للقارىء أمثلة على جميع الانواع الغزلية التي تحدثنا عنها فنعطي بذلك صورة كافية عن غزل هذا العصر ومستواه الفني • فمما جارى به شعراء هذا العهد الاقدمين قول البوريني (٩٦٣ ــ ١٠٢٤ هـ) :

وكنّا كغصنيْ بانة قد تألّقا على دوحة حتى استطالا وأينعا
يغنّيهما صَدْحُ الحَمام مرجّعا ويسقيهما كأسُ السحائب مترَعا
سليمَيْنِ من خَطْبِ الزمان اذا سطا خليّيْن من قول الحسود اذا سعى
ففارقني من غير ذنب جنيته وأبقى بقلبي حرقة وتوجّعا
عفا الله عنه ما جناه فإنّني حفظتُ له العهدَ القديم وضيّعا
ولكنْ سيدرى ودُّ من كان مخلصا صدوقا ويدرى من يكون مصنّعا

« الريحانة ج١ : ٤٢ »

وهو من قول صفية الباهلية في « الحماسة الطائية » •

كنا كغصنيْن في جرثومة سمَوا حيناً بأحسنِ ما تسمو به الشجرُ
حتى اذا قيل قد طالت فروعهما وطاب فيئُهما واستنضَر الثمرُ
أخنى على واحدي ريبُ الزمان وما يبقي الزمان على شيء ولا يذرُ
كنا كأنجُمُ ليل بيننا قمَرٌ يجلو الدجى فهوى من بيننا القمرُ

وفرق ما بين الشاعر المتأخر والشاعرة المتقدمة انها جاءت بالمعنى المشترك بينهما في الرثاء وجاء به هو في الغزل • وواضح أنها مبتكرة المعنى وانه مقلد فيه • ولكنّ صياغته لا تقل عن صياغتها جمالا وقوة ووضوحا وسلامة •

ومن الشعر الذي قيل في مطالع قصائد المدح قول نور الدين العسيلي (ت ٩٩٤ هـ):

هل بالحمى من بدور التم إمكانُ ... أم في خلال بيوت الحي غزلانُ
أم الغواني تهادى وهي سافرة ... أم الشموسُ أقلتهن أغصانُ
سقى الحمى ولياليه التي سلفت ... من أدمعي ومن الوسمي هتانُ
حيث الرقيبُ عمٍ والضد ذو صمم ... والحبُّ ذو كرم والوقتُ إمكانُ
وحيث نرفل في ثوب الشباب الى ... تيك القباب وغصنُ العيش ريانُ
يا صاح ان لم تمت من بعدها أسفا ... فان عيشك بعد اليوم خسرانُ
لي في الديار سقاها المزن صيّبه ... غزالُ حسن بديعُ الخلق فتانُ
يا ربّة الحسن قد بالغت في تلفي ... أما لهجرك يا لَمياء هجرانُ
هلا نظرتِ الى مضناكِ راحمةً ... فكان يشمع منك الحسنَ إحسانُ
ولائمٍ ظلّ يُبدي لي نصيحته ... لو لم تمجّ أجاجَ اللوم آذانُ
وكان ظاهرُه عنوانَ باطنه ... والوجهُ للقلب ، فيما قيل عنوان

ومنها في المدح:

اني امرؤ ما حييتُ الدهرَ أمدحكم ... لعلّ جائزتي عفوٌ وغفران
حسّنتُ ظني ومدحي فيكم فعسى ... يُقالُ إنّي على الحالين حسّان

« الريحانة ، ج٢ : ١٩٩ »

وقول الشهاب الخفاجي المتوفى سنه ١٠٦٩ هـ في مطلع قصيدة يمدح بها محمد بن قاسم الحلبي:

حتامَ يغزوني صدودُه ... والصبرُ قد كثرت جنودُه
لم أدرِ فاترُ جفنه ... والخصرُ أسقم أم عهودُه
نشوانُ يعبث بي كما ... عبثت بآمالي وعودُه
لولا مياه الحسنِ جا ... لت فيه لاحترقتْ خدودُه
كالصبّ لولا دمعه ... يهمي لأحرقه وَقودُه

يُخفي الهوى وعيونُه بغرامه المضني شهوده
فسقى رياضَ الحسن من دمعي حَياً يهمي مَديده
زمنٌ بجيد اللهو قد نُظمت على نَسَقٍ عقوده
إذْ دَوْحُ أنسي يانعٌ بكؤوسنا انفتحت وُروده
والكأسُ نجمٌ لاح في فلَك المسرة لي سُعوده
يصفو فيُحلي ذكرَ من قد زيّن الدنيا وجودُه
داكَ ابنُ قاسمٍ الذي ما زال في تعَب حسودُه

« الريحانة ج١ : ٧٩ »

ويلاحظ على الشاعرين أنهما قد أطالا الغزل في مطلع مدحهما وان الثاني قد ألحق بالغزل وصف مجلس اللهو والخمر والتبس علينا الامر فلا ندري أهو يتغزل بفتاة أم غلام لاستعماله ضمير المذكر ، وقد أجاد في هذا الغزل طبعا وسلاسة وصورا وسهولة وحسن تعبير ولم يأت فيه بشيء جديد من المعاني والصور غير تقليدي معروف وأحسن التخلص الى ممدوحه وانتقل من وصف متعة الكأس الى حلاوة ذكر الممدوح الذي زين الدنيا وجوده وأتعب حساده بكثرة فضله . ذلك هو صديقه ابن قاسم . وفي أبيات كل من الشاعرين نفحة شعرية رقيقة وحلاوة تدلان على جودة قريحة وأصالة طبع . وقد رأينا في الابيات السابقة نمطا من الغزل التقليدي الذي يأتي في مطلع القصائد واليك هذا المثال من الغزل المقصود لذاته الذي أكثر منه شعراء هذا العصر ولم يقصّر كثير منهم فيه عن سابقيهم :

قال ابراهيم بن المبلّط الذي كان حيا سنة ٩٩١ هـ يتغزل من قصيدة طويلة :

حدثت بانة الحمى عن صباها عن ثنيّات مكّةٍ عن صَفاها
أنّ عصرَ اللقاءآن ووافى وزمانَ النوى انقضى وناهى
ونسيمَ الصّبا يؤدي الأمانا ت الى أهلها كما قد رواها
كم نسيمٍ سرى فسرّ قلوبا شفّها البعدُ والنوى فشفاها
تعرفُ العاشقين منها نُسيما تٌ ، وهم يعرفونها شذاها

إنّ أبدي الفراق جارت علينا   في قضاءٍ فحسبُها وكفاها
آهِ وا وحشتي لأحتاءِ قلبي   وقليلٌ قولي على البعد آها

« المنتخب ج١ ، ص ٢٢٢ »

فهذه الابيات تذوب رقة وعذوبه وتعبّر عن تجربة صحيحة وعاطفة صادقة وقد أحسن الشاعر استغلال الحديث عن النسيم وربطه بربوع الحبيبة في مكة وبأثره في نفسه وعلل أثره في العاشقين وأحسن السبك والتصوير والتعبير عن لواعج الحب والشوق والالم ولا سيما في البيت الاخير « آه وا وحشتي » وأحسن في الجناس بين وا وحشتي واحشاء وبين قليل وقولي كما أحسن في اختيار موسيقا البحر والقافية •

ومما يتعلق بالغزل بالغلمان في هذا العهد ما قاله الطالوي (٩٥٠ — ١٠١٤ هـ) وكان له غلام يحبه فاستلبه منه فخر الدين بن فرقماس بن معن الدرزي فغضب لذلك واستعدى عليه الشريف أمير الشام لينتصف له منه بقصيدة نقتصر منها على الأبيات التالية :

بالله يا نشرَ العبيـ   ـر سرى بروضات الغَرِيّ[1]
طاف المشاهدَ وانثنى   نشوانَ من كأسٍ رويّ

• • • •

إنْ جئتَ ربع الشام فاقـ   ـصِدْ ساحة الشرف العلي
أعني الشريفَ ابنَ الشريف ابنِ الشريف الموسويّ
متحملا عني السلا   م كسك دارين الذكيّ
لجناب مولانا الوزيـ   ـر وليّ مولانا علي
ثم اشرحنْ من حال مو   لاه المحبّ الطالَوي
ماذا لقِي في ثغر صيد   ا من دَروزِيٍّ غويّ
وافى بمكتوب الشريـ   ـف اليه من بلد قَصِي

---

(١) الغري : موضع بالكوفة دفن فيه الامام علي كرم الله وجهه .

يُوصيه فيه كأنّما … أوصاه في أخذ الصبي
فسقاه يوم فراقه … لا كان ، بالكأس الرويّ
وغدا الحشا من بعده … يبكي بدمع عندمي
في غربة لا يشتكي … فيها الى خلّ وفيّ
لا جارٌ يحميه ولا … يأوي الى ركن قوي
إلاّ الى ركن الشريـ … ـف الطاهر الشيّم الزكي
حامي حمى الشرع الشر … يف بكل أبيض مخذمي
مولاي لي حقّ عليـ … ـك فجئد به من غير ليّ
بولاء حيدرة الوصيّ أخي النبيّ الهاشمي
لا تهملنْ من أخذ ثا … ري من كفور بالنبي
وابعثْ اليه مقانباً … فيها الكميّ على الكميّ
لو حاربتْ جندَ القضا … ء ثنت سُراه عن مُضيّ

« الريحانة ج١ ، ص ٦٣ »

مما علّق به الشهاب الخفاجي على الابيات السابقة بأنّ الوصي هو الامام علي كرم الله وجهه وذلك لان الشيعة تعتقد بأن النبي تآخى معه في غدير خمّ ولا تعتقد السنة ذلك . وكذلك علّق على قوله « لو حاربت ... » بأنه غلو كان ينبغي تركه .

ويلاحظ أنّ أمير لبنان قرقماس لا يستحيي في ذلك العهد من أخذ الصبي من صاحبه اغتصابا لا لينقذه بل ليكون حاله عنده حاله عند مالكه ، وكذلك نرى أن الشاعر لا يستحيي في أن يستشفع بالشريف الهاشمي الذي كان حينئذ أميرا على الشام في أن يرد له غلامه من قرقماس وكأنه يطلب منه أن يردّ له داره أو زوجته الشرعية المغتصبة . وهذا يدل على أن عادة الشذوذ الجنسي كانت مألوفة لدى هؤلاء القوم حتى لكأنها أمر طبيعي قانوني .

ومن الغزل الذي قيل في مجالس اللهو والغناء والمتعة ما قاله أبو المواهب البكري (ت ١٠٣٧ هـ) وهو :

حبيبُك دانٍ رقيبٌ قريبْ — فماذا البكاءُ وماذا النحيبْ
نعم هو دانٍ ولكنني — بعيدٌ فقيدٌ طريدٌ غريبْ
بكائي عليَّ لأني بُليتُ — بداءِ الصدود وعَزَّ الطبيبْ
وفاز المحبّون دوني بما — به كلَّ وقتٍ لديهم يطيب
فهمّي وفَهْمي زادا فما — بقائي في النقص ، أمْرٌ عجيب !
فيا هل ترى بعد هذا البُعاد — يزول الصدود ويرضى الحبيب
نعمْ هو ذاك ستعطَى مُناك — بأوفرِ حظٍّ وأوفى نصيب
وتهنز بالبَسطِ[1] في مَرْبَعٍ — بِهِ مرتعٌ للأماني خصيب
وحبسُ الكواعب عِيدانها — وجسّ رباب الغزال الربيب
وتقضي حقوقَ الفؤاد المَشوق — بخمرٍ يروق وساقٍ أريب
يهزُّ من التيه اعطافه — فتحسبه بانةً في كثيب
ونحن عكوفٌ على لهونا — وليس سوى القبض عنا يغيب

« الريحانة ج٢ ، ص ٢٣٤ »

فالشاعر في هذه الابيات يأسى على أن حبيبه دانٍ منه ولكنه بعيد عنه لانه يهجره ويبكي على أن المحبين ينالون ما يريدون دونه ولكنه يتفاءل بأن هذه الحال ستتغير ثم لا يلبث أن يتحدث عن عزف الحسان الكواعب بعيدانهن وضرب غزاله الاهيف على ربابه وعن تناول الخمر واهتزاز أرداف الساقي ويستعمل ضمير المذكر له فلا ندري أيستعمل هذا الضمير على المجاز أو على الحقيقة وان كنا نرجح المجاز لذكره الكواعب في المجلس قبل ، وتنتهي الابيات بانه هو واصحابه عاكفون على لهوهم ولا يغيب عنهم الا القبض الذي استعمله بمعنى الانقباض النفسي في مقابل البسط التي استعملها قبل بضعة أبيات بمعنى السرور والمرح كما تستعملها العامة والأبيات سهلة خفيفة صالحة للغناء وكأنه نظمها ليغنّى بها .

ونرى الشاعر في هذا العصر يجري على عادة الشعراء القدامى في الغزل

---

(١) استعملها بالمعنى العامي اليوم .

الموافقة لعمود الشعر العربي الاصيل ويبدي تذلّله للحبيب ويرجوه الوصال ، ومثال ذلك قول منجك (١٠٨٨ هـ) :

ألقـــى فـؤاديَ في أُوار ... قمرٌ يتيـه مـن اسـكندار
وأودُّ لـــو علقـت بذيـ ... ـل الوعد منه يـدٌ انتظاري
أتَـراه يـدري بالـذي ... فاسـيتُه أم غـيرُ دار
أغـدو بـه حـيرانَ لا ... أدري يميني مـن يساري

« ديوان الشاعر ، من الروميّات »

في هذه الابيات وصف لتمنع الحبيب ولشدة تعلق الشاعر به وسعي الى ترقيق قلبه عليه لكثرة ما يقاسيه من أجله • وأجمل ما فيها وصف حيرة الشاعر وضياعه أمام جمال الحبيب وتمنعه حتى لا يعرف يمينه من يساره •

وقد نسب حبيبه فيها الى اسكدار فدلّت على انه تركي على أننا لا نستطيع الجزم بأنه غلام فقد يكون فتاة أو امرأة واستعمل ضمير المذكر له على المجاز •

وها هو دا منجك نفسه في مكان آخر يصف تعلّقه بحبيبه ولكنّه يعنى فيه بوصف جماله الجسدي في أبيات رقيقة تصلح للغناء والرقص :

تناهـى عنـده الأمـل ... وقصـر دونـه العـذَلُ
رشـا يفتـرّ عـن بـرد ... تكـاد تذيبُـه القبلُ
بخامر عطفه ثمـَل ... يَمـ[illegible]ـل بـه ويعتـدل
يمثّـل مـا يـروق لنـا ... بصـ[illegible] خـدّه الخجـل
فليـت بـه كمـا اتصلت ... حشـاي الطـرف يتّصـل
اذا مـا الخِـدْر أبـرزه ... تناهـب حسـنَه المُقـل
لقـد أغـراه في تلفـي ... شـبابٌ ناضـر خضِـل
وقـدٌّ حشـوه هيَـفٌ ... وطـرْفٌ ملـؤُه كحَـل

« المنتخب ج١ ، ص ٢٢١ »

وهذه الابيات تمتاز بالسهولة وحرارة العاطفة وتدفق المعاني ولطف الخيال

وحلاوة الموسيقا وما أجمل فونه في وصف ثغر الحبيب : نكاد تذيبه القبل • وفي وصف تمايله حين المشي : يخامر عطفه تمَل ••• وقوله في وصف جماله الكلي :

اذا مـا الخِـدْر أبـرزه   تناهَـبُ حسـنَه المُقَـل

وأما المقطَّعات الغزليه التي أكثروا منها جدا فمثالها قول عبد الرحيم العباسي (٨٦٧ — ٩٦٣ هـ) :

ألؤلؤ نظم هـذا الثغـرِ أم حَبَبُ   وقرقَفٌ طعمُ ذاك الريقِ أم ضَرَبُ
وما أراه بصحـن الخِدّ ورّدها[1]   أم وجنـةٌ بـدم العشـاق تختضب

« الريحانة ج٢ ، ص ٦٢ »

حشر الشاعر في هدين البيبن عده نشبيهات فديمة ولكنه أحسن جمعها وسبكها بصيغة التساؤل واسعمل التشبيه الضمني المقلوب في البيت التاني فجعل صحن الخد هو الدي يورد الخمر لا العكس • وفي الشطر الثاني ، معنى جميل ولكنه قديم وهو اكتساب الوجنة احمرارها من كثرة دم العشاق الذي أراقته • ومنها قول نور الدين العسيلي في الخال على الشفة :

كأن الخـال في شـفة الـذي قـد   كساني الشـيبَ قبـل أوان شيبي
قطـاة أُفردتْ مـن بـين سِـرب   تروم الوِرْد مـن مـاء العُذَيْب

« الريحانة ج٢ ، ص ١٩٩ »

شبه الشاعر الخال على الشفه بالقطاة المنفردة عن سربها التي ترد موردا صافيا عذبا • وقد استعمل اسم التصغير العذيب مكان العذب تلطفا وتظرفا ويريد بالعذيب الفم على طريق الكنايه والتورية • والنشبيه في البيين لطيف موفق ، والمعنى طريف • ومنها قول نور الدين العسيلي :

دبـت لـه ذؤابـة   كحَيّـةٍ مـن خَلفْـه
تحمِـي ضعيـفَ خصـره   مـن خارجـيّ ردفـه

« الريحانة ج٢ : ١٩٩ — ٢٠٠ »

---

(١) الضمير يعود الى القرقف اي الخمر .

لعل الشاعر نظم هذه المقطوعة ليشبه ذؤابة الحبيب بالحية الممتدة خلفه الذي خصره النحيل من ردفه الثقيل الذي برز وراء ظهره • وقد استعار كلمة الخارجي المعروفة في التاريخ الاسلامي بمعنى الثائر على الحكم القائم للدلالة على بروز ردف الحبيب عن سائر جسده كأنه ثائر على الجسد واستعار كلمة ضعيف للدلالة على معنى النحافة ليقابل بين الضعف والقوة المفهومة من الخروج والثورة ، واستعمل في البيتين معا ما يسمى بحسن التعليل •

ومنها قول نور الدين العسيلي نفسه يتغزل :

كأن الذي أهوى على نفسه جنى … فمال على تلك المحاسن بالفتك
فأغرق خديه بماء جماله … وأوقع في الظلماء ناظره التركي
وألقى بنار الخد خالا كأنه … من المسك مطبوع فناديت يامسكي
وها جفنه يبكي عليه من الضنى … وها خصره من ثقل أردافه يشتكي

« الريحانه ج٢ ، ص ٢٠٠ »

أورد الشاعر في هذه الابيات بعده تشبيهات في بعضها غرابة وطرافة كإغراق العينين بماء الجمال ويشبه الخال على الخد بالمسك ويجعل جفنه باكيا من نحافته وخصره شاكيا من ثقل ردفه فكأنه يجمع في قده بين نوافر الأضداد • وقد عارض شعراء هذا العهد بعض قصائد سابقيهم أو معاصريهم كما فعل أسلافهم من قبل ومن ذلك الابيات التي عارض بها البهاء العاملي (ت ١٠٣١ هـ) أبياتا لوالده • وهذه أبيات والده :

فاح عرف الصبا وصاح الديك … وانثنى البان يشتكي التحريك
قم بنا نجتلي مشعشعة … تاه من وجده بها النسّاك
لو رآها المجوس عاكفة … وحّدوها وجانبوا التشريك
ان يسر نحونا بشمس وان … بتّ في السير دوننا نحييك

« خلاصة الاثر ج٣ : ٤٤٠ — ٤٥٥ »

أما كافيته فمطلعها :

يا نديسي بمهجتي أفديك° قم وهات الكؤوس من هاتيك°
خمرة" ان ضللت ساحتها فسنا نور كأسها يهديك
يا كليم الفؤاد داو بها قلبك المبتلى لكي تشفيك
هي نار الكليم فاجتلها واخلع النعل واترك التشكيك°
صاح ناهيك بالمدام فدم في احتساها مخالفاً ناهيك°

ومنها :

لست أنساه اذ أتى سحرا وحده وحده بغير شريك
طرق الباب خائفا وجلا قلت من ، قال : كلُّ ما يرضيك
قلت صرّح فقال تجهل من سيف ألحاظه تحكّم فيك
قال : خذها فمذ ظفرت بها قلت : زدني فقال لا وأبيك
ثم وسّدته اليمين إلى أن دنا الصبح قال لي: يكفيك°
قلت مهلا فقال : قم فقد فاح نشر الصّبا وصاح الدّيك°

« سلافة العصر ٢٨٩ ، وخلاصة الاثر ج٣ : ٤٤٠ ، والريحانة ج١ : ٢٠٩ »

كل من الأبيات المعارَضة والمعارِضة جميل وأبيات الابن أجمل في رأينا من أبيات الأب • وهي أكثر بسطا في الحوار وفي أداء المعاني وأحفل بالفنون البديعية وقد ختمها بشطر بدأ به أبوه أبياته ولم يغير فيه الا كلمة « عرف » التي استبدل بها كلمة « نشر » •

وكل من الأب والابن مزج الغزل بالحديث عن الخمر وكان الابن أكثر استفاضة في الغزل وأكثر واقعية •

وقد أورد الخفاجي للبوريني الأبيات التاليه على أنها أسلوب من أساليب الفصاحة لطيف بيّنه في كتابه « حديقة السحر » وهو نَقْل الكلام من طريق الى آخر • كاستعمال ما عُهِد استعماله في الدعاء والمناجاة في التغزل :

إلهي أدِمْ حاكمَ الحب فينا ... مُطاعا وكلُّ البرايا أسارى
إلهي وزد ذلك القيدَ لِينا ... وأشرِبْ سقيمَ الجفون العُقارا
إلهي على ضعف أهل الهوى ... أنِلْ لحظَه في القلوب اقتدارا
إلهي جنودَ الهوى أعطِها ... على قوة الصابرين انتصارا
إلهي على الحب ألفيتُ صبرا ... وعن حسْنه ما أطقت اصطبارا
إلهي أجبتُ رسولَ الهوى ... ولم ألقَ منذُ دعاني اختيارا
إلهي رضيتُ بما ترتضي ... بسرّي وسلَّمتُ أمري جِهارا
إلهي لي الجَبْر فيما ترى ... وانْ ظنّه العاذلون انكسارا
إلهي أعِدْ ليلَ هُجرانِه ... وصبحَ الوفا بالتلاقي نهارا

« الريحانة ج١ ، ص ٤٧ »

والحقيقة أن في هذه الابيات جدة ، في الروح والاسلوب والمناجاة العذبة • والعاطفة فيها سخية حارة ، وهي جديرة بأن يتكلم عليها طويلا فتوفّى حقها • واختيار الخفاجي لها وتعليقه عليها يدلان على حسن ذوقه • وقد أكمل تعليقه بقوله : ومثله قول ابن الوكيل :

يا ربِّ جفني قد جفاه هجوعه ... والوجد يعصي مُهجتي ويُطيعه
يا ربِّ قلبي قد تصدّع بالنوى ... فإلى متى هذا البعادُ يروعه
يا ربِّ في الأظعان سار فؤادُه ... يا ليتَه لو كان سار جميعه

« الريحانة ج١ ، ص ٤٧ »

وهذه الأبيات على قلّتها ليست دون الاولى جودة ولكنها أقصر نفَسا وأقل غنى وهي أسبق قولا وأظهر ابتكارا • فهي ترجع الى العهد المملوكي الاول •

وقد استعمل شعراء هذا العهد الرباعيات في الغزل ومنها هذه الرباعية للشهاب الخفاجي في معنى قديم جديد :

غُصُن غَضٌّ له المَعاني ثَمَرُ
يَجْنِي فيظَلُّ دائما يعتذِرُ

لـم ألـقَ شـبيهَ وجهِـهِ في أحـد
إلا المِـرآ صفَـتْ وفيهـا نَظَـروا

« الريحانة ج٣ ، ص ٢٠١ »

لقد جعل هذا الشاعر الحبيب غصنا غضا يثمر المعاني الجميلة ويسيء دائما الى المحب ويواصل الاعتذار ولكن يحق له الدلال لانه لا شبيه له الا نفسه حين ينظر في المرآة • والمعنى طريف غير مبتذل ، ولكنّه قد سبق اليه آخرون •

الشعر في الخمر والحشيشة والغناء

وصف الشعراء في هذه العهود الخمرة على غرار أسلافهم واهتموا بوصف مجالسها وما قد تضمّه من غناء وعزف وما يحيط بها من إطار جميل من الطبيعة وما يرافقها من متعة ولهو • وتحدث بعضهم في شعره عن الحشيشة مستحسناً مضغها أو مقبحاً • وظهر لونان جديدان في هذا المضمار لم يكونا معروفين قبل هذا العهد : أحدهما الحديث عن قهوة البن وما فيها من متعة وما دار حولها من أقوال التحليل والتحريم ، والثاني الكلام على الدخان وتحريمه أو اباحته وما يكون في تناوله من لذة •

فأما الخمرة فأحسنُ من قال فيها خلال هـذا العهد شاعران متعاصران صديقان أحدهما منجك (١٠٠٧ ــ ١٠٨٠ هـ) والثاني ابن النقيب (ت ١٠٨١ هـ) وبين الرجلين أوجه التقاء كثيرة •

فأما منجك وهو أسبق ولادة وأطول عمرا فقد أضاع ما ورثه عن أبيه في اللهو ولما عضت به الحاجة لم يجد حوله أحـدا يساعده أو يسعفه من إخوان الصفاء السابقين فسافر الى بلاد الروم (الترك) يبغي الفرج فآب خائبا وانزوى في بيته •

وأما صديقه ومعاصره في النصف الاخير من حياته ابن النقيب فقد اخترمته المنية شابا ولم تتح له أن يقدم كل عطائه الفني شعرا ونثرا وقد كانت تباشيره

جيدة بل رائعة أحيانا لا في وصف الخمرة فقط ، بل في وصف الطبيعة والغزل أيضا .

يمزج منجك الغزل بالدعوة الى الخمرة واللهو والسرور أحيانا وذلك في مثل قوله :

وافى الربيع فما عليك بعارِ خلعُ العذار ولا ارتشافُ عُقارِ
صهباءُ ليس يجوز عندي مزجُها إلا بريقة شادنٍ معطارِ
تدَعُ الدجى صبحا اذا هي أبرزتْ فكأنما اعتصرت من الأنوار
قم هاتِها حيث الهزارُ قد اغتدى في الأيكِ منعكفا على التهْدار
طيرٌ أعاد الغصن جنْكا رُكّبتْ أوتارُه من فِضة الأمطار
وتبثُّه ريحُ الصبّا ويبثُّها ذكر الهوى من سالف الأعصار
فانهض لنغتنمَ الشبيبة قبل أنْ يرمي المشيبُ الصفوَ بالأكدار
واشرَبْ على وَرْد الربى إنْ لم تجد ورد الخدود لقلّة الدينار
وانصِبْ بفكرك في الهوى شَرَكَ المُنى لوقوع ظلٍّ أو خيالٍ سار
هذا ولستُ أرى اذا فُقِد الذي أهوى جنان الخلد غيرَ النار
هيهاتِ ما الناي الرخيم ونشوة الخمر القديم ونغمةُ الأوتار
وحنينُ هينمة الرياض عشيّةً وتراسُلُ الأطيار في الأسحار
عندي بأحسنَ من مساجلة الأحبّة بالصبابة في سنا الأقمار
من كل معبودِ الجمال محكّمٍ فيما يشا مستعبِدِ الأحرار

« الريحانة ج١ ، ص ٢٤٥ »

يريد منجك في هذه الابيات أن يطلق خياله وراء الصور المحببة اليه وفكره بأن يساجل أحبته فيما تستعبد به الاحرار من الكلام الجميل وهو يراعي واقعه الفقير فان لم يتح له لفراغ كيسه أن يشرب على ورد الخدود فليشرب على ورد الربى .

وتنطق الابيات بغرام الشاعر بالمتع المعنوية والحسية وبحبه اغتنام زمن الشبيبة وفرص الاستمتاع قبل أن يكدر صفوه ظهور المشيب في رأسه .

وتبدو فبها شدة احساسه بالجمال وولعه بالشراب والاستمتاع بالجمال الانساني ونراه لا يكتفي بالنشوة بجمال الربيع ومعاقرة الخمر وارتشاف ريق الحسان بل يضيف الى ذلك كلـه نشوته بسـحر غناء الاطيار في هيكل الطبيعة الشجراء وهو اذ يشمل بهذا الجمال كله المنظور والمسموع والمتذوق والمشموم والملموس فيشرك فيه حواسّه الخمس. يتخيّل أنّ الخمر قد عصرت من الانوار ولذلك هي تحوّل الليل الى نهار ، وأنّ الأغصان قد تحوّلت الى عود صُنعت أوتاره الفضية من قطرات الامطار . وقد دعا الى اغتنام الشرب دعوة خيّامية في قوله :

فانهض لنغتنم الشبيبة قبل أن
يرمي المشيبُ الصفوَ بالأكدارْ

فدلّ على روح تشاؤمي عنده يدعوه الى مسابقة الزمن بانتهاب اللذة لانه يترقب أن يُنزل بـه شروره . ومن هـذا القبيل قولُه :

قم هاتِها فانتهابُ العيش مغتنَمٌ
من كفّ معتدلٍ في خير إبّان

حيثُ الرياض اكتست من سندس حللاً
وتُوّجت بيواقيتٍ وعِقيان

« خلاصة الاثر للمحبي ٤ : ٤٠٩ ، والديوان »

ففي هذين البيتين يستسقي الخمر في مربع الرياض السندسية ومن يد ساق جميل معتدل القوام ولكنه يشعرنا في الوقت ذاته أنـه ينتهب لذّاته ويغتنمها لانه ليس واثقا من دوامها .

وقد ينسى كل شيء إلا الانصرافَ الى لذته والإشادة بها ومن ذلك قوله يصف مجلس خمر دام حتى الصباح وتجاوب فيه عزف الناي مع تغريد الطير :

وروضةِ أنس بات فيها ابنُ أيكةٍ
يغرّد والنايُ الرخيمُ يُنشنِفُ

فظلّتْ عرانينُ الأباريقِ بالطّلا
إلى أن بدت كافورةُ الصبح ترعُف

« الريحانة ج١ ، ص ٢٥٤ »

وجميل جدا تشبيهه بداية ظهور الصبح بكافورة تنقط فوق الكون قطرات كما يرعف الدم من الأنف . ولكن هذا التشبيه جميل شكلا سيء ايحاء لأنه يشعر بالضعف والمرض وقد يدعو الى التشاؤم والنظر الى الدنيا بمنظار أسود ، ولكن الشاعر حين نظم الابيات كان في حقيقة نفسه متشائما .

وقد لا يكتفي منجك بوصف الخمر ، بل يصف الساقي ويشبه خديه بالورد والخمر فيقول :

هبّ يجلو الراح في كأسِ اللجين
فاترُ الالحاظ خالي العارضيْنْ
وتحسّى وسقانا قهوةً
مُزجت مِن ماء ورد الوجنتيْنْ

« المرجع السابق نفسه »

والمعاني في هذين البيتين مألوفة ، بل تكاد تكون مبتذلة ولكنها جميلة لانها دائمة متجددة على الزمن وقد لا يمل الانسان من تكرارها ، ولعلّ صلاح البيتين للغناء ، ووصف الساقي بأنه تحسّى الخمر قبل أن يسقيها الشاعر وصحبه ، قد عدّلا من ألفة المعاني وابتذالها وجعلاها قريبة من القلب .

وقد يمزج بين الاستمتاع بكأس الخمر وريق الثغر كقوله :

نبه جفونَك من نُعاسِك	واسمحْ بريقِك أو بكاسِكْ
طابَ الصبوحُ فهاتِها	واشربْ معي بحياةِ راسِكْ

« الريحانة ج١ ، ص ٢٥٠ »

وفي هذين البيتين إيجاز جميل مُوحٍ وفيهما أثرٌ من اللغة الواقعية الشعبية

التي لا نزال نستعملها في عامّيتنا اليوم ، وهو استحلافه الساقي بقوله : بحياة رأسك • وفيها استباحة إحدى اللذتين : الريق ، أو الكأس ، أو اللذتين معا •

وقد عني منجك الى جانب الخمر بوصف متعته وملذاته وما يتصل بها • قال يعجب بربوة دمشق ويشبه غناء أطيارها بالعزف على الدف والجنك :

أربوتنا حيّتك عنا السحائبُ
فأنتِ لوجه الأرض عينٌ وحاجبُ

فأسودُك الغرّيدُ بالدّفّ مولعا
تبدّت لنا بالجنكِ منه عجائبُ

« خلاصة الاثر للمحبي ج٤ ،ص ٤٠٩ »

ونرى في البيتين قوة شعور منجك بجمال المنظورات وجمال المسموعات معا وشدة تعلقه بجمال « الربوة » في دمشق كغيره من الدمشقيين ومن يزورون دمشق من خارجها وهو ينسبها الى نفسه وأهل بلده فيقول « أربوتنا » ويجعلها عين الارض وحاجبها أي أحسن شيء فيها • ثم ينسبه تغريد بلابلها وسائر أطيارها بنغمات الدف والجنك[1] وهما آلتان موسيقيتان معروفتان • ويوري بالجنك عن مكان جميل معروف فيها • وتحمله شدة حبّه للهو على أن يأسى على بعض مجالس لهوه الخالية في أحد القصور المنجكية في دمشق :

قصرَ الأمير بوادي الرقمتين سقى ... رُباكَ عني من الوسمي مدرارُ
كم مرّ لي فيك أيام هواجرُها ... أصائلٌ ولياليهنّ أسحارُ
حيثُ الشبيبةُ بكر من غضارتها ... وللصبابةِ أحلاف وأنصارُ
حيث الرياض تغنيني حمائمُها ... بالدف والجنك والمنثورُ لي جارُ
حيث الخمائلُ أفلاكٌ بها طلعت ... زُهْرٌ من الزّهْر والندمانُ أقمار
حيث المدامةُ رقت في زجاجتها ... يديرها فاتن الأجفان سحّار

(١) الجنك ، العود ، ومكان في دمشق يورّى به هنا .

ياقوتـةٌ أفرغـت في قشـر لؤلـؤةٍ   فلاح للشَّرب منهـا النّـور والنـار
متـوّجَ الراح بالإبريـق ذا قرطٍ   مثـلِ الهـلال له الجوزاءُ زنّـار
يسقي وأسـقيه من ثغر ومِنْ قدحٍ   الى الصبـاح فمِربـاح ومِخسـار

« الريحانة ج١ ، ص ٢٤٥ »

وهذه الابيات الرائعة لا تقلّ جمالا عن أجمل أبيات أبي نواس في الخمر والساقي وهي تتصل بنفس منجك وحياته اتصالا وثيقا صادقا فنراه يأسى على قصر آبائه وأجداده الذي كان يحب أن يبقى له ويأسى على أيام ولياليَ قضاها فيه فيشبه هواجر أيام الحر بالاصائل لكثرة ظلالها ويشبه الليالي بالاسحار لجمالها ويصف تلألؤ الاضواء فيها وحسن استمتاعه بلذاتها وبرفة جمال الطبيعة وغناء الحمائم وطيب محادثة الندمان ، ثم هو يحنّ الى عهد شبابه العزيز الذي كان فيه وافر العز والتكريم ويرثي استمتاعه فيه بالخمر كأنها الياقوتة أو النورُ والنار وبالساقي الجميل الساحر ويشبهه بالقمر ويشبه زناره بالجوزاء ويصف تساقيه معه الخمر والريق حتى الصباح فمرة يأخذ منه ومرة يعطيه فكان كل منهما مرباحا ومخسارا في الوقت ذاته •

ان هذه الابيات أكثر من ذكرى لدى الشاعر ، إنها رثاء الشباب العزيز المرح الذي فقده الى الابد فهو يبكي عليه بدموع العين ودموع القلب •

ونجد بين هذا الشاعر وبين ابن النقيب نقط تشابه وتلاق كثيرة فقد وصف ابن النقيب الخمر والكأس والساقي والنديم وكانت دواعيه للخمر كثيرة : الطبيعة الدمشقية والحانات والأديرة والجمال والفتنة والصبا والشباب والربيع والفراغ والغنى والمكانة الاجتماعية •

وله قصائد خاصة بالخمر ومجالسها وهي مطبوعة بطابع ذاتي ويجمع فيها بين وصف الطبيعة والخمر وبين الغزل •

وكان لابن النقيب مجالس جد الى جانب مجالس اللهو وقد وصف مجلسا له عند بعض أصحابه الأدباء فقال :

نحن في روضـــة مـــن الآداب ِ ... سُقيت° بالفُهــوم ِ لا ٌبالسحاب ِ
ضمّنــا مجتلى عرائس أفكــا ... ر ٍ جلتهـــا قرائــح ُ الألبــاب
وألذّ القريض ما كــان غضّــا ... مستَجدّاً قريب َ عهد ِ الشباب
فاسق ِ منه شَر°ب المَسامع كأسا ... لبني العصــر زائــد َ الإطراب
أنــا في حانــة القــريض فما لي ... لا أرى دفتراً شــهيّ الشــراب

« الديوان ص ٣٨ »

وقد أظهرنا ابن النقيب في وصف هذا المجلس على الجانب الاخر الحلو الجادّ من حياته وشبّه فيه خمر الآداب بخمر الأعناب وأبدى رأيه في الشعر الجيد وهو عنده ابن القريحة الذكية المبتكرة ، الغضّ الجديــد الذي لم يَخْلِقه القِدَم والابتذال ، الملائم لذوق عصره وأحواله .

ونراه يصف مجلسا أدبيا آخر بالسرف المطلّ على مرج دمشق الأخضــر فيقــول :

يــا حبّــذا منــزل" ومرتبــع ُ ... طاب لنــا اليوم َ فيــه مجتمَع ُ
في معشــر لــم تـزل مآثر ُهم° ... تُتلى بأوج العُــلا وتُستَمَع
فهم° لِطيب الجُدود قد نزَعوا ... وفي رياض العلــوم قــد رتعوا

« الديوان ص ١٩٥ »

وفي هذه الابيات الثلاثة يبين لنا ابن النفيب رأيــه في الاصدقاء والندامى المثاليين في مجالس الجد فهم الذين يجسعون بين كرم النسب وسعة الثقافة ولا يكتفون بأحدهما .

وقد حمله ولعه بالغناء على نظم قصيدة طويلة يؤرخ فيها للغناء والمغنين منذ بدء العصر الأموي حتى آخر العصر العباسي وتكاد تكون ملحمة فنّ الغناء في الادب العربي . ونكتفي منها بالابيات التالية على سبيل المثال :

كلـّما جــدّد الشــجيّ ادّكــارَه° ... أزعج َ الشــوق ُ قلبَــه واستطارَه°
ليت َ شعري اين استقلّ عــن اللّهــ ... ــو ِ بنوه وكيــف أخلَــوا مَزاره

بعد ما راوحتهم صفوة العيـ ـش ونالوا طوع الهوى أوطار
وجروا في مطارد الأنس طلقا واجتلوا من زمانهم أبكار
بين كأس وروضة وغدير وسماع ولذة وغضار
أين حلوا فمعشب ومقيل أو أناخوا فوردة وبهار
من مليك زفت بحضرته الكأس قيان يعزفن خلف الستار
ووزير قد بات يسترق اللذات وهنا والليل مرخ إزار
وأمير ممنطق بنداما ه وكأس الطلا[1] لديهم مدار
كم فتى من بني أمية أمسى وخيول الهوى به مستطار
كيزيد وشأنه مع أبي قيـ س وما قد عراه في عماره[2]
وندماه كابن جهدة والأخـ ـطل اذ عاقراه صفواً عقار
وقضى ليله مع ابن زياد وقتيب بن مسلم ونهاره[3]

« الديوان ص ٢٠ »

ويبدو لنا ان الشاعر قد نظم هذه القصيدة ليبدي إعجابه بفن الغنـ
وبالمغنين المشهورين لأن فن الغناء قد أخذ عليه لبه في مجالس لهوه وفي غير
فأحب أن يؤرخ لهذا الفن تأريخا يبتعد به عن جفاف العلم ويمزجه بحلاوة الادب
وطراوة العاطفة وغضارة الخيال وجمال المعاني وحسن التعبير وقدم لنا بذلك
وثيقة قيمة في فن الغناء العربي • ونرى وراء هذه الملحمة شيئا فنيا نفسيا آخر لد
الشاعر هو أن يجد لنفسه العذر أمام نفسه وأمام الناس في الاستمتاع بالغنا
والاعجاب بالمغنين والمغنيات وحب بعضهم والاستمتاع بمجالات اللهو المختلف
فانه كان مرموق المكانة في مجتمعه وربما استنكر بعض الناس لهوه ومرحه فأحب
أن يخبرهم أو أن يذكرهم بأن عظماء الملوك والخلفاء قد سمعوا قبله وطربو
وأحبوا وعشقوا ولهوا وشربوا وثملوا وكانوا على ذلك عظماء وبقوا كذلك •

---

(١) الطلا : اصلها الطلاء بكسر الطاء وهي ما يطبخ من عصير العنب ويكنى به عن الخمرة . والطلي بكسر الطاء والالف المقصورة : اللذة .

(٢) ابو قيس : قرد ليزيد بن معاوية كان يلهو به وقت شرابه . وعمارة اخت الغريض المغني كانت من اجمل النساء وجها وغناء .

(٣) مسلم بن زياد : نديم يزيد .

لقد كان الشاعر من خلال خمرياته وغنائياته يجمع في إطار واحد بين الطبيعه والغزل والخمرة جمعاً تظهر فيه وحدة ذاته ووحدة تجربته الشعورية الجمالية التي تنظر الى مراتع الجمال ومنعة الحس نظرة كلية واحدة وتجمع بينها في إطار نفسي واحد يتمّ فيه التآلف والتوحد ولذلك كان شعره في هذه الموضوعات عذبا بعيدا عن التصنع •

شـــعر الحشيشة

بقي الناس في هذا العهد يتناولون الحشيشة وظل الشعراء فيها مولعين بها أو ناقمين عليها وعلى من يتناولها ولعل الولع بها كان أقل مما كان عليه في العهدين السابقين ولعل النقمة عليها كانت فيه أشد •

ومن الشعر المزري بها ما قالته زينب بنت الشيخ رضي الدين الغزي تنصح محمد بن احمد المعروف بابن أبي الجود بعدم أكل الافيون وهو قريبُها (توفي سنة ٩٨٢ هـ) وقد قالته في شكل مواليا :

يا ناصِرْ الدّين يا ابنْ الكِشكْ يا ذا الجودْ
اسمعْ أقـــولْ لك نصيحة تطـرب الجلمودْ

بسّكْ تعاني اللبَـــنْ فهمّكْ هـــو المقصودْ
يصـــيرْ بالَـــك ومالَـــك والذكـــا مفقـــودْ

« الكواكب السائرة ج٣ ، ص ٥٣ »

وقد استعملت زينب فن المواليا لتنصح قريبها بترك الافيون ونراها استعملت العامية في نظمها ، واستعمالُها عريق في فن المواليـــا •

وكان البوريني (٩٦٣ ـــ ١٠٢٤ هـ) في مبدأ أمره لا يتناول شيئا من المكيّفات وقد قال لما رأى إكباب الناس على البَرْش وهو الأفيون :

عمّ البلاء بأكل البرشِ فانتقعتْ مخايلُ الناس في خَلْقٍ وأخلاقِ
ولو تصوّر هذا الدهرُ في رجلٍ لأبصرْته الورى في زِيّ دِرياقِ

« خلاصة الاثر للمحبي ج٢ ، ص ٢٥١ »

ثم ابتلي بأكله حتى ظهر في فعله وهيئته وحركته الا أنه لم يغير من ذكائه ونوادره • ذكر المحبي من لطائفه التي رآها بخطه انه سئل عن الحب هل هو بالكسر أو بالضم فقال هو بالكسر ويستحسن فيه الضم • وعن الجفن أهو بالكسر أو بالفتح فقال هو بالفتح ويستحسن فيه الكسر • ويدلّ هذا على حضور بديهته •

وكان القاضي ابن الجيعان[1] يتناول الحشيشة والخمر ، فأنشده الشهاب الخفاجي (١٠٦٩ هـ) مداعبا :

لا تبك هندا ولا تعتب بأسماءِ
واصرف زمانكَ في لهوٍ وأهواءِ

يوما ببَرْشٍ ويوما بالحشيش وبالـ
أفيونِ يوما ويوما كأسِ صهباءِ

« الريحانة ج٢ ، ص ١٨٣ »

وهذان البيتان يدلاننا على أن بعضا من علية القوم حينئذ كانوا مولعين بالحشيشة مع الخمر •

شعر قهوة البن

وقد عرف هذا العهد ما يسمى ببيت القهوة (بمعنى المقهى) • وكانوا

---

(١) كان معاصرا للشهاب الخفاجي وصديقا له وهو من اسرة اشتهرت في مصر ، وكان كريما حسيبا اديبا . وكان لا يحسب من عمره غير أوقات صفوه ولذّته ولهوه . وقد ترجم له الخفاجي في خبايا الزوايا لوحة ١٥٦ ب ، والمحبي في خلاصة الأثر ، ج١ ، ٣١٠ . « عن الريحانة ج٢ ، ١٨٢ وحاشيتها و ص ١٨٣ » .

يذهبون اليه لشرب القهوة التي اختلف في تحريمها حينئذ . وكان من أنصارها الشيخ أبو الفتح الذي نظم أبياتا في الاشادة بها . وكان من أعدائها يوسف العيناوي . وقد اختلفوا فيها بين التحريم والتحليل .

وكان بيت القهوة يجمع بين جمال المكان وجمال الساقي والماء الجاري .

(من معجم القرن الحادي عشر ، عن مقال للاستاذ شفيق جبري من وحي قراءته لكتاب تراجم الاعيان للبوريني ، نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مجلد ٤٢ ، ج٣) .

كانت قهوة البن في بدء اكتشافها واستعمالها في الدور الاول من هذا العهد . لذلك نرى الفقهاء والشعراء يختلفون فيها بين التحريم والتحليل . يقول فيها علي جلبي الحمصي وهو ممن توفوا في الثلث الاخير من القرن العاشر الهجري :

أقول لاصحابي عن القهوة انتهوا
ولا تجلسوا في مجلس هي فيه
وما كان تركي شربها لكراهة
ولكن غدت مشروبَ كلِّ سفيه

قال النجم الغزّي بعد هذين البيتين ، وهذا قريب من قول أبي السعود مفتي الروم وقد سئل عن القهوة : « ما أكبَّ أهلُ الفجور على تعاطيه ، لا يحسُن ممن يخشى اللهَ ويتقيه » .

« الكواكب السائرة ج٣ ، ص١٩٦ »

وقال أبو المواهب البكري يصف القهوة والفتاة الساقية في مجلس ببولاق على النيل ، ويبدو لنا من خلال أبياته أنّ شاربيها في بيت القهوة كانوا يحتفلون بشربها كالخمر :

يا يومَ بُولاقَ وأُنسي به حكاكَ مَن شوّالَ يومُ الهلالْ
واقبل النيل جنوبا ، وما من عارضٍ إلا نسيمُ الشمال

يا عارضا اوجب للنيل ما ... سلسله ، وهو طليق المجال
وقهوة ٍ تنضح مسكا ، ولا ... بدع ، ففي الفنجان شكل الغزال
حَبابها من فوقها مانع ... نفاره ، فهو شباك السلال
نديرها هيفاء ممشوقة ... خود تثنت في برود الدلال
كاد حجا من أقبلت نحوه ... يذهب من رنات تلك الحجال
بغرة أو طرة وزعت ... أفكارنا بين الهدى والضلال
تقول للشمس ، وقد أقبلت : ... تلثمي ، ما أنت إلا خيال

« المنتخب ج١ ، ص ٢٢٤ »

يصف الشاعر البكري مجلس القهوة على النيل في وقت اختلف فيه الفقهاء في تحليلها وتحريمها ونرى أن الشاعر يستحل شربها ويشربها في محراب الطبيعة على النيل ويصفها ويصف فنجانها والفتاة الساقية وصفا جميلا شيقا طغى فيه وصف الحسناء على وصف القهوة .

وقد خمس محمد بن أحمد بن أبي الجود (ت ٩٨٢ هـ) المشهور بابن الكشك وبابن ابي الحبل ، أبيات البكري في القهوة فمما قاله :

كم قلت والصدق غدا مبهتا ... أما تخاف الله حتى متى
رغما به فيما به قد أتى ... يا قهوة تذهب هم الفتى

انت لقاري العلم نعم المراد

ويحك كم تذكرها بالجفا ... معاندا أهل الوفا والصفا
ونفعها بين الورى ما خفى ... شراب أهل الله فيها الشفا

لطالب الحكمة بين العباد

يا طيبها فيها الهنا والمنى ... وتذهب البؤس وتنفي العنا
ومن سنا ما تحتوي أتننا ... نطبخها قشرا فتأتي لنا

في نكهة المسك ولون المداد

« الكواكب السائرة ج٣ ، ص ٥٤ »

ولابراهيم بن المبلّط (الذي كان حيا سنة ٩٩١ هـ) في قهوة البن محبّذا شربها :

يقول عذولي قهوة البُنّ مُرّة — وشربة حُلْو الماء ليس لها مِثْل
فقلت على ما عابتَها بسرارة — قد اخترتُها فاخترْ لنفسك مايحلو

وقال فيها أيضا :

أرى قهوة البنّ في عصرنا — على شربها الناس قد أجمعوا
وصارت لشرّابها عادةً — فليس تضرُّ ولا تنفع

وقد شهر عنه قوله :

يا عائبا لشراب قهوتنا التي — تشفي شفاء النفس من أمراضها
أوَما تراها وهي في فنجانها — تحكي سواد العين وسطَ بياضها

وذكر الغزي (٩٧١ — ١٠٦١ هـ) صاحب الكواكب السائرة أن لبعضهم في هذا المعنى :

اشرب هنيئا قهوةَ البُنّ التي — تحلو من الإخوان والخلانِ
سوداءُ في المبيضّ من فنجانها — تحكي سوادَ العين للانسان

ثم قال الغزي ، وأحسنُ منه قولي :

اشرب من القهوة صاعيْنِ — ولو ببذْل الوَرْق والعَيْنِ
سوداءُ في بيضٍ فناجينها — كأنها الإنسانُ من عَيْنِ

« الكواكب السائرة ، نجم الدين الغزي ج٣ ، ص ٩٣ »

وتدلّ هذه المقطوعات على ولع الناس بهذا المشروب الجديد في ذلك الوقت .

وقد أبطل السلطان مراد المقاهي (القهوات) ومنع تناول (شرب) التبغ .

« المحبي ، خلاصة الاثر ج٤ ، ص ٣٣٩ »

الشعر في التدخين

وكان التدخين أمرا مستحدثا جديدا في الدور الثاني من هذا العهد زمن ابن النقيب الدمشقي (١٠٤٨ ــ ١٠٨١ هـ) وقد أثار استعماله ضجة بين الناس والفقهاء واختلفوا فيه بين تحريم وتحليل ومضى من أولعوا به واعتادوا عليه يتلذذون به لا يلوون على شيء •

قال ابن النقيب يصف النارجيلة وشدة ولعه بالتدخين :

أعددتُ للتّبغ وترشافِهِ	نبعةَ حُسْنٍ كُلّلتْ بالجُمانْ
ما قصباتُ السَّبْقِ إلاّ لَهَا	في حلْبةٍ حَلّتْ محلَّ السِّنانْ
قد زُخرفتْ من بَعدِ ترصيعِها	ولا يلي الزخرُفَ إلاّ الدُّخانْ

« الديوان ص ٢٨٢ »

فهذه الأبياتُ الثلاثة تظهر ولَع ابن النقيب بالتدخين واهتمامه بوصف النارجيلة ونوابعها وما نقش عليها من زخرفة وترصيع واقتباسه اسمي سورتين من القرآن هما الزخرف والدخان ليورّي بهما ويحلّي كلامه •

ومما اشتهر للكوراني[1] معاصر ابن النقيب الحلبي قولُه في التبغ :

لقد عنّفونا بالدخان وشربه
فقلت : دعُوا التعنيف ، فالأمر أحوجا

ألا إنّ صِلّ الغَمّ في غارِ صدرِنا
عصانا فدخّنّا عليه لِيخرُجا

هكذا برّر الكوراني تناول الدخان بانه يذهب الغم واستعمل هذا التشبيه الذي جعل فيه الغم كالثعبان الذي يدخن عليه الحاوي أو الساحر ليخرجه من وكره • والخيال لطيف خفيف الظل •

---

(١) نجد ترجمته في خلاصة الأثر للمحبي (ج٢ ، ٣٥٢) •

الأوزان والقوالب الشعرية القديمة والمستحدثة :

تابع شعراء هذا العهد أسلافهم من شعراء الدول المتتابعة في النظم على بحور الشعر التقليدية ، والخروج عليها أحيانا الى استعمال بعض البحور المستحدثة كبحر السلسلة والقوالب الشعرية المستحدثة كالموشحات والأزجال والمَوالـا والدوبيت •

ولدينا الآن أبياتٌ على بحر السلسلة قالها أحمد السابق الأديب (المتوفى سنة ١١٦١ هـ) يتغزل في أولها ويمدح النبي في آخرها • ووزن هذا البحر فعلن فعلاتن مستفعلن فاعلاتن ، مرّتين •

وبعتري هذه التفعيلات المشتقاة من عدة بحور عده تغييرات تعتريها عاده في بحورها الاصليّة ، واليك هذه الأبيات :

مـن غرّكَ بالصـد للمحـبّ واغـراكْ
نرمـي بسهـامٍ عـن اللواحـظ فتّـاكْ

يا ظبـي كِناسـي ويا خلاصـة ناسـي
كـم عهديَ تنسى وليس قلبـي ينسـاكْ

يـا نِعْمَ جليسٌ ويـا أعزّ أنيـسْ
لا عـاش عَـذولٌ عـلى تلافـي ولاكْ

يا سـالبَ لبّـي ويا حُشـاشـة قلبـي
ما تكشفُ كربي بطيبِ سـاعةِ لُقيـاكْ

لقيـاكَ مَرامـي وفيـكَ زادَ هُيـامي
ارحَم لِسَـقامي ودَع لِعـاذلٍ ينهـاكْ

أصبحـتُ وحالي مِن الصدودِ عجيـبْ
هل منك مُجيـبٌ يفك عُقدة أسـراكْ

قــد رُدْتُ بنجبي وما درى بــي صحبي
لا تحــرقْ قلبــي فــإنَّ قلبــي مأواكْ

أشـمَتّ حســودي وقد نقضتَ عهودي
وزدت بصــدّي وبات طــرفي يرعــاكْ

يا خــيرَ نبيٍّ لـــه الفضــائــلُ تعنــو
قد حزتَ فَخــارا وقد أعزّكَ مــولاكْ

يا صفــوةَ ربــي عَســاكَ تجبُر قلبــي
إذْ مدحُك دأبي أريــد وصفَ سجاياكْ

لا أقــدِرُ أوفي ببعــض بعضِ مَديــحٍ
في بــدرٍ مَليــحٍ لــه المَحامد أفــلاكْ

« سلك الدرر للمرادي ج ٢١، ص ١٨١ ــ ١٨٣ »

وهذا الوزن لا يتلاءم كثيرا مع الذوق العربي الذي ألف البحور الستة عشر التقليدية . يضاف الى ذلك عدم ترابط الابيات وانقطاع الصلة المنطقية بينها الا فيما يتعلق بموضوعها الذي هو الغزل ، وهي ركيكة ضعيفة التأليف ، باهتة العاطفة مبتذلة المعاني قليلة الصور ، ضعيفة النفحة ، وتنتهي بالمديح النبوي .

ومن مظاهر الصناعة المغرقة في التكلف لدى بعض الشعراء في هذا العهد نظم القصائد المتعددة الأوزان والقوافي والقراءات . ومنها قصيدة لابن معتوق[1] (١٠٨٧ هـ) اخترنا منها :

فخــر الــورى حيــدري عــمّ نائلــه
فجر الهدى ذو المعَــالي الباهــرات عــلي

---

(١) هو شهاب الدين الموسوي الحويزي من اهل البصرة . كان فقيرا . له ديوان مشهور طبع مرارا في الاسكندرية والقاهرة وبيروت اكثره في مدح السيد خان ابن كمال الدين الموسوي . وهو مشهور برقته . عن « تاريخ آداب اللغة العربية . جرجي زيدان ، ج٣ ، ص ٢٨٠ » .

نجم السـهى فلكيـات مراتبـه

بادي السـنا نسرٌ يسـمو عـلى زُحَل

لَـثُ الثـرى قبسٌ تهمـي أناملُـه

غيثُ الندى مَورد أشـهى مـن العسل

بـدرُ البهـا أفـقٌ تبـدو كواكبُـه

شمسُ الدُّنى صبحُ ليل الحادثِ الجَلَل

سامي الذُّرا صـاعدٌ تُختشـى نوازلُـه

حتفُ العِـدا ضـاربُ الهامات والقُلَلِ

طودُ النُّهى عنـد بيـت المـال صاحبه

سـمط الثنـا زينـةُ الأجيـاد والـدول

عن « د• بكري شيخ أمين ، مطالعات في الشعر المملوكي ص ٢٠٣ »

وانما ساعد على النظم في هذا النمط ذي القراءات الكثيرة ما نراه في ترتيب القوافي بين الابيات من مزاوجة ، وما في جمل الابيات المقابلة للتفعيلات من تفكك ومن الدوران حول موضوع واحد • وخير ما نلخص به رأينا في هذا الفـن الزخرفي قول الرافعي :

« ولقد قرأنا ان شاعرا عمل قصيدة واشتغل باحصاء الوجوه التي تُنْظَم بها فبلغت في عينه مليونَ وجه • وذلك عالَم من الارقام في قفر من الكلام » •

« تاريخ آداب اللغة العربية ، الرافعي ج٣ ، ص ٢٩٠ »

وخمّس الشعراء بعض القصائد لسابقيهم أو معاصريهم • قال أحمد السابق (المتوفى سنة ١١٦١ هـ) مخمسا بيتي الشافعي :

تهاجمـت الأهوال مـن كـل جانبِ عـليّ ودهـري خصّنـي بمصائب

وقومٍ رأونـي ذا جفـون سـواكب يقولـون إنّ الصـبر أكـرم صاحب

صدقتـم ولكن قـد تقضـى به عمـري

فيا قومُ مَــن لي قد أضرّ بي العَنا   ولم أدرِ يومــاً أيــةٌ ســاعةُ الهنــا
هَبُوا انّ صبري صار طبعاً وديْدَناً   اذا كنــتُ ذا صبر ولــم أبلغُ المُنى
ومِتُّ أنــا من يجتنــي ثمــرَ الصــبر

« سلك الدرر للمرادي ج١ ص ١٨١ — ١٨٣ »

ولم يكتف ابن النقيب بنظم الشعر التقليدي ، فنراه ينظم مسمّطا رباعيا مطلعه :

يــا مُؤْثــراً للهــو طِيبَ النّعمَه   ورافعــاً فيــه سُــجوف الحِشــمه
كمْ في تصاريفِ القَضا مِن حكمَه   وليــس بعــد الأنبيــا مِــن عصمَه

« الديوان ص ٢٦٧ »

ونراه يعارض لِسانَ الدين بنَ الخطيب بموشحٍ مطلعُه :

يا ليــالي الســفح من عهد الصِّبــا   يا ســقى مغنــاكِ صوبُ الدِّيَــمِ
كــم تسرّقــتُ بهــا بــين الرُّبــا   خِلَســا مــرّت كطيــف الحلُــم
في زمــانٍ لــذَّ عيشــاً وصفــا   نعِمــت آصــالُه والبُكَــرُ
قــد حلَلْنــا فيــه روضــاً اُنُفــا   يســتبينا طــيرُه المســتحِرُ
بأهازيــجَ مِــن اللحــن هفــا   عندهــا النــايُ وزاغَ الوَتَــرُ

« الديوان ص ٢٤٦ — ٢٤٧ »

وقد أورد المحبي هذه القطعة من الزجل لأحد معاصريه على وزان « يا غائبين عني ما ترجعــوا » :

من تعشقو بالهجر قلبي قــلا لمــا قــلا
وحين على جمر الغضــا لي ســلا عنــي سلا
وزاد عــلى قلبــي العنــا والبــلا
وأمسيت بلا جليس أنيس عاني وجودي عدمْ
سكرانْ فِراق هائمْ نديمي الندمْ
وقــد سقانــي البيْنْ بكاســه جُرَعْ
دلّني كيف أصنعْ
والعــذولْ بِــي شــنّعْ
وامتنــع عني الذي أهوى وظهري انقسمْ
حظّي مُسْوَدّ فاحِمْ ما رأيت لي راحِمْ أو لسُقْمي آسْ

أهيمْ في النّوّاحْ ومرّي في النواحْ في جحيم ما تخمّدْ وأمسى جفني الرمِدْ
مِن تجني قاسْ

« خلاصة الاثر لمحمد المحبي ج١ ، ص١٠٨ ــ ١٠٩ »

وقد أكثر شعراء هذا العصر من نظم الرباعيات وممن أكثر منها البهاءُ العاملي (ت ١٠٣١ هـ) ومن رباعياته :

كم بتّ مــن المســاء الى الإشراقِ ... مــن فرقتــكمْ ومطربي أشــواقي
والهمُّ منادمــي ونقْلــي نَدَمــي ... والدمــعُ مُدامتي وجَفني الســاقي

« الريحانة ، الخفاجي ج١ ، ص ٢١٢ »

* * *

ومنهــــا :

يا ريــحُ اذا أتيــت دار الاحبــابْ ... قبّلْ عنــي تراب تلــك الأعتــابْ
إنْ هم سألوكَ عــن البَهائي فقلْ ... قد ذاب من الشوق إليكم قد ذابْ

« المرجع نفسه ص ٢١٣ »

* * *

ومنهــــا :

قم وامضِ الى الدير بِبَخْتْ وسَعودْ ... لا يحسُنُ في المدرسة اليومَ قعودْ
واشربْ قدَحا وقلْ على صوتِ العُودْ ... العُمْرُ مضى وليس مِنْ بعدُ يعودْ

* * *

ومنها ما كتبه الى بعض إخوانه بالنجَف الأشرف :

يا ريــحُ اذا أتيتَ أرضَ النجَفِ ... فالثِــمْ عنــي ترابَهــا ثــم قِــفِ
واذكر خبري لــدى عُرَيْبٍ نزلــوا ... واديــه وقــصّ قصــتي وانصرفِ

« خلاصة الاثر ج٣ ، ص ٤٤٠ ، وسلافة العصر ص ٢٨٩ »

ومنهــــا :

يا قوم الى مكة هــذا انا ضيــفْ ... ذي زمزم ذي منى وهذاك الخَيْفْ
كم اعــرِكُ عيني لأســتيقنَ هــلْ ... في اليقظة مــا أراه أم هــذا طيْفْ

« خلاصة الاثر ج٣ ، ص ٤٤٠ وسلافة العصر ٢٨٩ »

ولابن النقيب رباعيتان وهذه إحداهما .

لله مِن السفحِ ظلالُ الوقفِ واتبعْ أثرا لمادحٍ فيه واقفِ
أوقفت على جدولها طرْفيَ مُدْ أطلقتُ به عنانَ داك الوقْفِ

« الديوان ص ٢١٧ »

وجاء في ديوان ابن النقيب هذه الموالبا :

لو رحتُ أبكي بكتْ لأجلي القلوبْ القسي
أو بتّ أشكي للانتْ لِي الصخورْ العسِيْ

أبيت والوجدُ في قلبي حبالُهْ رُسي
أندبْ مُصابي وأحبابي عهودي نسِيْ

« الديوان ص ٣٠٩ »

وتتصور ان ابن النقيب نظم في هذه الفنون ليجاري شعراء عصره ويبين قدرته على النظم فيها ، هذا بالاضافة الى أن بعضها ، كالموشح والمواليا ، له اتصال وثيق بالغناء الذي كان يحبّه .

وكان على كل حال مقلاّ فيها وأكثر عناية بالشعر التقليدي .

من الفنون الطفيلية على الشعر :

ا ـ التشجير :

التشجير في اللغة يقصد به تفريع كلمة من معنى كلمة أخرى في استطراد وتسلسل ، وهكذا ...

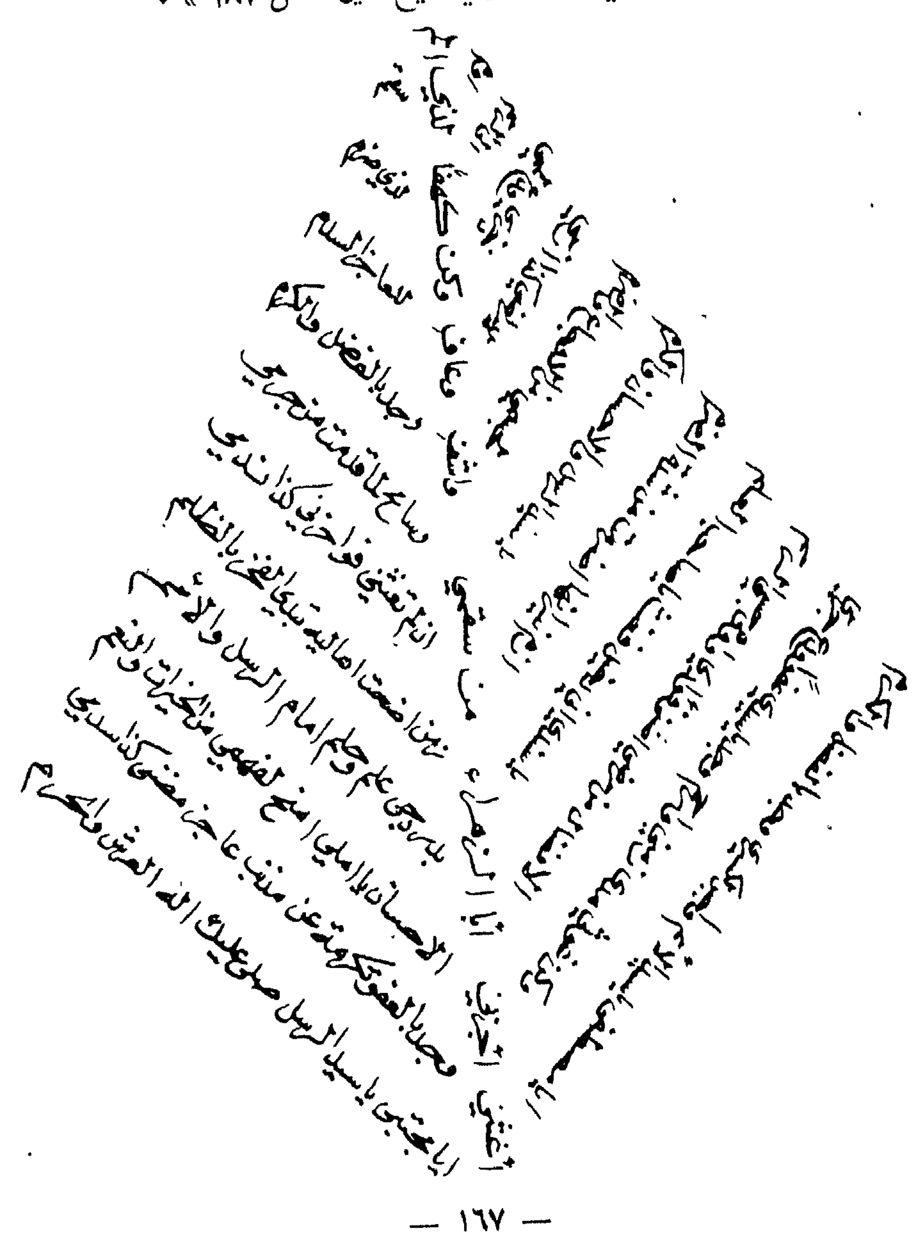
والتشجير في الشعر أن ينظم بيت يكون للقصيدة كجذع الشجرة ، ثم يفرع على كل كلمة منه تتمة له من قافيته نفسها ، وهكذا ، من جهتيه اليمنى واليسرى ، حتى يخرج منه مثل فروع الشجرة ويشترط فيها أن تكون من البحر نفسه .

ولم يعرف تشجير الشعر الا في القرن الحادي عشر الهجري . ويسمى هذا النمط من الشعر المشجّر .

وقد سبق العرب الى معرفة التشجير في النسب منذ القرن الرابع الهجري .

فاستعملوا ما يسمى شجرة النسب لبيان تسلسله وتفرّعه (الرافعي ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج٣ ، ص ٤٤٥) .

وهذا مثال من المشجّر للشيخ محمد فهمي (١٣٣٠ هـ) : « عن مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني : د. بكري شيخ أمين ، ص ١٨٧ » .



ويلاحظ أن التشجير لم يعرف قبل العهد العثماني ولعلّه اخترع للنقش على النحاس ونحوه في هذا العهد ابتكارا في البيئة العربية بقياسه على شجرة النسب ، أو نقلا عن الترك أو الامم الاخرى •

ب ـ ومنها التطريز :

وهو ان يشكل الشاعر من الحروف الاولى في الابيات اسم علَم لحبيب أو ممدوح ، كقول الامير نظام الدين أحمد بن محمد بن معصوم الحسيني ، وهو من رجال القرن الثاني عشر الهجري مطرزا باسم « خديجة » :

خلت خال الخد في وجنته ... نقطة العنبر في جمر الغضى
دامت الأفراح لي مذ أبصرت ... مقلتي صبح محيّا قد أضا
يتمنى القلب منه لفتة ... وبهذا الحظ للعين رضا
جاهلٌ رام سلوّاً عنه إذْ ... حظر الوصل وأوْلاني النَّضى
هامت العين به لمّا رأت ... حسن وجه حين كنا بالأضا

« المصدر السابق ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ »

وقد كثر فن التطريز في العهد العثماني • ولعلّه من أثر الترك في الأدب العربي •

ج ـ التاريخ الشعري :

أول من أدرج تاريخ الجمل بين أنواع البديع الشيخ عبد الغني النابلسي (ت ١١٤٧ هـ) في بديعيته « نفحات الازهار ، ص ٤٩٥ » • وقد أكثر منه أهل القرن الثاني عشر الهجري وافتنّوا فيه وكان المسلمون يؤرخون بالهجرة والمسيحيون بالميلاد • وقد رأينا قبلُ أنّه عرف واستعمل في العهد الفاطمي ـ الزنكي •

ومن أمثلة افتنانهم فيه أن أحدهم أرّخ لعرس في حلب فجعل الحروف المهملة في البيت الاخير تؤرخ للعرس وكذلك الحروف المعجمة فيه بالإضافة الى ذكر تاريخ العرس صراحة :

خذ تواريخا ثلاثا جمعت ... لك في مفرد بيت منبئهْ
بصريح وحروف أعجمت ... وحروف أهملت مختبئهْ

عـــمّ حول وسرورُ العرُسِ وهو ثلاثـــون وألـــف ومئه

« المرجع السابق ص ١٧٦ »

ومن أمثلة الافتنان أن أحدهم أرّخ لبناء مناره جامع البهرمه بحلب في كل شطر من شطور خمسة أبيات ، وكان تاريخ بنائها سنه ١١١١ هـ وهاك بيتا على سبيل المثال :

بشراه أجرى بالسرور بناءهـــا والخـــير أمنـــح بالهناء بنادي

« المرجع السابق ص ١٧٦ »

وبالغ بعضهم في تكلف الافتنان كشهاب الدين أحمد بن الفضل بن محمد باكثير المكي الذي نظم قصيدة من خمسة وعشرين بيتا على البحر الطويل في مدح الشريف علي بن بركات بن أبي نُمَي اذا جمعت الحروف الاولى من التفاعيل الاولى في كل أبياتها تكوّن بيتاً من بحر الهزج يؤرخ سنة نظمها ، وهكذا تكون الحال اذا أخذت الحروف الاولى من التفاعيل الثانية والثالثة حتى الثامنة • وهكذا يتولد ثمانية أبيات على بحر الهزج تؤرخ سنة نظمها ، فاذا أخذت الكلمة الاولى من البيت الاول من هذه الثمانيه والحروف الاولى من الشطور الاولى في السبعه الباقية ، وصنعت الامر نفسه في الشطور الثانية تكون شطران يؤرخان سنه نظمها أيضـــا •

وقيل إنّ الشاعر ابتلي بعد نظم هذه القصيدة من كثرة التفكير بعلّة لزمه أربعة أشهر • ولا شك في أن عمله هذا لا يمتّ للشعر أو للفن أو للذوق بأيّ صلة ، وانما هو من قبيل اللعب واللهو وتحطيم الرأس فيما لا غناء فيه ولا جمال •

وبديهي أن كل ما نظم أو ينظم في التاريخ الجُمّلي ليس له أيُّ طابع فني جمالي ، وهو يدلّنا على نمط من ذوق العصر المتكلف • وقد أحببنا ان نورد لك هذه القصيدة وما يتولد عنها من أبيات ليتجلى لك كيف يتحول الفن أحيانا الى صناعة ممجوجة تحطم الرأس ولا تثير عاطفة أو أي حِسٍ بديعي •

وهذه هي :

عـــليّ ان بـــت أجنـــي نـــور قربـــهم

روحـــي لمـــن كـــان للآمــــال ملزمـــي

لا يحسب الجاهل الصب الذي درست
حياته مل طولا من نفوذهم
يستعذب السداء ان وفّوا برؤيتهم
يا حبذا يوم رؤيا ملتقى أدمي
أحلى لديّ من الحلوى ولوعهم
بمرّ ما ألفوه طول صرمهم
لو أن من هجرهم أمسى لَقىً أيِستْ
أُساته لم أبُح يوما بشأنهم
حتى ولو سار سهم من نبال نوىً
لِمقلتي كان يحلو منه سفك دمي
منّوا على مغرم حان التلاف له
سؤاله رحمة بالوصل عن أَمَم
دع عنك يا أيها الساعي اتباع هوى
وكُفَّ عن فرط صدٍّ زاد في تُهَمي
فلو يلوح لذي نهي جمالُهمُ
حمِدتُ غيّي بمن أهدى الضنا وحمي
يطيب موتيَ إنْ أسعدْ بطيفِهمُ
فبعدَه أبداً لم أشكُ من ألم
ومخلصي واعتمادي مدح من صدقت
له المخايل في عزم وفي همم
صعب العزائم لا يرتاح من فزَع
ممنع الجار منن يلحظه لم يضم
فتلك مشفقة بالعزم صيّرها
كثيرة الأمن أعفاها من النقم

عـزيـز حـيّ غطـاريـف ذوي هـمم
روى عُلاهـم عـليٌّ المجـد في الأمـم

لعزّهـم أذعنـت أهـل الفخـام فما
يـرى عزيـز" تسـامى نحـو مجـدهم

يـودّ كـلٌّ مُبـاه لـو يكـون لـه
من فخرهـم بعـض ما سـادوا بهديـهم

مـن ذا يقاومهـم أو مـن يسـاهمهم
زادوا بفخـر عـليٌّ فـي علـوّهـم

سـما وخـصّ بفضـل ، مـن يطـاوله
الى مَراقيـه يهـوي بل وعنـه حـمي

عـليّ وصـف وفعـل في الطعـان اذا
ترى العـدا اطّرحوا هبـرا عـلى وضـم

درايـة مـن أبيـه المرتضـى ورنـت
بـدت لنـا منـه في وقـع القنـا بهـم

أمـتّ يـا أيهـا الليـث الهمـام ومـن
أحييـت دا أمـل ميْـتٍ وذا أطَـم

لقـد غـدا يتعـالى المجـد حـين روى
لعـزّ عليـاك منسـوبا بكـل فـم

صاهـرت يا كامـل العليـا ومسـعدها
لتهنكـم قـد حـويتـم صفـو كنزهـم

نظمـت وصفـك درّا ضمـن بهنئـة
طـراز عطف لـذا أرّخْ بـه حِكَمـي

فمـن عليّ بـدا فيـك الهـدى فزهـا
فسـد أبيّـاً وبالفـوز اللطيـف دُمِ

وهذه هي الأبيات الثمانية التي تستخرج من الحروف الاول في تفعبلات القصيدة :

علي الحمد في الوصف	علي مسعد الصنف
بجديه سما حتى	حوى في الوصف ما يكفي
نصوحا محسنا يجدي	بَراه الله للعُرْف
بديع الفعل في وصفيه من هَون ومن عُنف	
رحيبُ السوح في سلم	كريم زان باللطف
كمّي الكرّ في الهيجا	هزبر قط ما يُقتفي
إليه يلبد الداعي	فيسمي وهو مستكفي
ترى من كان والاه	ينادي وهو بالزحف

وهذا هو البيت الذي يستخرج من أبيات الهزج الثمانية ويؤرخ سنة نظم القصيدة :

عليّ بن بركات	عليّ حبه كهفي

« المرجع السابق ص ١٧٦ ـ ١٧٩ »

وأول من أدخل التاريخ الشعري بين فنون البديع الشيخ عبد الغني النابلسي يقول مؤرخاً وفاة الياس الكردي العالم الشافعي العابد الصوفي المتوفى سنة ١١٣٨ هـ :

قد كان في بلدتنا كامل	وهو الإمام المفرد الواحد
شيخ العلوم الياس نجم الهدى	ومن هو الموجود والواجد
من بعده مات التقى أرّخوا	ومات الياس التقي الزاهد

« سلك الدرر ج١ ، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤ »

وقد نظم عبد الرحمن البهلول قصيدة في مدح الشيخ عبد الغني النابلسي استاذه ، فيها مقدمة غزلية تتألف من ثمانية وأربعين بيتا ومدح يتألف من واحد واربعين بيتا ويتألف من مجموع الحروف الاولى في العزل بيت من الشعر ومن مجموع أوائل أبيات المدح بيت آخر وفي كل بيت منهما أربعةُ تواريخ ويذكر فيها اسم الشيخ . والبيتان هما :

أهديك مدحا بلبغا يا سنيّ غدا
بحر الفتوحات باهي الفضل والمنن
ألفاظه كنجوم فهي تشرق ما
بدا سنا بدرها أرّخه عبد غني

« سلك الدرر للمرادي ص ٣١٠ ـ ٣١٨ »

ولعبد الله الشبراوي (١١٧٢ هـ) هذه الابيات يرثي بها أحمد الدلنجاوي ويؤرخ وفاته :

سألت الشعر هل لك من صديق ... وقد سكن الدلنجاوي لحده
فصاح وخرّ مغشياً عليه ... وأصبح ساكنا في القبر عنده
فقلت لمن أراد الشعر أقصِر ... فقد أرّختُ مات الشعرُ بعده

٤٤١ ، ٦٠١ ، ٨١

(١١٢٣) المجموع

« المفصل ج٢ ، ص ٢٨٢ »

يرثي الشبراوي في هذه الابيات صديقا له شاعرا ، ويجعل الشعر يموت بموته ويدفن معه ليدلّنا على فضله في الشعر • وقد استعمل تاريخ الجمّل الذي كان شائعا في ذلك الوقت ليؤرخ سنة وفاته ووُفّق الى أن يجعل الجملة التي يؤرخ بها مناسبة لمعاني جمله السابقة •

النثر خلال العهد العثماني

تمهيد :

نجد في هذا العهد أنواع النثر الثلاثة التي عرفت في العهود السابقة وهي :

أ ــ النثر الديواني ب ــ النثر العلمي التأليفي ج ــ النثر الأدبي •

ويلاحظ أن الخطابة في هذا العهد وهي نوع من النثر الادبي اقتصرت على الخطب الدينية أيام الجمع والاعياد وكانت تقليدية بعيدة عن الابتكار تجترّ خطب الأقدمين كخطب ابن نباتة السعدي وغيره ممن ألّفوا كتبا في الخطب الدينية ويتلوها الخطيب من ورقة أو كتاب أو يحفظها فيسردها عن ظهر قلب •

وقد قيل بأن اللغة التركية كانت وحدها لغة الدواوين الرسمية • ويضعّف من هذا القول أو يخرج عليه أننا وجدنا نثرا ديوانيا بالعربية متبادلا بين سلطان تركي وأمير عربي والسلطان التركي هو الذي كان البادىء بالكتابة في العربية ، وذلك خلال هجوم نابليون على مصر • ونعلّل هذا الذي وجدناه بما يلي :

١ ـ أنّ الكتابة الى الامراء العرب كان يجب أن تكون بالعربية التي يفهمونها •

٢ ـ ان العربيه بقيت لغة الثقافة الاولى في العهد العثماني لانها لغة القرآن والعلوم الدينية ، وكان على العلماء والادباء الاتراك وغيرهم من الاعاجم المسلمين أن يتعلموها ليتفقهوا في دينهم • وكان الى جانبها في هذا الميدان التركية والفارسية • ولقيمة اللغة العربية الدينية كانت المدارس التركية التي أنشأها سليمان القانوني في الاناضول والقسم الاوروبي من البلاد العثمانية تعلّم العربية ، وكان على رجال العلم والادارة والسياسة أن يتعلموها الى جانب التركية والفارسية ، فعرف عن غازي باشا بن شاهوار الجركسي أنه كان عارفا باللغات الثلاث « خلاصة الاثر ٣ : ٣٤٤ »[1] وكان بعض الأدباء العرب يتعلمونها ثلاثتها •

ذكر المحبي في ترجمة ابن الصائغ (محمد بن ابراهيم الحنفي المصري) انه كان يعرف اللغة الفارسية والتركية حق المعرفة بحيث انه اذا تكلم بهما يظن من أهلهما ، (خلاصة الاثر ، ج٣ ، ص ٣١٧) • وهذا يدل على أن هاتين اللغتين قد أخذتا تزاحمان اللغة العربية خلال العهد العثماني في المجالين الديواني والأدبي •

٣ ـ أنّ التركية كانت لغة السلطان ومن حوله في القصر من رجال الدولة • وهي لغتهم فكانت أسهل عليهم ، ولكنهم لم يكونوا يجهلون العربية وقد كان بعضهم ينظم بها أو يستشهد بما يحفظه من شعرها •

---

(١) ظهر كتاب أعاجم أتقنوا العربيه منهم قاضي العساكر « طاشكبري زاده » الذي يقول فيه المحبي : « لم ير نظيره في طلاقة العبارة والتضلع من العربية » ويقول فيه النجم الغزي : « لم ار روميا افصح منه باللسان العربي » (خلاصة الأثر ج٣ : ٣٥٦) •

وقد أوردنا قبل ونحن نتحدث عن حالة الشعر في العهد المملوكي الثاني بعض ما روي عن السلطان سليم فاتح مصر والشام ونضيف هنا أن السلطان أحمد بن محمد بن مراد (ت ١٠٢٦ هـ) كان شاعرا بالتركية مَخْلَصه ، على قاعدة شعراء الروم ، بختي ، وهو ضرب من النظم معروف في الشعر التركي وكان ميالا الى الادب والمحاضرات وقد رويت له الابيات التالية في الشعر العربي :

ظبي يصول ولا اتصال إليه	جرح الفؤاد بصارمي لحظيه
ما قام معتدلا وهز قوامه	الا تهتكت الستور عليه
يسقي المدامة من سلافة ريقه	ويخصنا بالغنج من جفنيه
عيناه نرجسنا وآس عذاره	ريحاننا والورد من خديه
يا شَعْرُ في بصري ولا في خده	إني أغار من النسيم عليه
(عجبي لسلطان يعز بعدله	ويجور سلطان الغرام عليه)
(لولا أخاف الله ثم جحيمه	لعبدته وسجدت بين يديه)

والبيتان الأخيران مضمّنان من شعر ابن رزّيك أحد وزراء الدولة الفاطمية المعاصر لنور الدين زنكي « خلاصة الاثر ٤ : ٣٠١ و ج١ : ٢٨٤ ــ ٢٨٥ » •

٤ ــ ان الناس ذوي الحاجات كانوا يكتبون شكاواهم وعرائضهم المرسلة من البلاد العربية الى القسطنطينية بالعربية حتى في زمن الاتحاديين المتعصبين للتركية المبغضين للعرب • وقد قرأ لي أحد مشايخ دمشق وهو الشيخ سعيد القواف المتوفى منذ بضع سنوات نصّ كتاب كان قد أرسله الى الباب العالي خلال الحرب العالمية الاولى يطلب فيه اعفاءه من الجندية ومعاملته معاملة غيره من علماء الدين وهو يستهلّه ببعض الشعر العربي • وأخبرني بانه قد استجيب لطلبه حينئذ •

٥ ــ أنّ الجهل قد ساد حين انحلال الحكم العثماني ، قبل الاتحاديين ، بين الاتراك والعرب على السواء ، ولكن الامر قد اختلف زمن الاتحاديين بدءاً من أواخر القرن التاسع عشر ، فقد أراد هؤلاء تتريك العرب وغيرهم من الاجناس الداخلة تحت الحكم العثماني فتصدت لهم الجمعيات السياسية العربية مطالبة بالاصلاح وجعل اللغة العربية لغة رسمية في البلاد ، محافظة على القومية العربية •

- أنّ أصالة اللغة العربية قد طوّعت التركية فأدخلت فيها كثيرا من ألفاظها وقد دعمها في ذلك التأثير الديني والتقدّم الحضاري ، على حين لا نجد في العربية إلا النزر اليسير من التركية .

وسنرى أنّ النثر الصادر عن السلطان سليم الثالث العثماني (١٧٨٩ — ١٨٠٧ م) في مستوى النثر الذي كتب به شريف مكة الى إمام اليمن بمناسبة غزو نابليون لمصر . وقد رأينا في كتب التراجم التي ألفت في هذا العهد مثل « الكواكب السائره في أعيان المئة العاشره » للغزي ، و « خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر » للمحبّي ، و « سلك الدرر في رجال القرن الثاني عشر » للمرادي ، و « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » للشوكاني ، و « ملحق البدر الطالع » لمحمد بن زبارة الحسني اليمني الصنعاني كثيرا من العلماء الأدباء الموالي ينظمون الشعر ويكتبون النثر في المستوى الذي كان يكتب به العرب أمثالهم أو في مستوى يقاربه . باستثناء قلة من الادباء العرب اللامعين كالخفاجي وابن النقيب الدمشقي ومنجك الذين كانوا محلّقين بالاضافة الى أدباء عصرهم .

وقد وجدنا أن بعض النثر الذي أوردناه ، الديواني منه والعلمي والادبي ، ليس دون مستوى النثر في العهد المملوكي من حيث الأسلوب التعبيري إلا أنّ بعضه الاخر كان فيه تعابير عامية أو ركيكة أو أخطاء نحوية أساءت اليه .

ووجدنا من حيث المضمون أنّ الافكار الدينية ، والصوفية منها بخاصة ، هي الغالبة على هذا النثر بالإضافة الى أن الروح الديني المسلم ظاهر ضد الغزاة الفرنسيين في الكتابة الديوانية .

ورأينا التعصب المذهبي ضد المذهب الشيعي ظاهرا في نص تاريخي ، لم نورده في هذا الموجز ، من كتاب « الخميس في أحوال انفس نفيس » ، وهو في موضوع تدمير هولاكو لبغداد والحديث خلال ذلك عن ابن العلقمي الشيعي ، وهو يعكس روح العداء التي كانت سائدة حينئذ من جرّاء الحروب بين الدولة

العثمانية السنية والدولة الصفوية الفارسية الشيعية التي أساسها في رأينا سياسي وليس مذهبيا •

وكان الجمع والاخذ عن الاقدمين هو الغالب على التأليف الذي كان يسوده غالبا روح المحافظة على الاخلاق والدين وعادات السلف • ومثاله النص الذي سنورده وندرسه للشيخ علوان في الأعراس • ويظهر في بعض النصوص روح العناية بأصول الحضارة والاداب العامة كالنصوص في كتابي آداب المؤاكلة وآداب العشرة للغزي • وهي تدل على روح حضاري أصيل وذوق مصفّى أدى اليهما تسامي الروح العربي وتهذيب النفوس والطباع خلال عصور طويلة • ولم نورد شيئا منها هنا رغبة في الاختصار •

ويظهر في بعض النصوص روح النقد للاحوال السيئة والحكام المسيئين ، كما سنرى في مقامة الخفاجي التي يذم بها قاضي القسطنطينية وابنه •

وتظهر في بعض النصوص القدرة على وصف الاحوال المعنوية كما سنرى في نص الطالوي في الشوق وفي رسالة البوريني التي أجاب بها على عتاب صديق •

ومن حيث الاسلوب نلاحظ انه كان يغلب على النصوص العلمية التحرر من القيود والصناعة بما فيها السجع ، والانصراف الى أداء المعاني بحرية ، وسهولة الالفاظ والأداء مع مراعاة الصحة ، ونستثني من ذلك النص التاريخي من كتاب « الخميس ••• » ففيه سجع وبعض صناعة ، ولم نورده ، ونص الشيخ علوان المورد فقد مالت به سهولة الأداء الى مقاربة العامية ، ونلاحظ أنّ النصوص الادبية كانت تغلب عليها الصناعة ، ولكنّ كتّابها كانوا متمكنين من صناعتهم قادرين على أداء أفكارهم بقوة ووضوح ، وكان الخفاجي ، أحدهم ، في مستوى كتّاب العهد المملوكي الاول •

ويغلب على النصوص التي سنوردها كلها : علميه وأدبية وديوانية ، محاكاة الاقدمين والاخذ عنهم في المعاني والصور وطرق الأداء ، وقلةُ الابتكار ، أو

تعدامه . مع القدره على التوفيق بين التقليد والاخذ من القديم وبين مراعاة المقتضيات والمناسبات والاحوال التي يعينون فيها[1] .

وقد يكون التزام التقليد ناجا عن عدم تبدل الاحوال عن ذي قبل . وعدم حدوث ثورات سياسية اجتماعية تقلب الاوضاع والمفاهيم . فتبقى أساليب التفكير والاداء كما هي دون تغيير . لان النفوس نفسها لم تتغير . مع تفاوت ، في مستويات الكتّاب فيما بينهم بطبيعة الامر • وسنحاول ان نستبين مميزات أنواع الكتابة وسماتها في هذا العهد من النصوص التالية :

أ ــ الكتابة الديوانية

١ ــ كتاب السلطان ملك الروم أي السلطان العثماني ••• الى شريف مكة غالب بن مساعد ، بمناسبة هجوم نابليون على مصر :

« وبعد فهذا مرسومنا المبجل الشريف ، وخطابنا المعظم المنيف لا زال نافذا بعون الله في سائر الارجاء والاقطار ، ما دام الفلك الدوار ، أصدرناه مبنيا على نظيم فرائد التحية والتسليم ، ومنصوبا عــلى قلائد التبجيل والتكريم ، محتويا على قواعد صيانة الدين ، مؤكدا لمعاقد حماية سنن سيد المرسلين ، صلى الله عليه وآله وصحبه أجمعين •

« أصدرنا الى عالي جناب الامير الامجد ، المبجل الأجلّ الاوحد ، المقتفي آثار أسلافه الاشراف ، من آبائه الغرّ صناديد آل عبد مناف ، وأجداده السعيدي

(١) وقد ظهر في هذه العهود بعض أعلام المفكرين والادباء مثل : عبد القادر البغدادي (١٠٣٠ ــ ١٠٩٣) « راجع خلاصة الاثر ٢ : ٤٥٢ » والشهاب الخفاجي (ت ١٠٦٩ هـ) « خلاصة الاثر ١ : ٣٣١ ــ ٣٤٣ » والمقري التلمساني صاحب « نفح الطيب » (١٠٤١ هـ) « المختصر للمحبي ١ : ٣٠٥ » والبهاء العاملي (٩٥٣ هـ ــ ١٠٣١ هـ) « خلاصة الاثر ٣ : ٤٤٠ ــ ٤٥٤ » ونجم الدين الغزي (٩٧٧ ــ ١٠٦١ هـ) « خلاصة الاثر ج٣ : ١٩٥ ــ ١٩٧ » ونور الدين الحلبي صاحب السيرة الحلبية (٩٧٥ ــ ١٠٤٤ هـ) « خلاصة الاثر ٣ : ١٢٢ ــ ١٢٤ » وابن سنان القرماني (٩٣٨ ــ ١٠١٩ هـ) « خلاصة الاثر ١ : ٢٠٩ ــ ٢١٠ » وابن أبي الرجال اليمني صاحب « مطلع البدور » (ت ١٠٩٢) « خلاصة الاثر ١ : ٢٢٠ » .

السير الجيلي الاوصاف . فرع السجره الزكية النبوية ، طراز العصابة العلويه المصطفويه فرّد عين الزهراء البتول المحفوف بصنوف عواطف الملك الماجـد ، حالا سريف مكه المسرفه التريف غالب بن مساعد[1] ، لا زالت العنايه الربانية له ملاحظه ، والكلاية[2] الصمدانيه عليه حافظـة ، والى قدوه العلماء وعمده الفضلاء نائب مكه المسرفة وكافة السادات الاسراف الأجلاء المامين ومفاتي المذاهب الاربعه والعلماء والأئمه المحترمين ووجوه كافة المسلمين ، من ساكني بلد الله الامين ، من حاضر وباد ، وفّقهم الله الى سبيل الرساد . يحيطون علما أنّ طائفة كفار الفرانسه . جعل الله ديارهم دارسه ، وأعلامهم ناكسة ، ، قد نقضوا العهود ، وخانوا مواثيق المعبود . وخرجوا من أطوار الحدود . وهجموا على بدوان مصر وسكانها ، على حين غفلة من أهلها . فسلكوا البلاد . وأفشوا الكفر والفساد ، وخاضوا بحر الضلال والطغيان . وتجندوا تحت راية الشيطان . وتمكّن البغي في أحشائهم . وإنّ الشياطين ليوحون الى أوليائهم ، لا حاكمً يردعهم ولا دينً واعتقادً يجمعهم ، يعدون النهب غنيمه . والنبيمة أكسـل شيمة . قـد اتفقت آراؤهم ، وارتبطت آشوارهم[3] . على الهجوم على سائر بلدان المسلمين وأقطار عباد الله الموحدين بأن أهل الاسلام قويين[4] ، ولهم مزيد الصلابه في الدين ، فاذا وصلنا أقطارهم . وحللنا ديارهم ، فالضعيف منهم نباشره بالحرب والضرب والقتل والنهب ، والقوي منهم ننصب له سرائك المكـر والحيل حتى تطمئن خواطرهم وتأمنً ضمائرهم الى أن يقعوا في أشراكنا ونعمل فيهم ما شئنا من مقاصدنا ونلقي بين سائر المسلمين المكايد الخفية بالفساد ، لايقاع العداوة المباينة للاتحاد ، في أحوالهم وأديانهم . ولم يعلموا لعنهم الله ان الاسلام معروس في قلوبنا ، والإيمان ممزوج بلحمنا ودمنا ، أكفر" بعد ايمان ، أضلال" بعد هدى .

---

(١) غالب بن مساعد كان معاصرا للشوكاني . وكان حيا سنة ١٢٢٩ هـ له معارك كثيرة مع السعوديين في نجد بقياده عبد العزيز بن سعود .

(٢) الكلاءة : خففت فيها الهمزه .

(٣) الشور في مصطلحات العامة المشوره وجمعه اشوار .

(٤) خطأ نحوي وصوابه قويون .

كلا ورب الارض والسماء ، ربّنا لا تُزِغْ قلوبنا بعد اذ هديتنا • وخصوصا في طوائف العرب ، لنبلغ فيهم أقصى مرام وأعز مطلب . وبذل الجهد في تحريج الرعايا من الاسلام عن طاعة من وُلّي عليهم من الحكام حتى يكون لنا الصولة العظمى ويصيرون الجميع[1] لنا مغنما ، فينقطع بذلك سلك نظامهم ، وينفصم عقد انتظامهم ، فتسلك حينئذ رقابهم وأموالهم فإنّ العرب أسرع ما يستولى على ديارهم ، لتفرقهم في أوديتهم من أقطارهم ، وعطلتهم عن حزم أحوالهم فان أعظم ما يُشتّت جموع الاسلام ، ويفلّ حد سنانهم عن الانتظام ، هدم قبلتهم ، وحرق مساجدهم ، فاذا ظفرنا بأقطارهم ، وهدمت كعبتهم ، ومسجد نبيهم ، وبيت مقدس عزّهم ، انقطع أملهم وشرق نسلهم ، وملكنا ديارهم ، فإنّ الامور لا يدركها الا اتفاق الجمهور فنقتل جميع رجالهم ، ومن يعقل من صبيانهم فحينئذ نقتسم ديارهم ، وأموالهم ، وأملاكهم ، ونحوّل بقية الناس الى أصولنا وقواعدنا ، ولساننا ودیننا ، فبه يمحى الاسلام وقواعده وشرائعه ويندرس رسومه وآثاره من وجه الارض من شرقها وغربها وجنوبها وشمالها ، وعربها ، وعجمها •

فهذا ما اتفق رأي الفرنسيس اللعين من سوء المقاصد في المسلمين . جعل الله دائرة السوء عليهم فلا يستطيعون صرفا ولا نصرا ، ونرجو الله أن يعاملهم بعدله في قوله ، (ولا يحيق المكر السيء الا بأهله) • فهذا حال الفرانسة : في إلحادهم وجدالهم ، وعنادهم ، وما اقتضاه فاسد اجتهادهم ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون ، فكيف لا يكون فرضا (على كل أحد من مسلم موحد)[2] ، أن يشمر عن ساعد الجد ، ويبذل نفسه وماله في مرضاة الواحد الفرد ، ويتمثل قول أصدق القائلين : سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أُعدّت للمتقين ، ويكون رابحا في بيعه عن الخسران ، مستبشرا ببذل نفسه في سبيل الرحمن ، لقوله « إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن » ، الى غير ذلك من الآيات

(١) لغة أكلوه البراغيث والصواب حذف الواو والنون من يصيرون .
(٢) تعبير ضعيف الاحسن منه : على كل مسلم موحد .

البيّنات والاحاديث الصحيحة المروية عن النقات ، مما يحث على نصرة الدين ، ويلثم سعف الموحّدين ، فالآن يا شريف مكة . ويا سادات الاشراف وقادات العرب ، وحماه الدين وكماه المسلمين وغزاه الموحدين وأبطال الحروب ، الماحين بصوارم عزمهم عن الدين ظلام الكروب ، يا رجال الغارات ، ويا أركان الشريعة والعبادات ، ويا حفظة الدين والأمانات ، ويا باذلين النفوس عند انتهاك الحرمات ، ويا كافة اخواننا في الدين ، والذين هم لشريعة ربهم ناصرين ، البدار البدار ، الى طاعة الملك الغفار لمحافظة قبلتكم ، ومَحْتِد نبيّكم ، منشأ الاسلام ، ومسجد نبيّكم عليه السلام ، ومواطن مضاعفة عبادتكم من ساحة بيت الله الحرام ، فالغيرةَ الغيرةَ والحمية الحمية ، من صولة أعداء الدين ، الذين هم عن كل ملّة مارقين ولكتب رسل الله مكذبين ، فشدّوا عزائمكم للقائهم ، واحفظوا جهاتِكم وسواحلكم ، ومنافذ بلدانكم ، وسارعوا الى الرباط ، الى حدود الكفره اللئام ، ببندر جدة وينبع وما والاهما ، مما فيه صيانة المسلمين وحفظ أعراض الموحدين ، وكونوا عباد الله اخوانا ، ولا تنازعوا فتفشلوا ، وفي سبيل الله أنفقوا وتحملوا ، وكونوا كلمتكم واحده ، وأيديكم متناصرة . ولتكن سيوفكم بارقة ، وسهامكم راشقة ، وأسنّتكم في الطعن متلاحقة ، ومدافعكم صاعقة ، ونبالكم الى أفئدتهم متسابقة ، ولتقصدوا بذلك اعلاء كلمه الدين ، والذبّ عن بيت الله ومسجد رسول الله ، ونرجو الله أنكم مؤيدون بنصر الله ، محفوظون بروحانية رسول الله ، ولا يكون لكم تخلف عن ذلك ، ولا تراخٍ في حفظ تلك المسالك ، ونحن في طرف السلطنة السنية ، ننشر رايتنا العلية ، فبحول الله وقوّته وباهر عظمته تسلكهم عساكرنا المنصورة ، وتقطعهم سيوفنا المشهورة ، وقد سيّرنا عليهم شجعانا لا يبالون بالموت لإعلاء كلمة الدين ، وغُزاةً على النار محبةً في دين الله ، فنتعقّب بقدرة الله أدبارهم ، لعل الله يرزقنا هلاكهم ودمارهم فنجعلهم إنْ شاء الله هباء منثورا ، كأن لم يكونوا شيئا مذكورا ، فبادروا أيها المسلمون الى الرباط بجُدّة وينبُع ، ومن تخلف فقد عصى الله وخالف أمرنا ، فإنّ ذلك أمرنا اليكم وحتمنا عليكم ، « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » ، واستجلبوا صالح الدعوات من

عنجّازكم[1] وصالحبكم وأفاصلكم عند البيت الحرام . وقد قال تعالى « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم » • وقال عليه السلام « المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضا » • « وهذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » • « يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين • وكيف تكفرون وانتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم ، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون • واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون • ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه فأمّا الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأمّا الذين ابيضّت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون • تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين • ولله ما في السموات وما في الارض والى الله ترجع الامور • كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون • لن يضروكم الا أذى وان يقاتلوكم يولّوكم الادبار ثم لا ينصرون ضربت عليهم الذّلّة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق • ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » • فالبِدارَ البدارَ الى ما كنا أمرناكم من الرباط ، والحذارَ من خلاف ذلك • هذا ما انتهى أمرنا اليكم لا زلتم موفّقين بعون الله المعين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم •

« البدر الطالع للشوكاني ج٢ ، ص ٩ ــ ١٥ »

---

(١) جمع عاجز على عجّاز والمعروف المألوف جمع المذكر السالم منه والجمع عَجَزة .

كلمة موجزة في هذه الرسالة :

يلاحظ في هذه العهود أن أهل اليمن والحجاز ونجد وسائر الجزيره العربيه كانوا يسمّون السلطان العثماني « ملك الروم » لانه ملك البلاد التي كانت خاضعه لهم في الاناضول وجنوب شرق أوروبا •

وقد أرسل السلطان سليم الثالث العثماني (١٧٨٩ ــ ١٨٠٧ م) هذا الكتاب الى الشريف غالب بن مساعد أمير مكة خلال هجوم نابليون على مصر • ولغة الكتاب هي العربية •

يبدأ السلطان في المقدمة بتعظيم نفسه (مرسومنا المبجل الشريف وخطابنا المعظم المنيف) ، ثم يعظم من شأن المرسَل اليه غالب بن مساعد ويشيد بنسبه الشريف • ثم يوجّه خطابه الى العلماء والشرفاء وسائر المسلمين بمكة المكرمة ، ثم يسدي إليهم خبر هجوم الفرنسيين على مصر ويدعو عليهم بالهلاك : (لا زالت ديارهم دارسة ، وأعلامهم ناكسة) ويهاجمهم في سلوكهم وكفرهم وخروجهم عن العهود والمواثيق ويصور نواياهم من الهجوم على الضعفاء ، ومحاولة التفرقة بين المسلمين ، وإثارة العرب بخاصّة على حكامهم الاتراك ، والاستفادة من الفرقة بين العرب واستقلال كل منهم بواديه ، واستهدافهم هدم القبله وحرق المساجد وتحويل المسلمين عن دينهم • ثم يستنجد بعرب الجزيرة العربية على تعدّد إماراتها داعيا الى المساعده والجهاد وحسن الاستعداد للدفاع عن الأماكن المقدسة والحفاظ على السواحل كبندر جدة وميناء ينبع وما والاها ، ويتفاءل بالنصر ويوجّه اليهم الامر بالدفاع والجهاد محذّرا من عاقبة التخاذل ، ثم يستجلب صالح الدعوات من العجزة والصالحين ويستشهد بالأيات الداعية الى الجهاد والثبات والوحدة والاخوة ، والناهية عن التفرق والتقاعس ، ثم يلحّ على المسارعة الى الجهاد والمرابطة والحِذار ، ويختم الكتاب بالدعاء لهم بالتوفيق ، وبالصلاة على النبي •

ومن خصائص هذا الكتاب اهتمام كاتبه بالدين وبيان ارتباط احكامه ومضموناته به وذكر قواعد صيانة الدين وتأكيد ضروره المحافظة على سَنَن سيّد المرسلين •

ونرى من حيث الأسلوب أنّ الكاتب يستعمل جملا معترضة دعائية كثيرة ويقتبس أحيانا هذه الجمل من القرآن · « ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا » ويقتبس من القرآن معاني أخرى غير الدعاء . ويأتي أحيانا بجمل جوابية يرد بها على نوايا الفرنجه وأعمالهم : « كلاّ ورب الارض والسماء » . وبرغم ان الوضوح يغلب على أكثر الكتاب فان بعض تعابيره لا يخلو من ركاكة : « فكيف لا يكون فرضا على كل أحد من مسلم موحد . » وهو يستعمل السجع من بداية الكتاب الى نهايته .

ونراه من حيث اللفظ يخفف الكلاءه الى الكلاية ويستعمل التسور وجمعه الأنسوار بمعنى الرأي المشار به وهو مما تستعمله العامة وليس في اللغة الفصيحة . ونراه من حيث الصياغة يخطىء خطأ نحويا . وذلك في قوله : « بأنّ أهل الاسلام فويين » .

ب ـ النثر التأليفي

١ ـ اعراس الشام للشيخ علوان :

(عن مقال للاستاذ عبد الهادي هاشم في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ٣٢ ج٢ ، ص ٣٢٧ ـ أعراس الشام ، في أوائل القرن العاشر الهجري ـ من نصّ للشيخ علوان (٨٧٣ أو ٨٥٦ ـ ٩٣٦ هـ) .

ترجم له في الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة لنجم الدين الغزي ج٢ ، ص ٢٠٦ ـ ٢١٣ نشْر جبرائيل جبور ، وفي مقدمة كتابه الجوهر المحبوك في نظم السلوك الذي طبعه سنة ١٣٢٩ هـ أحد أحفاده المرحوم عبد القــادر العلواني ... وهو علي بن عطية بن حسن بن محمد واشتهر بالشيخ علوان ، حمَوي المولد والنشأة والوفاة شافعي أشعري شاذلي . متصوف واعظ ، له في حماة اليوم ضريح وجامع باسمه ونروى له كرامات . له شعر جيد ونثر بعضه مصنوع وبعضه مرسل ، وله من الكتب نحو عشرين طبع منها الجوهر المحبوك ... وبيان المعاني في شرح عقيدة الشيباني ، وأكثرها في التصوف والعقيدة والفقه الشافعي .

من أجلّ كتبه « نسمات الاسحار في كرامات الاولياء والاخبار » في التصوف والزهد والتأديب بأدب السلف وأسلوبه فيه أسلوب الواعظ المخلص الذي يسلت لبّ القارىء دون تكلف .

أخذ الاستاذ عبد الهادي هاشم هذا النص من كتاب نسمات الاسحار المذكور . وقد كتبه الشيخ علوان شاكيا من انتشار البدع في عصره . وأشار الاستاذ هاشم في الحاشيه الى فحوى معظم الفقرات التي أغفلها لانها استطراديه لا علاقة لها بالأعراس ، وأهملناها نحن كذلك .

النـص :

وأنواع البدع في هذا الزمان كثيرة جدا ... ومن أقبح البدع ما حدث في بلادنا في الاعراس ، وذلك أن الشيطان ، لعنه الله ، كما كان جالسا على الصراط المستقيم (يريد : جالسا للناس ليضلّهم) ، والنكاح منه ، فانه من سنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، أدخل على من أراده أمورا فظيعة وأحوالا شنيعة ، لا بأس بذكر بعضها ، تذكرة للعالم ، وتبصرة للجاهل ، فأولها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : عليك بذات الدين ، تَرِبتْ يداك ، وورد عنه : اياكم وخضراء الدمن . قيل : من هي ؟ قال : المرأة الحسناء (في منبت السوء) ، الحديث . فاذا أراد انسان نكاحا لا تراه يسأل لا عن دينها ، ولا عن نسبها ، وانما يسأل عن جمالها وجهازها ، وهل معها قماش كثير وجهاز ثقيل ، والحامل على هذا كله التساهل في الدين ، فاذا ذكرت له امرأة متجهزة كثيرة المال أرسل اليها ، وأقبل بكليته عليها ، والحال انها مغتابة نمامة كذابة تاركة للصلاة سيئة الخلق ، وهذا فعل من هو في غاية الحمق ، فإن نفَس الفاسق سم قاتل . ثم يرسل بعض الناس لحما وطعاما على رأس الحمال مكشوفا رياء وسمعة ، ليقال : هذا عشاء فلان ، ثم يوجه اليهم جماعة من الاغنياء ورؤوس الحارات الاغبياء ، ولا يلتفت الى الفقير والمسكين فإذا جرى العقد أبى أهلها أن يكتبوا عقد النكاح إلاّ على حرير ، نحو ذراع أو أكثر ، اسرافا وتبذيرا ... فاذا قرب الدخول ، وحان الوصول ، اجتمع أهل محلة الزوج غالبهم : صغيرهم وكبيرهم ، وصحبوا معهم البغال ، وأكثروا الصخب والجدال ، وتوجّهوا الى محلة الزوجة لنقل جهازها ، فيتلقاهم أهل تلك المحلّة

بالمدافعه ، والمشاققة والممانعة . وطلبوا منهم رؤوسا عديدة من الغنم ، وقالوا : إن لم تأتوا بها لا تطلقون أخذ ما جئتم بصدده ، فيقولون لهم : اذا كان الامر كذلك ، فقوموا بواجب حقنا عليكم من المآكل الكثيرة ... فيذهب كل فاسق منهم الى بيته ويسهر زوجته ويأمرها بالقيام الى تحصيل الضيافة والطعام ، فربما تكون مشتغلة باصلاح بعض شأنها ، فيلعنها ويلعن آباءها واخوانها ، وفي الحقيقة ما لعن الا نفسه ...

وربما يكون الانسان منهم فقيرا لا يملك قوت ليله ، أو (ليس) عنده ما يكفي أولاده ، فيتركهم يتضاغون من الجوع ، ويحمل قوتهم في طاعة الشيطان رياء وسمعة ، نسأل الله العافية ، وربما يصنع بيضا أو لحما ، وأولاده الصغار يبكون على أمهم ، فلا يدفع اليهم ما يشجعهم ، ويقول : يبقى المقلى ، يعني الإناء الذي يقلى فيه ، ناقصا ، هذا عيب وفضيحة . فلا قوه الا بالله من أخلاق أهل النفاق ، يراؤون الناس ، ولا يذكرون الله الا قليلا . فاذا أكلوا السحت أخذوا في الافك واللعب ، والمداهنة والكذب . هذا وأهل الزوجة قد صفّوا الأثاث في الاطباق ونشروا المتاع على الدواب ورفعوا الحلِيّ على رؤوس الحمالين ، وفرحوا بما يجب الحزن عليه ، وانتشر النساء والرجال ، مختلطين في الأزقّة والأسواق ، رافعين الاصوات بالزغاليط ، قاصدين المفاخرة والمكاثرة ... فاذا كان ليلة الدخول ، وقعوا في أمور ، منها الايلام[1] بالبدعة ، والرياء والسمعة ، وذلك أن بعضهم ربما يكون فقيرا ، فيستدين ويتكلف فوق طاقته ، قاصدا بذلك تكثير الطعام وتحسينه ، لئلا يعاب عليه بتقصيره عن القدْر الذي أولم به جاره ... ثم يتسرع في دعوة الغنيّ والوجيه ، ويغفل عن الارملة والمسكين ، والفقير واليتيم ، أو يكلهم على لحس الأواني ولقط ما انتشر . وبعض الناس يدعو أكابر العلماء ، وأعيان الناس والامراء ، ويكلفهم ويحيّيهم ، فلا يطيقون التخلف عن الإجابة لوجوبها ، وقصده مفاخرة جيرانه ومباهاتهم ، فيقول : كان عندي الشيخ الفلاني والامير الفلاني والكبير الفلاني ، وهذا رياء مذموم .

---

(١) الإيلام من الوليمة .

وبعضهم قد اتخذ سنة فيحت . وفعله نـ عة فيحرم جماعة مستـ"مرة . فاذا آكلوا جبسهم لغرامة اضعاف نسن ما أكلوه . ويقول لبعض اصحابه : ناد بالنباباش[٢] فيقول هذا المنادي اذا أعطاه أحد شيئا : شاباش يا فلان . هذا وجماعة من النساء يستمعون صوت المنادي . فإذا سمّى الباذلُ النقوط رفعوا أصواتهم بالزغاليط . خصوصا اذا كان المنادَى باسمه من وجوه الناس ... فهنالك تقع المفاخرة والمغايرة بين الاقران ويستحود عليهم الشيطان ، ويحصل لهم العجب بفعلهم الخبيث ، فينفقون أموالهم رياء وسمعة في سبيل ابليس وجنوده . ومما ينادي المنادي : أخلف الله عليك يا فلان . وهو الترَقِّيّ ويكون قد بذل نصفاً ليغرّ غيره . وفي الحديث النهي عن هذا ... ليت شعري كيف يُخلِف الله على من بذل ماله على هذا الوجه ... فاذا انقضت الوليمة توجّهوا الى الحمّام . وقد صحبوا معهم شمعا مستكثرا ، فإذا خرجوا أوقدوه بين يدي العروس متشبهين بالمجوس ، من اظهار شعار النار ، على انه يكفيهم مصباحان أو ثلاثة ، ثم نهلّلوا تهليلا باللهو واللعب والغفله وتسطيط حروف الهيللة واخراجها عن محلها . كما يُفْعَل بين يدي بعض الفقهاء عند ختم مجالس البخاري . كما شاهدته وفعلته . وأسأل الله التوبة والمغفره ، فإنّ مما أظهر فقهاء الزمان من البدع أنهم اذا ختم أحدهم مجلس قراءته أفرغت عليه خلعة ثمينه عارية . رهناً على ما تأخر له عند صاحب القراءة من الدراهم ، ورياء ومنافسة للمآتم ، هذا والنساء مختلطون بالرجال في مجلسه ... وبالجملة إيقاد الشمع اسراف ، لم يكن في عهده صلى الله عليه وسلم ، ولم يُنقَل عن أحد من أصحابه ، ثم المصيبة العظمى والداهية الدهماء ، أنّ نساء المحلة وغيرها يجتمعن في دار . في الثياب والزينة والخضاب بالحِنّاء والتحلّي بالذهب ، بين أيديهنّ الشموع موقده . والوجوه بادية والزينة ظاهرة ، لا حِجابَ ولا جلباب ، فيدخل الزوج للجَلا ، بل للعمى والظلام ، فيتلقّيْنه بالشمع والزغلطه . وهن سافرات عن وجوههن ، مبديات لزينتهنّ ، فتعضده امرأتان من أقاربه : واحدة عن يمينه وأخرى عن شماله ، فيدخل على

(٢) كلمه فارسية للعجب أو الثناء مثل مرحى بالعربيه وأهل دمشق يقولون اليوم سوباش .

النساء الأجانب . وربما يدخل معه شبانا بالغين من الاقارب كأخيه البالغ ومن في معناه . فلا حول ولا قوة الا بالله . فهنالك يجلس على مكان رفيع ، فتتقدم كل امراة اليه . وتلصق الدراهم بين عينيه ، ورائحة الطيب منها فائحة ، وعينها محدقة إليه لامحة ، وزينتها بادية لائحة ، فان كان ممن يزعم أنه متدين غض بصره ، وإلا فتح عينيه وارسل نظره ، الله عليكم ، هل يحل هذا الفعل القبيح في دين الاسلام ؟! أو نقل مثل هذا عن سيد الانام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ؟ ثم تخرج العروس الملعونة ، هي وماشطتها الشريكة لها في اللعن على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لعن النامصة والمتنمصة ، والنامصة بالصاد المهملة هي التي تزيل الشعر من الوجه وهي المسماة بالماشطة ، والمتنمصة هي التي تطلب فعل ذلك ، وهذا الفعل حرام ، إلا اذا نبتت لحية أو شوارب ، فلا تحرم ازالتها بل يستحب . والنهي إنما هو في الحواجب ، ومعلوم أن الماشطة تنتف حواجب العروس ، فتشتركان في اللعنة ، لارتكابهما ما نهي عنه . وأما تحمير الوجه والخضاب بالسواد وتطريف الأصابع فحرام على الخلية ، وعلى غيرها بغير اذن الزوج ، كما نقله الدميري . وكذلك الوشم حرام فعله ، وملعون فاعله وطالبه ، لقوله صلى الله عليه وسلم : لعن الله الواشمات والمستوشمات ، وهو ان تغرز ابرة أو مسلة أو نحوهما في ظهر الكف أو المعصم أو الشفة أو غير ذلك ، حتى يسيل الدم ، ثم يحشى ذلك الموضع بالكحل ونحوه فيخضر ... وهي مسألة عامة الوقوع ، خصوصا في الفلاحين وأهل البوادي رجالهم ونسائهم . وبالجملة تخرج العروس في شيء يقال له الشربوش ، والذي يظهر لي ، والعلم عند الله تعالى ، أنه ومافي معناه مما ظهر في زماننا ، ويلبسه النساء على رؤوسهن ويسمونه المُقنزَع ، مما أخبر صلى الله عليه وسلم بوقوعه ... رجعنا الى ما كنا بصدده . فاذا خرجت وامتثلت بين يدي الزوج ، قام لها ، وكشف شيئا يقال له الجلاية ، عن وجهها ، واخذت تتقصف وتتكسر في حركتها وتتمثل ، وكلما دارت مرة لصق الزوج ومن معه . كأخيه البالغ والمراهق ، اللذين يحرم عليهما النظر اليها في حال المهنة والرثاثة ، فضلا عن حال الزينة والنضارة ، الدراهم على جبهتها وعلى خدها . ثم تذهب الماشطة بها الى بيت . وتخلع عنها تلك

الهيئة ، وتُفرِغ عليها ثيابا غير تلك الثياب . ونلبسوا عمامة كعمامة القاضي والفقيه والجندي ، وتمسك سيفا مسلولا معها . فتأتي الى الزوج تاخذ السيف منها ، ويضربها ببطنه على رأسها ثلاث ضربات ، وكلّ هذا فعل مذموم ملعون فاعله ، ••• وأعظم من هذا انه اذا دخل البيت ، قامت أمّ الزوج . فنشحت رجليها مع صدغي الباب ، أي عِضادتيه ، ولا تمكن الزوجين من الدخول إلاّ بعد انحنائهما من تحت رجليها ، فإذا استقرّا في البيت نطّلع النساء الأجانب عليهما من الكُوّاب ، وجلسن يرقبن أحوالهما الى الصبح . فان لم يسمع لهما صوت ، طرقن الباب عليهما ، وحرّكن عزمهما ، هذا وقد علّشْنَ الزوجة المانعة . وحرّضنها على عدم المضاجعة ، وألبسنها سروالا عقدن عليه كذا وكذا عقدة • وماذا عسى أن أصف من الاحوال الخبيثة الشنيعة ، المباينة للدين والشريعة ؟! والعجبُ كل العجب من بعض العلماء كيف يعلم هذه الامور ولا ينكرها ، ولا يبرهن على السنة ولا يشهرها ، بل ربما يبعث زوجته لحضور هذا المجلس الأثيم . الموجب للوزر العظيم •••

وبعض الناس يقدّم بدعة قبيحة جدا ، ويصنع لعرْسه مرسحا . وفيه منكرات كثيرة من إضاعة الاموال ، فإنّه يحتاج فيه الى بذل مال كثير في شراء الزيت وأجرة المغنين ، ويتفق فيه اختلاط الرجال بالنساء ، وسماع الدف المصنّج والغناء ، والفحش والبذاءة والخنا ، وتشبه الرجال بالنسوه ، وكثرة الضحك الناشئة عن الغفلة والقسوة ، وترك الصلوات والاستهزاء بالدين ، والتمسخر الزائد بمحاكاة كلام العلماء والخطباء ، وكشف العورة ، وأشياءَ نسأل الله العافية منها بمنّه وكرمه ، مما يفضي الى الكفر ، فربما يلبس المضحك زيَّ الكفار . ويستهزىء بملابس العلماء الاخيار ، ومن استهزأ بالدين وأهله كفر • وأنواع الكفر كثيرة لا تكاد تحصر ••• واختلفوا أيضا فيما لو حضر جماعة وجلس أحدهم على مرتفع ، تشبها بالمذكّر أو العالم أو القاضي ، فسألوه المسائل وضحكوا ، وضَرَبوا بالمخراق ، قال بعضهم : يكفروا • وكذا لو تشبه بالمعلّم . وأخذ خشبه ، وجلس القوم حوله كالصبيان ، وضحكوا أو استهزؤوا به • وهاتان المسألتان ونظائرهما يتفقان في المراسح كثيرا • وفي هذا القدر كفاية •

كلمة في النص :

لهذا النص قيمة أدبية كبيرة فهو يصور بعض الاحوال الدينية وبعض العادات والتقاليد الاجتماعية في القرن العاشر ويقدّم لنا صورا نجهلها عن ذلك العصـــر .

وكاتبه شيخ متصوف صادق العقيدة متزمّت يريد المحافظة على أوامر الدين كما كانت مطبّقة زمن الرسول عليه الصلاة والسلام . وهو انساني الشعور يعطف على الفقراء ويرى أنهم أولى بالإطعام والإكرام في الحفلات من الاغنياء القادرين . ويظهر أنه كان بطبعه حريصا يكره التبذير فهو يبدي كرهه واشمئزازه منه في عدة مناسبات .

ويظهر من النص ان أهل القرن العاشر الهجري الذي كتب خلاله هذا النص كانوا أكثر حرصا على العمل بالعادات المتبعة منهم على تطبيق أوامر الشـــرع الحنيف نصا وروحا كما كانت زمن النبي الكريم وكما يريد الشيخ علوان ، ومن هنا كان هذا النقد الشديد من الشيخ لمجتمعه في مناسبة هي أبهج مناسبة في حياة الزوج والزوجة وأسرتيهما .

والشيخ يتحدث في نصه هـــذا حديث المصلح الديني الاجتماعي الذي لا يجاري عصره قيد شعرة وينوخى المثل الاعلى الديني الخلقي كما يراه هو ، وينقد العلماء الذين يسكتون على عادات عصره التي يعدّها مُنْكَرات ويعتمد في بيان تحريمها على الاحاديث النبوية .

وأكثر ما أثار اهتمامنا في هذا النص حديثه عن المسرح (المسرح بلغتنا اليوم) ويتبين من هذا الحديث الموجز ، أنه كان يقام أحيانا في بيت العرس ، ويكلف نفقات طائلة . ويعني فيه المغنون والمهمّ فيه أكثر من الغناء هو قيام جماعة باضحاك الناس عن طريق التمثيل ـــ الذي لا يسميه هو تمثيلا وانما يسميه سَخَراً ـــ وذلك بتقليد الكبار أو العلماء أو القضاة أو المعلمين فيأخذ أحدهم دور المعلم أو القاضي ويأخذ الآخرون دور التلاميذ أو المتحاكمين والشهود ويُضحكون الناس بذلك . وهو يعُدّه بدعة ومنكرا ؛ ولكنّ حديثه عنه يدلّ على أن عصره

قد عرفه كما عُرف في أوروبا حينئذ ، ومن الحق أن نقول إن بوادر تمثيلية قد ظهرت منذ القرن السادس الهجري في البلاد العربية وتُعَدّ إرهاصا بالمسرح . ومنها خيال الظلّ ـ وقره كوز الذي شاع في العهد العثماني ـ ولكنها في نصّ الشيخ علوان قد بدت لنا في زي قريب من التمثيل الذي نعرفه اليوم .

وقد رأينا الشيخ علوان ينقد صنع المرسح ونفقته الغالية واختلاط الرجال والنساء فيه والضحك واللهو بتقليد الكفار أو المعلمين أو العلماء أو القضاة .

ويصف الكاتب عادات عصره في الزواج وصفا دقيقا يرفقه بنقدها الديني الخلقي . ومما ينقده :

أ ـ اهتمام الزوج حين اختيار الزوجة بالمال أكثر من اهتمامه بالدين والخلق .

ب ـ العناية بالمظاهر والتباهي بالغنى والترف كارسال الطعام واللحم وكتابة عقد الزواج على الحرير وتقديم أهل الزوج رؤوس الغنم واقامة أهل الزوجة الولائم الفخمة ، ونقد الرياء والنفاق وتحمّل ما فوق الطاقة . وحوار طرفي الزوج والزوجة وجدالهما حول ما هو مقرّر معروف بين الناس وبينهما . وعادة الشاباش (النقوط) وخداع من سماه بالشرفيّ في التظاهر بهبه المال الكثير لخداع الآخرين ، ونقد حمل الشموع في الطريق الى الحمّام ومنه الى البيت ، والهيللة والصياح في الطرقات أثناء الزفة ؛ ونقد عادة الختم التي نراه يستغفر الله منها لأنّه فعلها كغيره .

جـ ـ نقد ظهور النساء سافرات متبرّجات أمام الزوج وبعض أقربائه الرجال في ليلة العرس ، ونقد تخفيف الحواجب والوشم اللذين يخالفان الشرع ؛ وهو يبيّن خلال ذلك حكم الشرع في تحريم تحمير الخدين والخضاب بالسواد وتطريف الاصابع ، على الخلّية ، وعلى المتزوجة بغير إذن زوجها .

د ـ نقد الشربوش (وكان يسمى أيضا المقنزع وهو لباس للمرأة حينئذ كالطربوش) لعدم استعماله زمن الرسول ، ونقد عادة تغيير العروس ثيابها ،

ولبسها العمامة كالرجل . وحملها السيف الى الزوج لبضربها به صفحا عدة مرات .

هـ ــ نقد مرور الزوج والزوجـــة من بين رجلي أمّه الى غرفتهما ليلة الزفاف .

و ــ نقد تطلع النساء الى رؤية ما يجري بين الزوج والزوجة في غرفتهما ، ونقد تعلبسها ممانعته للحصول على بعض طلباتها منه .

ونلاحظ على نقد الشيخ علوان أنّه جِدّي صارم لا يسمح بأي نوع من اللهو والتسلية ، وذلك إنّ أطاقه بعض الناس فإنّ أكثر الناس لا يطيقونه . فلا بد من استجمام النفس ببعض الضحك واللهو كما يقول الجاحظ . ونلاحظ أن تفسيره لبعض العادات كعادة النباباش ليس صحيحا فهذه العاده ليست لأخـذ من الطعام من المدعوّين وانما هي دين اجتماعي على الزوج لأصدقائه وأصدقاء أسرته يستعين به على نفقات العرس ويردّه اليهم حين يتزوج أحد أبنائهم . ولا تزال هذه العاده قائمه الى اليوم معروفة بأنها دين . ويسجّل في بعض القرى كلّ ما يقدمه المدعوّون ليردّ اليهم في مناسبات مشابهة .

ونلاحظ على النص أنه حيّ جذاب يُعنى بالتفاصيل ، ولكنه أحيانا قليل الوضوح ضعيف التراكيب كقوله في أوله « وذلك أن الشيطان لعنه الله كما كان جالسا على الصراط المستقيم ، والنكاح منه » فهو يريد ان الشيطان يقعد للناس على الصراط المستقيم ليضلهم عنه وان النكاح سنة من سنن الصراط المستقيم (بخلاف الزنى) .

وفي النص بعض الخطأ النحوي واللغوي كالزغاليط مكان الزغاريد والعريس مكان العروس للرجل . ويحييهم مكان يحاييهم . وكقوله : « قال بعضهم : يكفروا » . والصواب يكفرون وقد أورد الكلمة بصيغتها العامية . وأسلوبه في جملته طلق حر ، ولكنه قد يلجا الى السجع حين يجد أمامه مجالا له كقوله : « ورائحه الطيب منها فائحه ، وعينها محدّقة اليـه لامحـه ، وزينتها باديه لائحة ... » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ج ــ النثر الادبي

مثال من نثـر المقامات :

مقامة للخفاجي في ذم قاض بالقسطنطينية وابنه :

« ••• فقلت في وصفه مقامة ، هذه صورتها :

صـورة المقامـة :

« اللهم اني أعوذ بك من الخبث والخبائث ، وألوذ بك يا نور النور اذا دجت ظلمات الحوادث • يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه ، ويتبين كل منقوص حتى يفرّ منه أبوه وأخوه •

فإنّه مما صبّ من المصائب ، أنْ حمل على كاهل الدهر عيبة المعائب ، نسخة القبائح ، مسوّده الفحش والفضائح ، جريدة العيوب ، تمثال السيئات والذنوب ، إكسير الفساد ، وشماتة الأعداء والحساد • أنموذج الهموم ، أظلم من ليل المرض والغموم ، قحط الرجال ، قائد جيش الدجال ، قبيح الفعل والقول • اذا اعتذر عن إساءته غسل الغائط بالبول ، لئيم غيرُ مَلوم . أجْوَرُ من قاضي سدوم ، فصَدارته هجوُ الزمان ، وإظهارٌ لعداوة الأحرار والاعيان • فلو لم يُخْسَف بأهاليه ، لما ارتفعت أسافله على أعاليه •

كالبحر ترسب في أسـافله درر وتعلو فوقـه جيَفُه[1]

جُعَلٌ في بستان مُزْبَل ، اذا أثمرت البساتين حنظَلْ • إن لاح انسان جهل فهو لَعينه ، أو ابليس تلبيس فذاك أستاذه وقرينه • فلو عاين أحمد[2] خداعه لحيّاه وأنشد :

فلمّـا نظـرتُ الـى عقـله رأيت النُّهى كلَّهـا في الخُصَى

ريقه الزقوم ، وأنفاسه السموم فهو لعين الدهر قذى ، لا ينطق بغير فحش وأذى ، الجهل رداؤه ، والجُذام حِليَتُه وبهاؤه • والجنون مَجِنة له من الاعداء ،

---

(١) البيت لابن الرومي •

(٢) يريد ابا الطيب المتنبي •

فذاته المكروهة عينُ السوداء • ليس في خلقه من الحكم والاعراض ، إلاّ أن تقف الاطباء على ما جُهل من الأمراض •

وتتضح به دقائق التشريح ، ويكثر رائه من الاستغاثة والتسبيح • تخرّق منه الجسد ، فكلّه عيون تنظر من الحسد ، عِرضه دنِس مشقّق ، ووجهه كقرطاس الرماة مخرّق ، أقبحُ من عسر بعد يسر ، لا يعرف أنّه إنسان إلاّ أنّه في خُسر • كلّه مُنتِن الا فاه فاسننه بِخَلا ، وكلّه بلاء لو سئل عنه ابليس قال بلى • يغلب بسلاح الوفاحة في المبارزه ، ويظن ان الرشوه مباحة لانها تسمى جائزة • ويزعم لنفوذ أمره في الانام ، أن القول ما قالت جُذام لا ما قالت حَذام ، أشأم من طوبس ، وأثقل في السمع من لبس ، ومعنى يحمل لحية التيس •

يا عينَ الشؤم ، وخليفة البُوم ، وسَلْحه الزمان ، ونجاسة الديوان • ألم يدْرِ من صدّرك ، ولم يخش عُجَرك وبُجَرك ، ان زوال الدول باصطناع السّفَل •

ومن يكن الغراب له دليلا يمرّ به على جيف الكلاب

يا خيبة الامل ، ومجمع السفل ، ونتيجة السقم ، وضنء اليتم والعقم ، وعدوّ الادب ، وأسود اللقب ، اما استحى زمان حلّ في صدره الخُصى ، وأصبح لقدر العلم والمَعالي مُرْخصا ، مادِرٌ لديه حاتِم ، والحجّاج أعدلُ حاكم •

لو كان يدري جدّه أنّه يخرج من إحليله لاختصى • قربُه أقبحُ الحِرمان ، وبعده ألذّ من وصل الحور الحسان • قد نجّس الارض نجاسة لا يُطهّرها الطوفان ، قرّة عين أبي جهل فهو ينشد له بكل لسان :

نعلاي أطهر منه والكلب أطهرُ مني

لا يهتدي الى صواب ، حتى ينسيب الغراب ، أو يستضيء شيطانٌ بشهاب ، سفيهُ الذمّ حِلبةٌ فيه ، وكلُّ اناء يرشح بما فيه • أسجدُ من هُدْهُد في خلوته ، خبيرٌ بأن يجني العصا لسائر خدَمته . نحوي كم نصب وجَرّ . وداوم على مذاكرة متسقة من الذكر • رئيس ليس له صيت وسمعة ، لم يبت الا وفي

دهليزه شمعة . أنف بالعجب في السماء ، واست من الأبنه في الماء . كأنه فرعون الا انه ، من جانب الوجعاء ، ذو الأوتاد ، كذاب فانظر وجهه وسواده ، كأنما ألبس الدين به حداده . عار على السلف والخلف ، أكذب ما يكون اذا حلف ، حراقة فساد ، فدح شرر شره فساد ، فإن كان أصله النار فهذا الخلف رماد . مفلس من دينه وعقله ؛ يقول ابليس انما تركت السجود لآدم ، لأنه من نسله . اقبح من النقم ، وأسوأ من زوال النعم . أزنى من ظلمة ، وأمر من غصة على غصه . لم يزل يبدي بانتقاصه الأفاضل غرضا ، لأنه من قوم (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) . لا خير فيه إلا أنه لا يأثم له مغتاب ، بل يحمد ويجازى بجزيل الثواب . لم يثلب ، وهو بهجر القول مغرم صب ، ومن ذا يعض الكلب إذا عضه الكلب .

إن تهجه تهج من في الأرض قاطبة
لأنه من مياه الخلق قد جمعا

فإن كان ذم الناس جل مناه ، فما الناس إلا هو لا سواه . لم تبقه لصحه مراجه السنون ، وإنما ذلك لأنه عافته المنون .

وقد رفع عن هذه الامه المسخ فما باله عاد ممسوخا . وتناهى النسخ للشرع فما باله عاد بصدار[illegible] .

قاض لم يدر حجة فما أحوجه إلى الصك . وجوده غلط في صحف الدهر مفتقر الى المحو والحك .

نور به المانوية الكلام ، على أن موجد الشر هو الظلام ، والناسخية البيان على أن روح الحيوان يحل في الإنسان ؛ فلو لم يفرض نسل آدم ؛ لما حكم هذا القرد في العالم .

فإن لقبوه بالرئيس سفاهة
فإن الخصى تدعى رئيسا من الأعضا

واذا كان من الدين ، إعلانُ النصيحة للمسلمين فعليك بالرأي الأسـد :
فرّ من المَجذوم فرارَكَ من الأسد ، لأنّه محروم مجدوم ، ليس فيه من صفات العلماء إلاّ أنّ لحمَه مسموم . حمى الله مِزاج العصر من ساري مَرَضه ، وصان جوهر هذا الدهر من عرَضه ، وأنار بالزوال كُسوفه ، وصرف بيد نَقّاد المنية زُيوفه . والسلام .

« الريحانه ج٢ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٩ »

كلمة موجزة في هذا النص :

يتناول الخفاجي خصمه القاضي في هذه المقامة تناول الحافد الناقم فلا يترك عيبا من العيوب دون أن يلصقه به . فهو من حيث الأوصافُ الجسدية قبيح مجذوم ومن حيث الاوصاف الخلقية حقير لئيم زنيم متعدد الآباء مصاب بالأُبْنة ، يسيء الى الدهر أنه موجود فيه والى الحكم أنـه يتصدره وقد ورّث حقارته لابنه .

والكاتب يلحّ على الصفات السيئة فه فستعمل جملا كثيرة منرادفة أو متقاربة المعنى ويستعين بالشعر ينثره أو يستشهد به ويأتي بكثير مـن الأمثال والاقوال المأثورة العربية يُوالي بنها ليتبثّت في الاذهان مخازيه .

ويعتمد الصور البيانية يشخّص بها مساوئه ويمعن في الصناعة البديعية من جناس وطباق وسجع ...

وندرك من قراءتنا هذه المقامه سـعه نقافته الادبه ومدى غزارته اللغوية ولكنها خالية من الخيال القصصي تعتمد أشد الاعتماد على التصوير البياني .

والكاتب شديد السخرية قاسي النقمة بجعل مَهجوّه أضحوكة ولا يكتفي بفن التصوير البياني ، بل يضيف الى ذلك الالفاظ البذيئة والمعاني الفاحشة فيحطّ من شأن خصمه ، بل يحطّ من شأن العصر الذي سمح له ولابنه بان يتصدرا قاضيين بين الناس في عاصمة الدولة .

وهذا الاسلوب القاسي لا يعطينا صورة مشرقة مرضية عن خلق الكاتب ، بل صورة مخيفة تتخيّله معها شتّاماً فحّاشاً بذيء اللسان فاقد الرحمه .

وهذه بعض النظرات التفصيلية في النص مع شواهد منه تؤيدها .

١ ـ يستعيذ الخفاجي بالله من القاضي المذموم دون ان يُصرّح باسمه وذلك للتشويق ، ويكثر من الجمل المرادفة في هذا السبيل لهذه الغاية .

٢ ـ يبالغ في التشنيع عليه حتى يبلغ درجة الإفحاش في الهجاء : « اذا اعتذر عن اساءته يغسل الغائط بالبول » ، ويصمه بأقبح الصفات الخلقية الشاذة جاريا فيها مجرى الرمز حينا : « لم يبت الا وفي دهليزه شمعة » « كأنه فرعون الا انه من جانب الوجعاء ذو الاوتاد » ، ومجرى التصريح حينا آخر : « واست من الأبنة في الماء » . ويستخدم بعض صور التحقير أحيانا أخرى : « معنى لحية التيس » . أو التورية : « قاض لم يدر حجة » « فما أحوجه الى الصك » . أو الكناية « لو كان يدري جدّه أنّه يخرج من إحليله لاختصى ... » .

٣ ـ وقد يستخدم لتحقيره الأمثال القديمة « أشأم من طويس » « أثقل في السمع من ليس » وشعر السابقين : « لم تبقه لصحة مزاجه السنون ، وانما ذلك لانه عافته المنون » فهو ينظر الى قول المتنبي :

ما يقبضُ الموتُ نفْساً من نفوسهمُ
إلاّ وفي يده من نتنها عُودُ

وقد يأتي لذلك بشعر نُرجّح أنه من نظمه كقوله : ويجعل أبا جهل ينشد :

« نعلاي أطهرُ منه والكلبُ أطهرُ مني »

أو قوله :

« إنْ تهجُه يهجُ مَن في الارض فاطبه
لأنّه من مياه الخلق قد جُمِعا»

فقد جعله ضعيف النسب مجهول الاب ينتمي الى الناس جميعا لسوء أخلاق أمه .

٤ ــ وقد يستمد لذلك من التاريخ ، كإشارته إلى قاضي سدوم لجعل المهجوّ شؤما على الناس وعلى الدولة . أو من الأديان كقوله : « نوّر به المانوية الكلام على أن موجد الشر هو الظلام » وذلك لسواد لون المهجو . وكقوله : « والتناسخي البيان على أن روح الحيوان تحل في الانسان » وذلك ليخلع عليه صفة الحيوانية ؛ أو من الحديث النبوي كقوله : « لأنه محروم مجذوم ... » فهو مقتبس من الحديث : (فرّ من المجذوم فرارك من الأسد) .

٥ ــ ونظن أنه جاء في هجائه بمعنى جديد قديم هو قوله : « فان كان دم الناس جلّ مناه ، فما الناس الا هو لا سواه » فقد جعله من نسل الناس جميعا ؛ ولكنه ربما نظر في ذلك الى قول ابن الرومي في أحد مهجوّيه : « واحد الأم خلفة الآباء » .

٦ ــ لا يكتفي بهجائه ، بل يهجو معه ابنه : « رماد من نار » ، ولا خير فيه الا أن مغتابه لا يأثم بل يثاب » .

٧ ــ يحاكي في مقامته هذه ابن زيدون في رسالته الهزلية .

مثال من الوصف المعنوي :

كتب الطالوي[1] الى صديق رسالة في الشوق وبيان فرحته بوصول رسالة منه اليه منها :

« أمّا الشوقُ فقد اشتعل ضِراما وكاد عذابُه أن يكون غَراما حتى قال فم الجفن بلسان الدمع (يا نارُ كوني برْدا وسلاما) ، (فإني ألقي اليّ كتابٌ كريم) فاح منه شميم عَرار نجد . وما بعد العشيّة مِن تميم ، فتمتعت بما هو أحلى من الوصل بعد الهجر ومن الأمن بعد الخوف ، ومن البُرْءِ بعد السقم ، ولم أدر أطيفُ منام ، أو زائر أحلام ، أم قُرْبُ نوى بعد البعادْ ، أم حبيبٌ يأتي بلا ميعاد » .

« خلاصة الاثر ج٢ : ١٧٣ ــ ١٨٠ »

---

(١) ولد الطالوي سنة ٩٥٠ هـ وتوفي سنة ١٠١٤ هـ وكان قبيل وفاته يقلب في كتبه ويقول :

أقلبها حفظا لها وصيانة ... فيا ليت شعري من يقلبها بعدي

كلمة في النص

يبدي الكاتب في هذا النص شوقه الى صديق وصل اليه منه كتاب سُر به ولكنه أثار عاطفة الشوق فيه •

ولغة الكاتب في هذا النص شعرية لانه شاعر مجيد في عصره قبل أن يكون كاتبا وهو يقتبس كثيرا من القرآن : وكاد عذابه يكون (غراما) (يا نار كوني بردا وسلاما) (فاني ألقي الي كتاب كريم) • ثم هو ينثر بعض أبيات الشعر كهذا البيت :

تمتّع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرارِ

ثم هو يضمن بعض الكلام المأثور لأدباء قبله :

« أحلى من الوصل بعد الهجر ، ومن الامن بعد الخوف ، ومن البرء بعد السقم » • ويشبه في ذلك أمرا معنويا بأمور معنوية ثم انه يعتمد السجع والصناعة البيانية والبديعية له أسلوبا ، ويجسّم المعنويات : « أما الشوق فقد اشتعل ضراما ، ويشخّص أجزاء الجسم « حتى قال فم الجفن بلسان الدمع » •

ومن طباقاته الجميلة : الوصل بعد الهجر والأمن بعد الخوف وبهذه الطباقات يزيد من إبراز المعنى الذي يريده وهو كثرة فرحه بوصول كتاب صديقه اليه •

ويحسن تأليف ذلك كله في انسجام جميل ولفظ عذب وأداء لطيف يحب يُعجب القارىء ويدل على موهبة أدبية أصيلة في نفسه وثقافة واسعة تمده بالمعاني والصور والاقتباسات المناسبة •

مثال من الرسائل الاخوانية ـ جواب البوريني[1] على صديق يعاتبه :

---

(١) البوريني (٩٦٣ ـ ١٠٢٤ هـ) : هو الشيخ حسن بن محمد بن محمد الصفوري الاصل الدمشقي الملقب بدر الدين البوريني اثنى عليه كثير من المؤرخين والادباء ووصف بانه فرد وقته في الفنون كلها . عرف بكثرة الحفظ في العلوم والآداب وكان حسن المنادمة . له تآليف كثيرة في التاريخ والادب من اشهرها شرح ديوان ابن الفارض ؛ وله ديوان شعر . رحل من دمشق حين حصل فيها قحط الى بيت المقدس مع ابيه ثم غادر الى دمشق . واخذ العلم والادب عن فضلاء عصره كالشيخ =

من رسائل البوريني هذه الرسالة أجاب بها على رسالة صديق يعاتبه ويذكّره تراضع الكاس في أيام الإيناس :

مضت الشبيبة والحبيبة فانبرى — دمعان في الأجفان يزدحمان
ما أنصفنني الحادثات رمينني — بسودعَيْن وليس لي قلبان

وردت رسالتك الآمره بالطيش ، المُحسّنة للانطلاق الى نهب طِيب العيش ، فقلت لها أهلا وسهلا ومرحبا بلطف حبيب زار عن غير موعد .

على أنها وردت رامزه الى اغفله عن الاخوان مشيرة الى نسيان الاحبة والخلان فكلاّ والله ما تبعت في نسيان الاحبة الهوى ، وبالله إني صاحبكم وما ضلّ صاحبكم وما غوى :

تُجنِّبُوني ذنوبا ما جنتْها — يداي ولا أمرت ولا نهيتُ

ومع ذلك :

فلو كان هذا موضعَ العتب لاشتفى
فؤادي ولكنْ للعتاب مَواضعُ

ولئن حصل في مدة الأجَل انفساح لَنعملنّ بقول الصلاح :

= الاسلام البدر الغزي وابي الفداء اسماعيل النابلسي ومحمد بن المنقار .. وساد على اهل عصره ودرّس في عدة مدارس وفي الجامع الاموي وجامع السليمانية ، وتعلم اللغة الفارسية ، كبيرا ، من الحافظ الحسين التبريزي المعروف بابن الكربلائي . وفي ذلك يقول :

تعلمت لفظ الاعجمي وانني — من العَرَب العرباء لا اتكمُ
وماكان قصدي غيرَ صون حديثكم — اذا صرت من شوقي به اترنم
وان كنت بين المعجمين فمُعرب — وان كنت بين المُعربين فمعجم
فاغدو باشواقي اليكم مترجما — وسرُّكم في خاطري ليس يُعلم

وتعلم في آخر الامر التركيه ولم نجِدها اجادته الفارسية .

« عن خلاصة الاثر ج ٢ : ٥١ — ٩٢ »

لزمتْ بيني كلزوم البنا ... للفعل والحرف على الأصل

واستوحشت نفسيَ حتى لقدْ ... تنفر لو أمكن من ظلّي

وهذا مجمل يعسر تفصيله وحكم يصعب تعليله . وأما ما أشرتم اليه بما قال أبو نواس والعمل بقوله من ارتضاع الكاس فمقبول لو كانت منازل الشباب آهلة ، وأوقات الهوى لصفاء العيش قابلة . ولكنْ بعد نزول الشيب ، والإنذار من عالم الغيب . لا مجالَ لمصافحة الدّنان ، ولو أنها بمسافهة الصفاح والسنان :

صحا القلبُ عن سلمى وأقصر باطلُه
وعُرّيَ أفراسُ الصِّبا ورواحلُهْ

نعم قد جُلْتُ في أيام الشباب بميدان الصِّبا . فما عثر طرفي في قضاء وطَرٍ ولا كبا :

ولقد نهزتُ مع الغُواة بدلوهمْ
وأسمتُ سرْحَ اللحظ حيث أساموا

وبلغت ما بلَغ امرؤٌ بشبابه
فإذا عُصارة كلّ ذاك أثام

وأما الآن فإنّي أقول :

فما شاقني ذكرى حبيب ومنزلٍ
ولا راقني للساجعات ترنُّمُ

ولا أطربَ الحادي بترجيع لحنه
ولا فاح من نشر الرياض مُنسَّمُ

ولا يختلجْ ببالك أنّ هذا باللسان . من غير مطابقة الجَنان ، فإنّي أقسم بالوفا والكرم ، والبيت والحرَم . أنّ ظاهر هذا الأمر . وباطنَه سيّان . ولو اطّلعتَ على الضمير لازددتَ علما على ما نطق به اللسان . ولو كُنتُ مائلاً

الى ما أشرتَ إليه ، وعوّلتَ في عباراتك عليه ، ما كنتُ أجد مثلك من نديم ، كفءٍ كريم ، وخاطرُه سليم ، يفهم الكلام بالإشاره ، ويستغني عن مفهوم العبارة :

إنْ كان لا بدّ من عيش ومِن سَمَرٍ
فحيثُ آمَنُ مِن خلّي ويأمنني

نَعَم إنْ مالت نفسك إلى مجاذَبة أطراف الآداب ، والمحادثة عمّا مضى من وقائع الأحباب ، فانك واللهِ أعزّ الاخوان ، وإنسانُ عين الخِلاّن ، ما رأينا منك سوى ما يسُرّ القلوب ، ويكون عينَ المقصود والمطلوب ، فأنت المقصود يقول الشاعر :

برُوحي من نادمتُه فوجدتُه
أرقّ من الشكوى وأصفى من الدمع
يوافقُني في الجِدّ والهزلِ دائما
فينظرُ مِن عيني ويسمعُ مِن سَمْعي

هذا هو الجواب مع الاختصار وعند مِثْلكم يُقْبَل الاعتذار » •

« عن خلاصة الأثر للمحبي ج٢ ، ص ٥١ ـ ٦٢ »

كلمة في هذا النص :

هذا النص بديع صادق العاطفة يدلّ على تجربة حقيقية ويصف إقلاع الكاتب عن طيش الصبا ، بعد أن رتع فيه ، وتوبته عن اللهو والشرب • وهو يعتذر فيه لصديق أرسلَ اليه يعاتبه على هجره رفاقَ اللهو ناسباً انقطاعه عنهم الى الغدر ، ويبيّن له أن توبته توبة صحيحة ، وانه يقول ما يحس به في قلبه وما يصمّم عليه من عدم الرجوع الى الضلال والغي •

ويرقّ لصديقه مع قوة تصميمه على التوبه ، فيقول له : لو أنّه لا يزال يلهو لما اختار غيره لرفقته صديقا كريما . فإن رأى هذا الصديق أن يكون رفيقا منادما

له في العلوم والآداب ، دون اللهو والشراب . كان في ذلك سروره وسعادته .
ويتوقع ان صديقاً مثل صديقه يقبَل عذره ويقنع بجوابه .

هذا هو ملخص المضمون . وأما الشكل فقد جمع فيه الكاتب بين النثر والشعر ، ونثر الشعر ؛ واقتبس من القرآن ، وضمّن أقوال بعض الاقدمين والتزم الصناعه البديعية مع السهولة وحسن الانسجام وأجاد التعبير عن المعاني المناسبة وأحسن اختيار الصور المعبّرة .

وبدا لنا الكاتب الشاعر غزير الأدب واسع الثقافة جواد القريحة لبق التناول ، لم يستجب لنداء صديقه في نهب الملذّات ؛ ولكنه صدّه عنه برفق ونصحه بلطف وإيناس . ودل بذلك كلّه على أنه يعيش حقّاً تجربته الجديدة المناسبة لسنّه ولشعوره باقتراب أجله ، وانه لا ينافق في ذلك ولا يُوارب .

وكان سهل الأداء مأنوس الالفاظ لطيف الروح . وقد استهلّ رسالته الجوابية ببيتين من الشعر جاء فيهما بمعنى بديع هو أنّ قلبه لا يقوى على فراق حبيبين في آن واحد : الحبيبة والشبيبة .

وقد التزم السجع وأولى الصناعة اهتماما كبيرا ولكنه لم يجُر على المعنى وجمال الأداء ، وقوة التأثير .

* * *

خاتمة : تجمل خصائص النثر خلال العهد العثماني بعد دراسة النصوص السابقة :

عرفت في العهد العثماني أنواع النثر الثلاثة : الديواني ، والعلمي التأليفي ، والنثر الأدبي . واقتصرت الخطابة على الخطب الدينية المنقولة أو المحفوظة عن الأقدمين .

وكان النثر الديواني أقل مقدارا وحظا من النوعين الآخرين فقد كانت اللغة التركية هي اللغة الرسمية الأولى وكانت العربية إلى جانبها يكتب بها العرب أو يكتب بها الى العرب .

وكان الاتراك يتعلمون العربية لانها لغة الدين والثقافة وقسم كبير من الادب ، الى جانب التركية والفارسية . وكان كثير من الادباء العرب يتعلمون اللغات الثلاث .

وقد كتب كثير من علماء الترك والاعاجم وأدبائهم بالعربية نصوصا أدبية ، منها مقامات ، ونظموا شعرا . ولم يظهر البغض للعرب وللثقافة العربية لدى بعض الأتراك إلا في أواخر العهد العثماني زمن الاتحاديين حين نشأت فكرة القوميات وتعصب هؤلاء لقوميتهم وحاولوا محو القوميات الاخرى .

وقد غلبت الثقافة والافكار الدينية في هذا العهد على غيرها من أنواع العلوم والمعارف ، وسادت الروح الصوفية بين الناس جميعا ، ولم يكن أحد من المسلمين تقريبا لا ينتسب الى طريقة من الطرق الصوفية السائدة .

وكان التعصب المذهبي بين السنة والشيعة واضحا بعثه وأذكاه الحرب التي كانت متواصلة بين الاتراك والفرس وتعصب الفريقين لمذهبيهما ذلك التعصب الذي خلقته السياسة .

وقد التزم الكتاب ، في أنواع الكتابة الثلاثة التقليد ، لجمود الحياة نفسها وعدم حدوث ثورات على الواقع السياسي والاجتماعي السيء إلا ثورات موقتة تشب كالبرق ثم لا تلبث أن تنطفىء . والثورة الوحيدة على الواقع الديني

الاجتماعي التي قامت واستمرت برغم ما قام في وجهها من عقبات على الثورة الوهابية الإصلاحية • وبؤسعنا أننا لم نؤتها حقها من الحديث في بحثنا ويبين ما كان لها من دور في الاحياء •

وكان لدى العرب إحساس مبهم بوجودهم القومي فكان أمراء الجزيرة العربيه وسكانها يسمون السلطان العثماني ملك الروم . لا ملك المسلمين . ولا ملك الترك والعرب ، ولكنهم كانوا رسميا وعمليا تابعين له •

وقد رأينا التقليد والصناعه يغلبان على النصوص الديوانية . ولكن أصحابها كانوا قادرين على التعبير عن المعاني التي كانوا يريدونها مع عدم خلو كتابتهم من الخطأ اللغوي والنحوي ومن بعض الركاكه ، وقد تفاوتوا في مقدرتهم الكتابية ولو اطلعنا على ما كتبه الشوكاني المؤلف الاديب في جواب إمام اليمن على السلطان وأمير مكة لرأينا أنه أصحّ لغة واقوى أسلوبا من كاتب رسالة السلطان •

وكان التقليد والجمع غالبين على التأليف ، على أننا رأينا لدى بعض المؤلفين كالشيخ علوان الحمَوي ، نقدا اجتماعيا ينطلق فيه من روحه الصوفي الانساني المحافظ • وقد عرفنا من نصّه في النقد ان التمثيل كان معروفا في زمنه وربما كان قد عرف قبله بقليل في أواخر العهد المملوكي الثاني وقد رأيناه يبيّن فيه رأيه الديني الذي يقوم على أنّه حرام ، ويسمّيه تمسخرا ، ويصف كيف كان يعرض بعض شؤون الحياة عرضا ساخرا • وفي هذا العصر نرى كذلك عبد الوهاب الشعراني الصوفي ينقد الحكام وظلمهم وخروجهم على الشرع نقدا لطيفا تستمر فيه رسالة التصوف البناءة الهادفة الى اصلاح النفوس التي تصور الجانب الخيّر المشرق منه •

ونرى كذلك اهتمام بعض المؤلّفين كالغزي بتربية الناس على مراعاة الآداب العامة في المؤاكلة والعشرة ، استمراراً في الروح الحضارية العربية • ورأينا كيف نقد الخفاجي بعض الحكام والقضاة وصوّر بدء تقهقر المستوى العلمي والادبي في زمنه بسبب تولية الأمور غير أربابها الاكفاء •

وظهر لنا أن الغالب على الاسلوب في التأليف العلمي هو التحرر من الصناعة . إلاّ في مقدمات الكتب ، والاهتمام بوضوح المعاني وسهولة الأداء • وقد تبلغ

السهولة في الأداء والالفاظ حداً يقرب الكلام معه من العامية كما رأينا في نص الشيخ علوان ٠

وقد غلب التقليد والصناعة على النصوص الأدبية ولكنّ كتّابها كانوا يراعون الجمال والقوة في أدائها فقد رأينا أنّ مستوى مَقامات الحفاجي جيّد ، ولكنّها لم تكن تساوي مقامات الهمَذاني والحريري من حيث مستوى الفنّ القَصصي والتشويق ٠ على أننا رأيناه يحسن استخدامها سلاحا في مهاجمة خصومه ونقد الحكام والأوضاع السياسية والعلمية والاجتماعية السائدة ٠

ونرى الكتاب في هذا العهد يهتمّون الى جانب كتابة الرسائل والمقامات بوصف الأشياء الصغيرة ، كوصف الشمعة للخفاجي في كتابه الريحانه ، ويمزجون بين النثر والشعر في الكتابة ويقتبسون معانيهم وصُوَرَهم من سابقيهم ، ولكنهم يستطيعون التعبير عن أحوالهم النفسية والاجتماعية ٠

ورأيناهم يجيدون التعبير عن المعنويات كوصف الشوق والشعور بالفرح لدى الطالوي ، وكالاعتذار والجواب على العتب والتعبير عن مشاعر الشيخوخة والتوبة لدى البوريني ٠ وكلاهما قد جمع في كتابته بين النثر والشعر ٠

وقد رأينا في كتابات هؤلاء الأدباء جميع ألوان البديع من تورية وجناس وطباق واقتباس وتضمين أشرنا إليها في أماكنها حين أوردنا نصوصهم ٠

وننتهي من هذه الخلاصة إلى القول بأن نثر هذا العهد قد ضاهى بعضه ولا سيما الأدبي منه نصوص السابقين في عهود الدول المتتابعة وضعف بعض منه ولم يسلم من الخطأ كبعض الكتابة الديوانية والتأليفية ، وانتقل بعضه الآخر من مجال الابتكار الى مجال الحفظ عن الأقدمين ، كالخطابة ٠ وننتهي كذلك إلى أنّ ما حسُن منه قد خفّف من قَتام الصورة التي كانت تنطبع في أذهاننا عن هذا العهد ٠

من المراجـــع

أ ـ من الكتب المعاصرة :

خطط الشام لمحمد كرد علي

تاريخ آداب اللغة العربيه لجرجي زيدان

الفن ومذاهبه في النثر العربي لشوقي ضيف

الفن ومذاهبه في الشعر العربي لشوقي ضيف

عصر سلاطين المماليك لمحمود رزق سليم

تاريخ الأدب العربي في العراق لعبّاس غزّاوى

الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام لأحمد أحمد بدوي

الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام لأحمد أحمد بدوي

الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي لعبد اللطيف حمزة

أدب الحروب الصليبية لعبد اللطيف حمزة

المجمل في التاريخ المصري لحسن ابراهيم حسن واخوانه

بلاد مصر والشام من الفتح العثماني الى حملة نابليون لعبد الكريم رافق

دراسات في الحياة الاجتماعية في مصر عصر سلاطين المماليك لسعيد عبد الفتاح عاشـــور .

دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين لمحمد كامل حسين

آدب مصر الفاطمية لمحمد كامل حسين

الأدب في بلاد الشام لعمر موسى باشا

ابن نباته لعمر موسى باشا

ابن النقيب لعمر موسى باشا

مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني لبكري شيخ أمين

الأدب في عصور الانحدار لجودة الركابي

الحروب الصليبية وآثرها في الأدب العربي في مصر والشام لسيد كيلاني

الأدب في العصر الأيوبي للدكتور محمد زغلول سلام

الادب في العصر المملوكي بجزءيه للدكتور محمد زغلول سلام

الادب الصوفي في مصر للدكتور علي صافي حسين

صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني للدكتور محمود ابراهيم

الادب العامي في مصر لمحمد صادق الجمال

ب ـ من الكتب القديمة :

١ ـ موسوعات وتراجم وطبقات وكتب تاريخ وخطط وآثار :

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين بن محاسن ، يوسف بن تغري بردي .

صبح الأعشى في صناعه الانشا للقلقشندي

مقدمة ابن خلدون وكتابـه العبر

دراسة مقدمة ابن خلدون لساطع الحصري

الموسوعة الاسلامية ، الترجمة العربية ، لبروكلمان

وفيات الأعيان لابن خلكـان

مسالك الابصار في ممالك الأبصار لابن فضل الله شهاب الدين

دائرة المعارف الاسلامية بالفرنسية والانكليزية

نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري

معجم الأدباء لياقوت الحموي

بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن اياس ٩٣٠ هـ : (شهد فتح السلطان سليم لمصر)

حسن المحاضره في أخبار مصر والقاهره للسيوطي ٩١١ هـ

الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع لشمس الدين السخاوي ٩٠٢ هـ

تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والبقاع المباركات لشمس الدين السخاوي ٩٠٢ هـ

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للقاضي محمد بن علي الشـــوكاني المتوفي ١٢٥٠ هـ

ملحق البدر الطالع لمحمد بن زباره الحسني اليمني

السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ٨٤٥ هـ : نشره د. محمد مصطفى زياده

مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل المتوفى ٦٩٧ هـ

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة ٦٦٥ هـ وهو مستقى من رسائل القاضي الفاضل وعماد الدين الاصفهاني وابن شداد

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيه لابن شداد ٦٣٢ هـ

الافاده والاعتبار في الامور المشاهده والحوادث المعاينة لعبد اللطيف البغدادي المتوفى ٦٢٩ هـ ١٢٣٤ م

الفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الكاتب ٥٩٧ هـ

تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الكاتب ٥٩٧ هـ

تاريخ ابن الفرات ٨٠٧ تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعه لابن الفوطي (كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق ٧٢٣ هـ ، تحقيق مصطفى جواد)

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله وشهر بابن جلبي ١٠٦٧ هـ

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان من ٤٩٥ ـــ ٦٥٤ هـ لسبط ابن الجوزي المتوفى ٦٥٤ هـ

الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئه السابعة : ابن سعيد الاندلسي المتوفى ٦٨٥ هـ

بغية الوعاه فى طبقات اللغويين والنحاة : السيوطي ٩١١ هـ
أمراء دمشق في الاسلام للصلاح الصفدي ٧٦٤ هـ
قضاة دمشق لابن طولون (شمس الدين ، عاش في القرن التاسع)
الكواكب السائره في أعيان المئة العاشره لنجم الدين الغزي
خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبّي (محمد أمين بن فضل الله المعروف بالمحبي الدمشقي) ١١١١ هـ
سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر للمرادي (أبي الفضل محمد خليل الدمشقي) ١٢٠٦ هـ
الكامل لابن الأثير (عز الدين) طبع القاهره ١٣٠٣ هـ (المؤلف من القرن السادس وأوائل السابع)
طرق الأصحاب في معرفة الأنساب (السلطان الملك الأشرف عمر بن يوسف) تحقيق ك• وسترسنين مطبعة الترقي بدمشق ١٣٦٩ هـ ١٩٤٩ م
ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة توفي ٨٥٢ هـ
النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس توفي ٩٢٧ هـ
ابن الوردي تتمة المختصر في اخبار البشر ، توفي ٧٤٩ هـ
ابن أبي أصيبعه ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، توفي ٦٦٨ هـ
السبكي ٧٧١ هـ (تاج الدين) طبقات الشافعية الكبرى
ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات توفي ٧٦٤ هـ
الصفدي (٧٦٤ هـ) الوافي بالوفيات : نشر جماعة المستشرقين الالمانية ١٩٣٩
البداية والنهاية لابن كثير ٧٧٤ مطول في التاريخ العام
المقريزي ٨٤٥ : السلوك لمعرفة دول الملوك
الخطط : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
اغاثة الامة بكشف الغمة
حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر (الهجري) لعبد الرزاق البيطار

٢ ــ ادب وتراجم ادبية وفنون أدبية :

العماد الكاتب : خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء مصر : تحقيق شوقي ضيف

العماد الكاتب : خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء الشام : تحقيق شكري فيصل

العماد الكاتب : خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء العراق : تحقيق جميل سعيد ومحمد بهجة الأثري

المقّري ١٠٤١ : نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب

أزهار الرياض في اخبار عياض

ابن سناء الملك : دار الطراز في عمل الموشحات

الصفدي : جنان الجناس في علم البديع

الميداني : مجمع الأمثال

النواجي : حلبة الكميت في وصف الخمر وأحوالها وتوفي ٨٥٩ هـ أو ٨٤٩ هـ

ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر

ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا لشهاب الدين الخفاجي (ت ١٠٦٩ هـ)

نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة لمحمد أمين المحبّي (ت ١١١١ هـ)

سلافة العصر في محاسن شعراء كلّ مصر لابن معصوم (علي صدر الدين اليمني ت ١٠٠٩ هـ)

٣ ــ كتب في تراجم أشخاص أو في موضوعات خاصة :

العماد الأصفهاني لمظفر سلطان

تحفة النظار في غرائب الأمصار لابن بطوطة

الاعتبار ، ولباب الألباب ، والمنازل والديار ، والبديع في نقد الشعر : لأسامة بن منقذ

رسائل ابن الأثير : تحقيق أنيس المقدسي

ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي

حسن التوسل الى صناعة الترسل للشهاب محمود

منامات الوهراني ومقاماته ورسائله

كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار لابن غـانم
والفول النميس في تفليس ابليس لابن غانم
حياة شيخ الاسلام ابن تيمية للشيخ بهجة البيطار
رحلة ابن جبير
تلبيس ابليس لابن الجوزي
فصوص الحكم لابن عربي تحقيق أبي العلاء عفيفي
آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوّة لبدر الدين محمد الغزي
آداب المؤاكلة لبدر الدين محمد الغزي

٤ ـ من الدواويـن :

دواوين : الحلي والبهاء زهير ، وابن نباتة ، وابن النقيب الدمشقي ، وابن مطروح وأسامة بن منقذ والشاب الظريف وابن عنين وفتيان الشاغوري والتلعفري وابن الساعاتي والشرف الأنصاري وابن عربي وعرقلة الكلبي ...

٥ ـ من الكتب الدينية :

اختصار علوم الحديث : الحافظ بن كثير ٧٧٤ هـ
الاتقان في علوم القرآن : السيوطي
زاد المعاد في هدى خير العباد : ابن القيم الجوزي ٧٥١ هـ
أعلام الموقعين عن رب العالمين : ابن القيم الجوزي ٧٥١ هـ
النهاية في غريب الحديث والأثر لمحمد بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير مجد الدين المحدّث المتوفى ٦٠٦ هـ

٦ ـ من كتب اللغة والنحو :

(الخفاجي ١٠٦٩ هـ) : شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل (شهاب الدين أحمد بن محمد)
المزهر في اللغة للسيوطي
مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري
لسان العرب لابن منظور
القاموس المحيط للفيروز ابادي
تهذيب الايضاح للقزويني (جلال الديـن محمـد بن عبد الرحمن ٧٣٩)

٧ ـ من المراجـع في لغـات اجنبية :

Rikabi Jawdat · La Poêsie profane sous les Ayyübides et-ses principaux representants.

R. Dozi : Dictionnaire détaillée des noms des vêtements chez les arabes. Amésterdam 1845.

Hartwig Derenbourg : Ousama Ibn Mounkedh. 2 Vol. Paris Ernest Leroux Editeur 1889.

Encycolopédie de l'Islam : Version Française . Leide 1913 - . 4 Vol. Supelement. 1. Vol.

Stevenson : The Gusades in the East.

Stanly — Laine — Poole : Saladin and the faul of the Kingdom of Jerusalem

The Grusades in the Later Middle Ages (London, 1938).

Stanly — Laine — Poole : History of Egyptian, The Middle Ages (London, 1892)

الدكتور عزيز عطية سوريال

The Story of Cairo (London, 1912).

Caston Wiet · Précis de l'histoire de l'Egypte. 4 Vol.

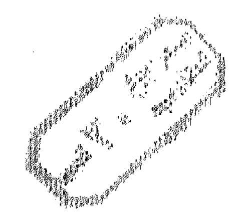
Histoire de la nation Egyptienne . 7 Vol. IV, l'Egypte Arabe.

محتويات الجزء الثـاني



قصدت محوك الأعــادي فرد الله ما أمـــلوه عنـــك وعنـــا
وتولت تلك الخيول ولم يثـــ ـــن عليهـــا بأنهـــا ليس تثنى
لا تخص الشآم منك التهـــاني كل صقـــع وكل قطـــر يهنـــا

« ابن سناء الملك في صلاح الدين
حين حرر القدس »



مطبعة ابن خلدون ـ دمشق